وزارة الثقافة
الهيئة العامة السورية للكتاب

أوراق ثقافية

شحادة الخوري

آفاق ثقافية
١١١

أوراق ثقافية

آفاق ثقافية

رئيس مجلس الإدارة

الدكتورة لبانة مشوّح

وزيرة الثقافة

المشرف العام والمدير المسؤول

د. نهاد جرد

المدير العام للهيئة العامة السورية للكتاب

أوراق ثقافيـة

شحادة الخوري

منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب

وزارة الثقافة - دمشـق ٢٠١٢م

آفــاق ثقافيــة
العــدد (١١١)
تمـوز ٢٠١٢م

أوراق ثقافية /شحادة الخوري . - دمشق : الهيئة العامة السورية للكتاب، ٢٠١٢م . - ٣٢٨ ص؛ ٢٠ سم.

(آفاق ثقافية؛ ١١١)

١ - ٣٠٦,٤٠٩٥٦ خ و ر أ ٢ - العنوان
٣ - الخوري ٤ - السلسلة

مكتبة الأسد

تقديم

بالخبز يحيا الإنسان، ولكن ليس بالخبز وحده بل بالكلمة كذلك. الخبز يغذي الجسد وأما الكلمة فتغذي نفس الإنسان، عقله وعاطفته. الأرض تستقبل حبة القمح ثم تبعثها سنابل ممتلئة بالحب. الأرض تنبت وتستنبت، وأما القلم فيستقبل الكلمات ويمضي بها إلى النفس حيث يجد قبسات العقل ونبضات القلب وتتولد الأفكار وتتفجر الأحاسيس والمشاعر.

الثقافة نتاج اليد والقلم معاً تصقل وتعلم، والقلم ينير وينبسط على صفحات الكتب فيرسم صورة الإنسان في وقوفه وحراكه ويرسم صورة الطبيعة في ثرائها وبهائها.

الثقافة هي المعرفة بشمولها وبكل اتساعها. إنها معرفة شيءٍ عن كل شيْ . إن المعرفة المكتسبة تتجه أفقياً لتصل إلى كل ما هو تحت الحس وخارجه ولا تسير عمقاً فتتناول جانباً واحداً من جوانب المعرفة. يقال ليس كل متعلم مثقفاً بل ولا كل عالم لأن العلم والتعلم من شأن العقل وحده وينصبان على حيّز معين دون سواه، أما الثقافة فهي تتجاوز العقل إلى الشعور والعاطفة والذوق والخيال،

وتحيط بنفس الإنسان وبالطبيعة التي تكتنفه. لقد وردت كلمة مثقف في معلقة عنترة العبسي الشاعر الجاهلي صفة للرمح المقوّم المصقول، وما أصدق هذا الوصف إن أطلق على الإنسان الذي صفا ذهنه وصقلت موهبته وتوهجت أفكاره وعواطفه. إن! الثقافة تصنع الإنسان وترشده إلى الكمال، فدورها لا يصح نكرانه أو إغفاله.

إنّ هذه الصفحات التي أقدم لها كتبتها في أوقات مختلفة وألقيتها محاضرات في مراكز الثقافة، كما نشرت في المجلات هنا وهناك. إنّ موضوعات هذه الدراسات يتصل بعضها ببعضٍ برباط وثيق يكسبها تكاملاً ووضوحاً وأقدمت على جمعها ونشرها في كتاب لعلها تجيب قارئها على بعض التساؤلات وتحبب إليه العودة إلى مصادر الثقافة العربية القديمة، وما أغناها، وإلى مراجع الثقافة العربية الحديثة المعاصرة وإلى المترجمات من أعمال الآخرين، فيكون له من بعد ذلك لذّة التذوق وجمال التصور، ويحظى بزادٍ وافرٍ مفيد وممتع.

المؤلف

الخطة الشاملة للثقافة العربية
في عمل جامعة الدول العربية(*)

المقدمة:

يكثر الحديث في هذه الآونة، عن الثقافة ودورها في حياة الفرد والمجتمع. ويعود ذلك إلى أسباب عديدة أهمها:

١ - أنَّ الثقافة هي التي تشكل هوية الإنسان عامة، وتحدد نسبته إلى جماعة بشرية دون أخرى. أي هي الأساس في تكوين الأمة وانتماء أبنائها إليها. وهي ليست السمة الملازمة للإنسان فحسب، بل تدخل في التكوين النفسي والعقلي، وفي تربتها تنمو ملكاته وتتجلى قدراته، ولذا يكون بها معتزاً وعليها حريصاً.

٢ - أنَّ ثقافتنا العربية التي نبتت في بيئة طبيعية واجتماعية معينة منذ آلاف السنين، ثم استوت دوحة باسقة مثقلة بالتراث من قيم روحية وخلقية وحكمة وآداب وعلوم وفنون،

(*) ألقيت في المركز الثقافي العربي بدمشق.

ومن شمائل وتقاليد وأنماط عيش، ومن لغة فريدة بين اللغات، هذه الثقافة التي ما انفكت تنمو وتنمَّى، تتطور وتتجدد، تأخذ عن مقدرة، وتعطي بسخاء، عربية مشرقية في طابعها، إنسانية في جوهرها، قد تعرضت لكونها حصن الأمة وحماها وملاذها، لحملات مغرضة ظالمة آخرها محاولة اختراقها واستلابها وتغريبها وتطويعها لمفهومات ضالة مضللة.

٣ - أن الثقافة، بحكم أهميتها، لم تعد متروكة، بسبب التغيرات الفكرية والسياسية والاقتصادية التي عصفت بالعالم هذا القرن، وما تزال، للتطور الطبيعي والنماء العفوي بل خضعت للدراسات المعمقة والمقارنة، وأخضعت للتخطيط المحكم وما يتطلبه من برامج ومشروعات، وأجهزة ومؤسسات، وأموال واعتمادات.

ومثل هذا حدث للثقافة العربية، منذ أن تداعت سبع دول عربية هي: مصر وسورية والعراق ولبنان والأردن واليمن والسعودية إلى وضع ميثاق جامعة الدول العربية ووقعته بتاريخ ٢٢ آذار/مارس ١٩٤٥، ثم انضمت إليها الدول العربية الأخرى تباعاً.

ومنذ ذلك الحين، بدأ عمل عربي ثقافي مشترك، قوامه التخطيط والتعاون لإرساء ثقافة عربية واحدة، أداتها لغة عربية واحدة، في وطن عربي واحد. وقد مرَّ هذا العمل بمراحل عدة،

حتى بلغ مستواه الاستراتيجي الشامل فيها سمِّي "الخطة الشاملة للثقافة العربية" التي صدرت عام ١٩٨٥ أي بعد أربعين سنة من نشوء جامعة الدول العربية.

وضعت المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم هذه الخطة واستمر العمل لإنجازها مدة أربع سنوات، واقترنت بعد ذلك بموافقة مؤتمر الوزراء العرب المسؤولين عن الشؤون الثقافية المنعقد في الفترة ٢٦ -٢٨ تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٨٥ بتونس، وموافقة المؤتمر العام للمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم المنعقد في ٢١ -٢٤ كانون الأول/ديسمبر ١٩٨٥ بتونس أيضاً.

إنّ المنظمة العربية المذكورة لم تُقْدِمْ على وضع هذه الخطة التي تُعدُّ انعطافاً في عملها الثقافي وانتقالها من مستوى المشروعات الثقافية المتفرقة إلى مستوى التخطيط الستراتيجي، فجأة أو مصادفة، بل كان ذلك بفضل بلوغها مرحلة متقدمة من مراحل عملها الذي باشرته من تاريخ نشأتها عام ١٩٧٠ ونتيجةً للخبرات الواسعة التي تحصلت لها من جهة، ونتيجة للتقدم الكبير الذي حققه العمل الثقافي في الوطن العربي، بأقطاره المتعددة، على أصعدة الإبداع والإنتاج والتشريع والتخطيط والتنظيم، مع توافر عدد كبير من رواد الثقافة ومن الهيئات والمؤسسات الثقافية.

إن هذا التطور الإيجابي في العمل الثقافي، على الصعيد القومي، يقتضينا، قبل التفصيل في موضوعات الخطة، أن نستعرض، بكل الإيجاز الممكن، المراحل التي سبقت وضع الخطة ومهَّدت له.

وتوخياً للدقة والوضوح نقسم المدة التي استغرقها العمل الثقافي العربي حتى الآن، في رعاية جامعة الدول العربية إلى ثلاث مراحل:

المرحلة الأولى: تبدأ بقيام جامعة الدول العربية وتنتهي بقيام المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، وتبلغ (٢٥) عاماً: ١٩٤٥ -١٩٧٠.

المرحلة الثانية: تبدأ بقام المنظمة العربية المذكورة وتنتهي بالموافقة على الخطة الشاملة للثقافة العربية وتبلغ (١٥) عاماً: ١٩٧٠ -١٩٨٥.

المرحلة الثالثة: تبدأ بإقرار الخطة الشاملة المشار إليها وتنتهي بمرور خمسين عاماً على تأسيس الجامعة وتبلغ (١٣) عاماً، ١٩٨٥ -١٩٩٨.

المرحلة الأولى: (١٩٤٥ -١٩٧٠):

كان للشأن للثقافي اهتمام خاص منذ بداية المباحثات التي أجراها المسؤولون العرب بشأن إنشاء جامعة الدول العربية،

وذلك أمر طبيعي لأنَّ الثقافة العربية، ودعامتها اللغة العربية، هي جوهر الهوية العربية وطابع الأمة العربية المعبّر عن حقيقتها، وهي القادرة على تكوين الإنسان العربي المعاصر وتحديد دوره في بناء الحضارة الإنسانية.

نص ميثاق الجامعة: الذي وقع بتاريخ ٢٢ آذار ١٩٤٥ على أهدافها ومنها: «تعاون الدول العربية المشتركة في الجامعة الشؤون الاقتصادية والمالية والمواصلات والثقافة...».

ونصت المعاهدة الثقافية بين الدول الأعضاء في الجامعة التي أقرها مجلس الجامعة بتاريخ ٢٧ تشرين الثاني ١٩٤٥، وهي أول معاهدة تبرم بين هذه الدول على تعاون الدول العربية في جميع مجالات التربية والثقافة والعلم ومنها: إحياء التراث الفكري والمحافظة عليه ونشره، وترجمة عيون الكتب الأجنبية القديمة والحديثة، وتنشيط الإنتاج الفكري ووضع التشريعات الثقافية، وتوثيق الصلات بين رجال الآداب والفنون والصحافة، وعقد المؤتمرات والندوات الثقافية إلى غير ذلك من وحدة التعاون.

وتطبيقاً لهذه المعاهدة أنشأت الجامعة المؤسسات الثقافية التالية:

١ - اللجنة الثقافية: بمثابة مؤتمر ثقافي مهمته التخطيط ووضع المشروعات والتوصيات.

٢ - المكتب الدائم: هيئة تنفيذية لما تقرره اللجنة الثقافية.

٣ - اللجان المحلية: لجنة محلية في كل عاصمة، تهتم بالتعاون الثقافي.

٤ - الإدارة الثقافية: تتألف من موظفين دائمين متفرغين لدى الأمانة العامة للجامعة.

وأحدثت عدداً من الأجهزة الثقافية الخارجية:

١ - معهد المخطوطات العربية: أحدث عام ١٩٤٦ بالقاهرة.

٢ - معهد البحوث والدراسات العربية: أحدث عام ١٩٥٣ بالقاهرة.

٣ - المكتب الدائم للتعريب (مكتب تنسيق التعريب): أحدث بالرباط عام ١٩٦١.

٤ - الجهاز العربي لمحو الأمية وتعليم الكبار: أحدث عام ١٩٦٧ بالإسكندرية.

٥ - المتحف الثقافي: أحدث عام ١٩٤٩ بالقاهرة لجمع القوانين والأنظمة والبيانات والإحصاءات المتعلقة بالثقافة.

وقامت بالأعمال الثقافية الكثيرة ومنها:

١ - عقد تسعة مؤتمرات للوزراء المسؤولين عن الشؤون الثقافية.

٢ - عقد ستة مؤتمرات للآثار.

٣ - عقد المؤتمر الأول لأجهزة محو الأمية في البلاد العربية.

٤ - عقد حلقات دراسية عديدة حول: وسائل تيسير تداول الكتاب العربي ونشره، مناهج محو الأمية، ثقافة الطفل، مشكلات التعليم العالي...

٥ - أصدرت الإدارة الثقافية مؤلفات ومترجمات مهمة: دراسة تحليلية لكتاب الحاوي للرازي، الموجز في تاريخ الطب والصيدلة عند العرب، كتاب "قصة الحضارة" لديورانت، كتاب "الرياضيات" لرسل، و"تاريخ العلوم" لسارتون، وبعض أعمال شكسبير وراسين المسرحية وموسوعة "تاريخ الأدب العربي" لبروكلمان.

المرحلة الثانية: (١٩٧٠ -١٩٨٥):

أصدر وزراء المعارف والتربية والتعليم العرب، في مؤتمرهم الثاني المنعقد ببغداد بتاريخ ٢٩ شباط ١٩٦٤ مشروع "ميثاق الوحدة الثقافية العربية" المتضمن إنشاء منظمة باسم "المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم".

وقد أقر مجلس جامعة الدول العربية بتاريخ ٢١ أيار ١٩٦٤ الميثاق المذكور كما أقرَّ دستور المنظمة العربية العتيدة.

أ - ميثاق الوحدة الثقافية العربية:

صُدِّرَ بالعبارة التالية: توافق الدول العربية على الميثاق التالي استجابة للشعور بالوحدة الطبيعية بين أبناء الأمة العربية، وإيماناً بأن

وحدة الفكر والثقافة هي الدعامة الأساسية التي تقوم عليها الوحدة العربية، ثم ينص على مختلف الأعمال الثقافية التي ينبغي التعاون على تحقيقها بحكم وحدة الفكر والثقافة العربيين.

ب - دستور المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم:

ينص في مادته الأولى على أن: «هدف المنظمة هو التمكين للوحدة الفكرية بين أجزاء الوطن العربي عن طريق التربية والثقافة والعلوم، ورفع المستوى الثقافي في هذا الوطن حتى يقوم بواجبه في متابعة الحضارة العالمية والمشاركة الإيجابية فيها»، ثم يعدد الأعمال التي ينبغي أن تنهض بها المنظمة العربية في ميادين التربية والثقافة والعلوم.

وهكذا قامت هذه المنظمة بمثابة وكالة متخصصة تعمل في نطاق جامعة الدول العربية وتتعاون معها، وتمثل في تكوينها وأهدافها وطرائق عملها، بالنسبة إلى الجامعة، ما تمثله المنظمة العالمية للتربية والعلم والثقافة (اليونسكو) بالنسبة لمنظمة الأمم المتحدة وجُعِلَ اسمُها المُصغَّر (الكسو).

وتتألف بنية المنظمة من هيكلين:

أ - الهيكل التشريعي، ويتألف من المؤتمر العام والمجلس التنفيذي.

ب - الهيكل التنفيذي، ويتألف من المدير العام والقطاعات الأربعة: التربية، الثقافة، العلوم، والخدمات.

أما الإدارات والأجهزة التي أحدثت، بالإضافة إلى ما كان قائماً منها، قبل نشوء المنظمة فهي:

١ - إدارة الإعلام: أحدثت عام ١٩٧٨في مقر المنظمة.

٢ - معهد الخرطوم الدولي للغة العربية: أنشئ عام ١٩٧٧ بالخرطوم.

٣ - المكتب الإقليمي لشرق إفريقيا: أحدث عام ١٩٧٨ بمقديشو.

٤ - جهاز التعاون الدولي لتنمية الثقافة العربية الإسلامية: أحدث عام ١٩٨٢ بالمقر.

٥ - مؤسسة الموسوعة العربية: أنشئت عام ١٩٨٣ ببغداد.

٦ - المركز العربي للتعريب والترجمة والنشر: أحدث عام ١٩٩٠ بدمشق.

وأما الأعمال والمنجزات خلال هذه المرحلة فيصعب تعدادها، ونشير إليها باختصار

١ - **التصور الشامل والخطط المرحلية:** عملت المنظمة العربية عام ١٩٨٣ على وضع تصور شامل لعملها يكون تحقيقاً لأهدافها، ويتمثل هذا التصور في خطط: خطة طويلة المدى تستغرق ثمانية عشر عاماً وتنطوي على ثلاث خطط متوسطة المدى تستغرق كل منها ست سنوات، وكل خطة متوسطة المدى

تتضمن خططاً ثلاثاً قصيرة المدى، كل واحدة منها مدتها عامان، علماً بأن ميزانية المنظمة توضع لكل عامين وتمول الدول الأعضاء حسب أنصبتها المقررة في الجامعة.

٢ - **الخطة الشاملة للثقافة العربية:** وضعتها لجنة من كبار رجال الفكر والأدب والفن واستغرق إعدادها أربع سنوات، لتكون دليل عمل تسترشد به الدول العربية ومنظماتها وهيئاتها الثقافية من أجل تنمية الثقافة العربية في الوطن العربي وخارجه، وسنفصل في الكلام عن هذه الخطة لاحقاً.

٣ - **التنمية الثقافية:** وتشمل مجالاتٍ عدة:

أ - صيانة الآثار الحضارية العربية.

ب - المحافظة على التراث الفكري والعلمي وإحياؤه.

جـ - قضايا الثقافة المعاصرة: الشعر والرواية والقصة والمسرح والنقد الأدبي...

د - الترجمة والتعريب والمصطلح: أحدثت عام ١٩٨١ وحدة الترجمة بإدارة الثقافة بالمنظمة فعالجت الترجمة من جوانب ثلاث:

- التنسيق والتخطيط: وضعت الخطة القومية للترجمة، صدرت عام ١٩٨٥.
- تكوين المترجمين: اقترحت إحداث «معهد عربي عالٍ للترجمة» ولم يحدث لأسباب مالية.

• إنتاج الترجمات: اقترحت إحداث «المركز العربي للتعريب والترجمة والتأليف والنشر» بدأ عمله عام ١٩٩٠ بدمشق. ووضعت الوحدة «دليل المترجمين في الوطن العربي» وأصدرت كتاب «دراسات عن واقع الترجمة في الوطن العربي» في مجلدين.

هـ - تنمية الثقافة العربية الإسلامية في الخارج: في بعض الدول الإفريقية والآسيوية، وبين المهاجرين العرب في أوروبا، وبعض الأقطار العربية ذات الأوضاع اللغوية الخاصة مثل الصومال وجيبوتي وموريتانيا وجنوب السودان.

٤ - **الأمن الثقافي:** وتمثل بمشروعين:

أ - الصناعات الثقافية: وضعت المنظمة العربية دراسات جادة عن الحاجات والمستلزمات وكيفية تأمينها.

ب - التشريعات الثقافية: وضعت تشريعات نموذجية لمساعدة الدول العربية على وضع تشريعات خاصة مثل: الاتفاقية العربية لحماية حقوق المؤلف، وقانون الآثار الموحد، والقانون النموذجي لحماية المخطوطات، والتشريع النموذجي لرعاية المبدعين والاتفاقية العربية لتيسير انتقال الإنتاج الثقافي.

٥ - **التعاون الثقافي:** أقامت علاقات تعاون واسعة مع عدد من المنظمات العربية والعالمية مثل مكتب التربية العربي لدول

الخليج، والمنظمة الإسلامية للتربية والعلم والثقافة، والمنظمة العالمية للتربية والعلم والثقافة، ونظمت ندوة همبورغ عام ١٩٨٣ في نطاق الحوار العربي الأوروبي.

٦ - **فلسطين:** أحدثت قسماً خاصاً بالشؤون الفلسطينية وعقدت «الندوة العالمية الأولى للآثار الفلسطينية»، بالجزائر عام ١٩٨٢، ودعمت مركز الآثار الفلسطينية بحلب وأصدرت «سلسلة المدن الفلسطينية» وكتاب «الآثار الفلسطينية» واهتمت بموضوع مواجهة الغزو الثقافي الصهيوني (المؤتمر الاستثنائي لوزراء الثقافة، دمشق عام ١٩٨٠) وعملت على إصدار «الموسوعة الفلسطينية». في أربعة أجزاء بالتعاون مع منظمة التحرير الفلسطينية.

المرحلة الثالثة (١٩٨٥ -١٩٩٨):

تمهيد:

استهدف العمل الاستراتيجي الذي قامت به المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، وضع مراجع وأدلة عمل تستهدي به الدول العربية وتستفيد منه في صوغ سياساتها ورسم خططها وبرامجها التربوية والثقافية والعلمية، رداً على ما تواجهه أمتنا العربية في هذا العصر من تحديات مصيرية، وحرصاً على استئنافها دورها الحضاري في العالم.

وانطلاقاً من هذا الهدف، وبناءً على توجيهات المؤتمرات الوزارية العربية المختصة: مؤتمر وزراء الثقافة، مؤتمر وزراء التعليم العالي والبحث العلمي، المؤتمر العام للمنظمة المؤلف من وزراء التربية والتعليم والمعارف، أعدت المنظمة العربية الاستراتيجيات التالية:

١ - استراتيجية تطوير التربية العربية: أقرها المؤتمر العام الإستثنائي المنعقد بالخرطوم عام ١٩٧٨.

٢ - الاستراتيجية العربية لمحو الأمية وتعليم الكبار: أقرها المؤتمر العام الاستثنائي المذكور.

٣ - الخطة الشاملة للثقافة العربية: أقرها المؤتمر العام المنعقد بتونس عام ١٩٧٨.

٤ - استراتيجية تطوير العلوم والتِّقانةَ في الوطن العربي أقرها المؤتمر العام المنعقد بتونس عام ١٩٨٧.

أ - **الخطوات السابقة:** أفردت المنظمة العربية مكاناً خاصاً للسياسة الثقافية في برامجها، فشكلت عام ١٩٧٤ لجنة أوكلت إليها تخطيط العمل الثقافي وتنظيم أجهزته في الوطن العربي.

أصدر المؤتمر الأول لوزراء الثقافة العرب الذي انعقد في عمان عام١٩٧٦ بياناً تضمن أفكاراً متقدمة في التخطيط الثقافي هي:

١ - الثقافة هي قوام شخصية الأمة والمعبّر الأصيل عن تطلعاتها وأمانيها والدعامة الحق لوحدتها الشاملة.

٢ - ضرورة وضع سياسة ثقافية عربية موحَّدة واضحة الأهداف والمعالم والوسائل تلتزم بها الدول العربية.

٣ - ضرورة التكافل الثقافي العربي، ودعم مجالات التعاون فيه وتحقيق تنسيق متكامل شامل يعزز الوحدة الثقافية العربية.

٤ - الإيمان بالدور الحضاري الرائد للثقافة العربية وبقدرتها على متابعة رسالتها لخير البشرية وإغناء الفكر الإنساني، وتعميق التواصل بينها وبين الثقافات الأخرى.

٥ - مسؤولية الأمة العربية في تقديم الثقافة العربية والتراث الإسلامي ونشر اللغة العربية بين المسلمين، وخاصة في أفريقيا وآسيا.

ثم ذكر البيان المبادئ التي تتجم عن هذه الأفكار وأساليب التخطيط الثقافي وأصدر توصيات هامة مثل الدعوة إلى إيجاد وزارات مستقلة للثقافة،وتعزيز تمويل العمل الثقافي وتوحيد أنظمته...

وأهم ما نجم منه هو الانتقال من مفهوم السياسة الثقافية إلى مفهوم الخطة الشاملة (الاستراتيجية).

الخطوات السابقة: متابعةً لما دعا إليه مؤتمر عمان المذكور، دعا المؤتمر العام للمنظمة العربية لعام ١٩٧٨ إلى وضع استراتيجية للثقافة العربية، ثم كرر المؤتمر الثقافي لوزراء الثقافة العرب المنعقد بطرابلس عام ١٩٧٩ دعوته لتشكيل لجنة تُكلف بإعداد الخطة الشاملة.

وفي تموز عام ١٩٧٩ أصدر المجلس التنفيذي للمنظمة العربية قراراً بتسمية الأستاذ عبد العزيز حسين وزير الدولة لشؤون مجلس الوزراء بالكويت رئيساً للجنة، وتلا ذلك إصدار المدير العام للمنظمة العربية قراره بتسمية أعضاء اللجنة البالغ عددهم ستة عشر بالإضافة إلى الرئيس، وهم نخبة من رجال الثقافة تم اختيارهم بالتشاور مع حكوماتهم وهم السادة:

١ - أ. د. كمال أبو المجد المستشار القانوني والدستوري لدى سمو ولي عهد الكويت.

٢ - أ. أحمد مشاري العدواني الأمين العام للمجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب بالكويت.

٣ - أ. أديب اللجمي مستشار المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم للشؤون الثقافية.

٤ - د. أنيس صايغ مستشار في جامعة الدول العربية/ فلسطين.

٥ - أ. د. شاكر مصطفى الأستاذ في جامعة الكويت / وزير سابق سورية.

٦ - أ. شفيق الكمالي وزير سابق / العراق.

٧ - أ. الطيب صالح المستشار الإقليمي للاتصال باليونسكو – السودان.

٨ - أ. عبد الحميد المهري رئيس لجنة الإعلام والثقافة والتكوين – عضو اللجنة المركزية.

٩ - أ. د. عبد العزيز المقالح مدير جامعة صنعاء / اليمن.

١٠ - أ. عبد الكريم غلاب الوزير المنتدب لدى الوزير الأول / المغرب.

١١ - أ. د. محمد أحمد الرشيد المدير العام لمكتب التربية العربي بدول الخليج /السعودية.

١٢ - أ. د. محمد أحمد الشريف أمين عام جمعية الدعوة الإسلامية/ ليبيا.

١٣ - أ. د. محمد جابر الأنصاري أستاذ في جامعة الخليج / البحرين.

١٤ - أ. محمد المسعدي رئيس مجلس الأمة التونسي / تونس.

١٥ - أ. د. منصور الحازمي عميد مركز الدراسات الجامعية للبنات بجامعة الملك سعود بالرياض / السعودية.

١٦ - أ. د. ناصر الدين الأسد رئيس المجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية (مؤسسة آل البيت) الأردن.

وأصدر المدير العام للمنظمة العربية قراراً بتسمية الأستاذ الدكتور شاكر مصطفى أميناً عاماً للجنة، إضافةً إلى عضويته

فيها. وقدمت دولة الكويت مقراً للجنة مزوداً بأدوات العمل مع جهاز إداري وفني.

وقد حضر جميع اجتماعات اللجنة وشارك في أعمالها المفكر الأديب العربي الأستاذ الدكتور محيي الدين صابر المدير العام للمنظمة، حتى استوت الخطة وثيقةً كاملة وشهادة ساطعة على الثقافة العربية الواحدة العريقة، بماضيها، الواثقة بحاضرها والمتطلعة إلى مستقبل زاهر.

و - أعمال اللجنة:

عقدت اللجنة اجتماعها الأول في الكويت من ١٣-١٥ نيسان/ابريل ١٩٨٢، وحددت أهداف الخطة ومبادئها ووسائلها كما يلي:

١ - الأهداف:

١ - تطويرُ البنى الاجتماعية والاقتصادية والفكرية في الوطن العربي...

٢ - تنميةُ الهوية الحضارية العربية الإسلامية وإبرازها...

٣ - التحرر القومي بوصف الثقافة عنصر دفاع ضد الاستلاب والتبعية والتشويه.

٤ - تكوين شخصية المواطن العربي وإغناؤها...

٥ - العطاء القومي والإنساني بوصف الثقافة مصدر إبداع وعطاء...

٢ - المبادئ:

١ - حق الإنسان العربي في اكتساب الثقافة والتعبير عنها...

٢ - الثقافة بُعدٌ أساسي من أبعاد التنمية الشاملة...

٣ - التراث الحضاري العربي هو المنبع الأصيل في تكوين الثقافة...

٤ - ديمقراطية الثقافة والمشاركة الجماهيرية في إنتاجها والإفادة منها...

٥ - قومية الثقافة: واحدة موحدة ولغتها العربية...

٦ - عصرية الثقافة : استيعاب تيارات العصر ومواكبة تحولاته مع الحفاظ على الأصالة...

٧ - إنسانية الثقافة: الإسهام في إقامة نظام ثقافي دولي جديد...

٨ - عالمية الثقافة: المشاركة الإيجابية في تقدم الحضارة الإنسانية، والتفاعل مع الثقافات الأخرى...

٩ - مسؤولية الدولة والمؤسسات الشعبية في التخطيط الثقافي الشامل...

٣ - الوسائل:

١ - الاعتماد على العناصر المبدعة والمنظمة للعمل الثقافي...

٢ - توفير الوسط الملائم: حرية الإبداع والتعبير والعيش الكريم لصانعي الثقافة..

٣ - تأمين التمويل اللازم للمشروعات الثقافية...

٤ - وضع التشريعات اللازمة للتنمية الثقافية...

٥ - العناية بالبحث والتقويم والتوثيق الثقافي...

٦ - التخطيط الثقافي المرحلي على مدد زمنية...

٧ - تحقيق التكامل الثقافي النظري وتوثيقه مع التربية والإعلام...

٨ - السعي لتحقيق الأمن القومي في صوره المعنوية والمادية...

٩ - تحقيق التكامل الثقافي القومي على أساس وحدة الثقافة العربية...

١٠ - الاهتمام بالتعاون الثقافي الدّولي على أساس التكافؤ...

٤ - الندوات المتخصصة:

رأت اللجنة الاستنارة بآراء المفكرين والخبراء في ميادين الثقافة، فعقدت (٢٧) ندوة متخصصة، حضر كلاً منها ٢٠ -٢٥ خبيراً ثقافياً، وقدم فيها (٥٤) بحثاً للمناقشة، ووضعت كل ندوة توصياتها، وذلك خلال الأعوام ١٩٨٢، ١٩٨٣، ١٩٨٤:

١ - ندوة وسائل التخطيط الثقافي.
٢ - ندوة المخطوطات العربية والوثائق.
٣ - ندوة الآثار والمتاحف.
٤ - ندوة التراث الشعبي.
٥ - ندوة الأهداف والمبادئ.
٦ - ندوة العقول المهاجرة.
٧ - ندوة التثقيف العلمي.
٨ - ندوة ندوة الإنتاج الفكري.
٩ - ندوة الغزو الثقافي.
١٠ - ندوة اللغة العربية والمجامع.
١١ - ندوة الفكر الإسلامي.
١٢ - ندوة الترجمة والتعريب.
١٣ - ندوة ثقافة الشباب.
١٤ - ندوة الكمبيوتر.
١٥ - ندوة الثقافة السينمائية.
١٦ - ندوة الصحافة ووكالات الأنباء
١٧ - ندوة وسائل الاتصال الحديثة.
١٨ - ندوة الفنون التشكيلية.
١٩ - ندوة الموسيقى.
٢٠ - ندوة طرز العمارة.
٢١ - ندوة التنسيق الثقافي المحلي.
٢٢ - ندوة ثقافة المعوقين.
٢٣ - ندوة الآداب والنشر الأدبي.
٢٤ - ندوة المسرح.
٢٥ - ندوة الثقافة في فلسطين.
٢٦ - ندوة الصناعات الثقافية.
٢٧ - ندوة الشعر.

وقد دعي إلى حضور هذه الندوات (٦٢٧) باحثاً ومفكراً متخصصاً، حضر منهم (٤٦٧) بنسبة ٧٥% وبعد أربعة أعوام من العمل، أقرت اللجنة مشروع الخطة في اجتماعها السابع الأخير المنعقد بتونس بتاريخ ١٦ -١٨ تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٨٥.

ثم تمت مصادقة مؤتمر وزراء الثقافة والمؤتمر العام للمنظمة على هذه الخطة في أواخر العام المذكور، كما ذكرنا في البداية، ودعا المؤتمران الدول العربية للأخذ بها في خططها للتنمية الثقافية.

٥ - **طباعة الخطة:** طبعت الخطة في أربعة مجلدات:

١ - **المجلد الأول:** يضم التقرير النهائي للجنة ويتضمن الأبواب التالية: الهوية الثقافية العربية.

٢) مبررات الخطة وأهدافها ومبادئها الأساسية.

٣) أسس العمل للخطة: قراءة جديدة للتراث، العناية باللغة العربية، الثقافة والتنمية...

٤) وسائل العمل وشروط نجاحها...

٢ - **الثاني:** يشتمل على ملامح الواقع الثقافي وتوصيات الندوات المتخصصة وعنوانه: الواقع والمستقبل.

٣ - **الثالث:** البحوث ويتألف من ثلاثة مجلدات تضم البحوث التي قدمت للندوات، وعددها (٥٤) بحثاً.

٤ - **الرابع:** الاستبانة: يشتمل على الاستبانة الثقافية التي وضعتها اللجنة ووزعتها على الأقطار العربية لرصد الواقع الثقافي.

ويلي هذه المجلدات فهرس بالمحتويات:

د - **خطوات تنفيذ الخطة:** بادرت إدارة الثقافة بالمنظمة العربية، لاتخاذ خطوات تنفيذ الخطة، بالدعوة إلى عقد سلسلة من الندوات والحلقات الدراسية حول محاور الخطة بقصد استنباط الوسائل التنفيذية لها وتحويل ما تشتمل عليه أفكار

وتوجيهات إلى برامج ومشروعات عمل أي نقل الخطة من الصيغة النظرية إلى الصيغة التطبيقية، على أن تكون الأقنية هي (الاتحادات القومية والقطرية) بحكم صلاتها الرسمية والشعبية كاتحاد الكتاب والأدباء العرب واتحاد الناشرين العرب ووزارات الثقافة والإعلام).

الأولى: بالتعاون مع اتحاد الناشرين في الجماهيرية العربية الليبية بمدينة طرابلس الغرب من ٢٠-٢٥ حزيران/ يونيو ١٩٨٩، وموضوعها الثقافة بوصفها صناعة.

الثانية: بالتعاون مع اتحاد الكتاب العرب في الجمهورية العربية السورية بمدينة دمشق من ٢٥-٢٩ تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٨٩، وموضوعها الثقافة بوصفها إبداعاً.

الثالثة: بالتعاون مع اتحاد كتاب وأدباء دولة الإمارات العربية المتحدة، بمدينة الشارقة في شهر نيسان/ابريل ١٩٩١، وموضوعها الثقافة بوصفها تعبيراً.

الرابعة: بالتعاون مع رابطة الكتاب الأردنيين بمدينة عمان بالأردن من ٧-٩ أيار/مايو ١٩٩١، وموضوعها الثقافة بوصفها تراثاً قومياً.

الخامسة: بالتعاون مع الاتحاد العام للأدباء والكتاب العرب بمدينة تونس من ١٦-١٩ تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٩٢، وموضوعها الثقافة والقوى البشرية.

السادسة: بالتعاون مع وزارة الإعلام والثقافة في دولة قطر بمدينة الدوحة من ٤ -٧ نيسان/ابريل ١٩٩٣، وموضوعها الثقافة في تفاعلها مع القطاعات الأخرى.

السابعة: بالتعاون مع وزارة الثقافة الأردنية بمدينة عمان بالأردن من ٢٠ -٢٥ أيلول/سبتمبر ١٩٩٤، وموضوعها الثقافة باعتبارها عملية إنسانية.

وقد أصدرت المنظمة العربية وقائع كل ندوة من هذه الندوات السبع متضمنة الدراسات التي قدمت إليها والتوصيات التي اقترحتها في كتاب مستقل وستثابر على عقد ندوات أخرى لموضوعات الخطة الشاملة بالتعاون مع الجهات العربية المتخصصة.

وبعد فلعلنا نتساءل: هل بلغت هذه الخطة الغاية المتوخاة وأدرك بها الكمال فلم يبقَ بعدُ قولٌ لقائل أو حظ لمجتهد؟

يجيبنا عن ذلك المدير العام السابق للمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم المفكر والأديب الكبير الدكتور محيي الدين صابر بقوله: (... إن هذا الجهد التاريخي الذي ظل حلماً قومياً غالياً هو في عاقبة الأمر، عمل بشري كماله في نقصه، وهو قبل كل شيء اجتهاد فكري يظل مشروعاً، وتصوراً قابلاً للاغتناء ثم لأنه أمر نسبي تحكمه ضرورات الحاجة والظروف الاجتماعية فإنه

يخصب بالحوار ويستحصد بالمدارسة ويرشّد بالنقاش من المنطلق الموضوعي والمنحى المنهجي فهو عمل قومي موجه إلى كل أبناء الأمة العربية من أهل القرار والاختصاص ورجال الفكر والإعلام ومن جماهير الشعب وفئاته وأجياله).

وقد رأت المنظمة العربية بعد انقضاء عشر سنوات على تصديق الخطة الشاملة وطبعها ونشرها أنَّ التحّويلات التي جرت في الساحتين العربية والعالمية في ميدان الثقافة وميدان التقنيات الحديثة تتطلب مراجعة هذه الخطة وتنقيح نصوصها وإضافة ما تقتضيه المستجدات.

وقد جرى ذلك مع إضافة عدد من البرامج والمشروعات التي تستهل تنفيذ الخطة على المستويين القطري والقومي وتجعلها تحتضن المستقبل وتتوافق مع تطلعات الأجيال العربية في القرن الحادي والعشرين.

وقد استفاد القائمون بهذا العمل الكبير من أعمال الندوات التي عقدتها المنظمة في نطاق تنفيذ الخطة وما انتهت إليه هذه الندوات من توصيات واقتراحات.

وقد تولى القيام بهذا العمل نخبة من رجال الفكر والثقافة بقيادة الأستاذ محمد الميلي الإبراهيمي المدير العام للمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ومشاركة السادة:

١- الدكتور عبد الوهاب بوحديبة رئيس المجمع التونسي للآداب والعلوم والفنون بتونس والمدير العام المساعد بالمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم سابقاً.

٢- الدكتور شاكر مصطفى أستاذ جامعي والأمين العام للجنة الخطة الشاملة ووزير سابق في الجمهورية العربية السورية.

٣- عبد السلام المسدّي أستاذ جامعي ووزير التعليم العالي السابق بالجمهورية التونسية.

٤- الأستاذ أديب اللجمي المستشار السابق للمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم.

٥- الدكتور سيد يس مدير مكتب الدراسات الاستراتيجية بمؤسسة الأهرام في جمهورية مصر العربية.

٦- الدكتور أنور عبد الملك أستاذ جامعي وباحث.

وأورد بعض النصوص مما اشتملت عليه الخطة بمثابة مثال على توجهاتها القومية والفكرية، وقد تكون مشوقة لقراءتها كاملة.

جاء تحت عنوان: (الثقافة مستودع الهوية والأصالة) المجلد الأول ص٤٩:

إنّ الهوية الثقافية هي في واقع الأمر جزء عضوي من فكرة الثقافة لأنها مهما اختلفت أنواعها، فإن التعبير عنها يظل ذاتياً بصورة من الصور فالإبداع، في أساسه شيء مباين للنمطية مُنافٍ للتكرار نابع من الذات الخاصة التي أبدعته وإذا كان ذلك حقاً فإنه من الحق أيضاً أن الثقافة دائماً عالمية من حيث الوظيفة لأنها تتوجه إلى كل إنسان، فهي تنطوي إذن على الظاهرتين المتناقضتين: الخصوصية القومية من حيث الإنتاج، والعمومية والإنسانية من حيث الوظيفة، ومع هذا فإن خصوصية الثقافة القومية شرط أساسي إيجابي لتحقيق التبادل الفكري في التعاون البشري لأنه إذا افتقدت الخصوصية اتسم الإنتاج الثقافي بالمماثلة ولم يعد ثمة منطق لفكرة المبادلة.

وهكذا فإن العنصر الهام في الإنتاج الثقافي هو خصوصيته واهتمامه أي هويته التي تميزه، والتي تتأبى على التقليد وعلى الاستلاب، وتقوم على العطاء والإضافة الثقافية المتجددة.

وجاء تحت عنوان: (استيعاب العصر - الأصالة والمعاصرة) المجلد الأول ص ١١٣:

إنّ قضيتي الأصالة والمعاصرة ليستا متناقضين إطلاقاً لأنَّ كل منهما تنبع من منبع معرفي مختلف، ولعلهما بالعكس متكاملتان كما في مختلف البنى الثقافية العالمية، ولا وجود للثانية بدون الأولى.

إن الأصالة ليست التقوقع وليست التجمد في الماضي، ولكنها تبني قيمة التجديد الدائم فيه والمعاصرة ليست الاستلاب وليست تجديداً محضاً وتبنياً لمعطيات الغير أو "الغرب" ومبتكراته وقيمه وذوباناً فيه، ولكنها إدخال للعصر في الذات العربية وفهم له من خلالها...

إنّ معطيات الأصالة موجودة فينا لم نخترها، وإنما نحملها معنا وهي تفرض نفسها بالرغم منا تماماً كما أن معطيات المعاصرة موجودة بكل اتجاه حولنا، وتفرض نفسها برغمنا ومن تلاحم الخطين يتكون خط الحضارة والحياة الحالي والفرق الوحيد أن الأصالة تتثبت الذاتية الخاصة بينما المعاصرة تفرض الاتجاه.

إنّ افتراض الانخلاع الكامل من الذات فرضية خاطئة ونظرية تماماً كالافتراض بأنَّ تبني العصر يكون بأن نقدم عليه بصفحة بيضاء نقية من كل فكر سابق.

وجاء تحت عنوان (الأمن الثقافي) المجلد الأول ص ١٤٢:

ليس الأمن الثقافي مجرد تعبير لغوي سلبي، ولكنه مصطلح أو مفهوم مشتق من الأمان، وبالرغم من النكبات التي حلت بهذه الأمة في العصر الحديث فقد ظلت الثقافة العربية حصن وحدتها، وأداة تحررها، بل قامت بدورها في مسايرة التقدم الفكري والعلمي والتقني المعاصر ورفعت بلغتها لتصبح إحدى

لغات المعترك الدولي على أن هجمة وسائل الاتصال الحديثة بالشكل الكثيف، والاقتحام الضاري الذي يتم الآن، لا يهدد التمازج الثقافي الذي ترحب به الثقافة العربية، ولكن يهدد بإحلال ثقافة أخرى محلها، حتى على مستوى القواعد الجماهيرية بدءاً من العادات والممارسات اليومية وانتهاء بسلم القيم يضاف إلى ذلك الهجمة الصهيونية الاستيطانية التي تعمل على تدمير الثقافة العربية، لأن ذلك هو وسيلتها لإلغاء المقاومة العربية.

إنَّ هذا كله يدعو إلى التحرك لضمان ما نسميه بالأمن القومي ويقوم هذا الأمن على أمرين:

أ- استكمال المقومات الأساسية للثقافة العربية وتجديد قدراتها الذاتية.

ب- أن تكون الثقافة العربية قادرة على إبداعها وعطائها على تحويل علاقاتها مع الثقافات الأخرى من الاستلاب إلى الحوار والمشاركة، ومن الاستلاب إلى إبراز الخصوصية والتفاعل المشترك.

ملاحظات وآراء:

حرصاً على تكوين نظرة موضوعية إلى العمل العربي المشترك في ميدان الثقافة نبدي الملاحظات والآراء التالية:

١ - إنَّ جامعة الدول العربية ومنظماتها المتخصصة وفي مقدمتها المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم قامت وسطاً بين تيارين: تيار قومي توحيدي يسعى ويدفع إلى المزيد من التكامل والتضامن وصولاً إلى شكلٍ من أشكال الوحدة أو الاتحاد، وتيار قطري تفردي يكرس القطرية والتجزئة التي رسمها الأغيار ولا يرغب في أكثر من التعاون والتنسيق في أدنى حدودهما.

ومن هنا كانت الجامعة ملتقى الإرادات المتباينة، يلتقي فيه الحكام العرب أو ممثلوهم، ولوحة ترتسمُ على صفحتها اثنتان وعشرون صورة فيها المتجانس والمختلف معاً في الهدف والرأي، وبسبب هذا فشلت جميع الجهود التي بذلت لتعديل ميثاق الجامعة وتطويره نحو الأوثق والأقوى والأفضل.

ولكن على الرغم من ذلك لا يرضى أحد من العرب حكاماً أو شعوباً أو أفراداً أن ينهار هذا الصرح ولو كان ضعيفاً ولا يمثل إلا الحد الأدنى من الطموح، حتى يتسنى للعرب أن يقيموا صرحاً أقوى ويحققوا مشروعهم القومي النهضوي الكبير.

٢ - نصت المعاهدة الثقافية المبرمة عام ١٩٤٥ على التعاون والتبادل وتوثيق الصلات في المجال الثقافي بين الدول العربية لا أكثر ومع ذلك فإن الجامعة قد تنبّهت للشأن الثقافي مما جعلها تتخطى الحدود السابقة استجابة للتطلعات الوحدوية، وتجلى ذلك

في ميثاق الوحدة الثقافية عام ١٩٦٤ إذ أُبرزت فيه أفكار متقدمة مثل الوحدة الطبيعية بين أبناء الأمة العربية ووحدة الفكر والثقافة ونهوض الأمة العربية بدورها. وحُسب هذا الميثاق أنجب المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم.

٣ - إن دور المنظمة العربية كان كبيراً بكل المقاييس ولعله أكثر الأدوار نجاحاً في النظام الإقليمي العربي فقد تناولت أعمالها مجالات الفكر والأدب والعلم والفن والتراث واللغة. وكانت ميادين نشاطها وجملة إنجازاتها متعددة ومتنوعة وهو بالتأكيد دورٌ يفوق عمل الجامعة العربية في ميادين السياسية والاقتصادية والاجتماعية والعسكرية شمل نشاطها الوطن العربي بأقطاره الاثنين والعشرين بالتنسيق مع اليونسكو المنظمة العالمية للتربية والعلم والثقافة والاسيكو المنظمة الإسلامية للتربية والثقافة والعلوم ومكتب التربية لدول الخليج وامتد عملها امتداد اللغة العربية في أفريقيا وآسيا وعملت على إرساء حوار ثقافي مع أوروبا.

وفي الحقل الاستراتيجي وضعت خططاً شاملة في نطاق اختصاصها تكون أدلّة عمل للدول العربية، وأصدرت ما يزيد على (١٥٠٠) كتاب في موضوعات عملها، وكانت في مدة ما من عمرها تصدر (١٤) مجلة ونشرة متخصصة، وعقدت العديد من المؤتمرات الوزارية الخاصة بموضوعات التربية والثقافة

والعلوم ومئات من الندوات والحلقات الدراسية وجَنّدت الكفاءات والخبرات العربية في مختلف الاختصاصات وتصدت للغزو الثقافي الذي عقب اتفاقية كامب ديفيد وبكلمة موجزة كانت حصناً للثقافة العربية المتأصلة والمتطورة وساعدت على خلق فكر عربي متجانس ومتماسك وطرحت مفاهيم جديدة الهوية الثقافية، التشريع الثقافي،الصناعات الثقافية، الأمن الثقافي، وديمقراطية الثقافة، تحديث الثقافة.. إلخ.

وعلى الرغم من ذلك فإن بعض المتتبعين لعمل المنظمة العربية يرون عملها قصوراً ونقصاً وغالباً من ينبع نقدهم أو عتبهم من نية حسنة وتطلع إلى الأفضل.

والحق أننا إذا نظرنا إلى عمل المنظمة العربية من زاوية أهدافها المرسومة ووسائلها البشرية والمادية نجْد أنها حققت الكثير وإذا نظرنا إلى عملها من زاوية طموحاتنا وآمالنا نجد قاصراً محدوداً ومن المفيد أن نذكر الآتي:

١- إنها جهاز يستمد قوته من الدول العربية ويتناسب عطاؤه مع ما تقدم له هذه الدوال من مساندة معنوية ومادية.

٢- إنها جهاز تنسيق بالدرجة الأولى، وليست جهاز تنفيذ إلا بحدود صلاحياتها وما يخصها.

٣- إنها بيت خبرة ترسم الخطط وتستنبط الأفكار وتعود الإفادة من ذلك ومما يصدر عن المؤتمرات والندوات من قرارات وتوصيات إلى الدول العربية نفسها ومؤسساتها التربوية والثقافية والعلمية.

ونختم بالقول: إنَّ ثقافتنا العربية بماضيها، المتفتحة على الجديد في هذا العصر، المتطلعة إلى دور المواكبة والمشاركة في الثقافة الإنسانية المعاصرة لهي العروة الوثقى التي بها ينبغي أن نتمسك لأنّها نواة قوميتنا، وضمان مستقبلنا أمةً حية رائدة في العالم.

الثقافة العربية بين الأمس واليوم(*)

تعد ثقافتنا العربية من أغنى الثقافات العالمية وأهمها. فبعد أن ترسخت جذورها قبل الإسلام لغةً مشرقةً وخُطَباً وأمثالاً، وشعراً تجلت فيه العبقرية العربية وكان صورة لحياة العرب ومرآة تفكيرهم ومشاعرهم ومسرح خيالهم، تنزل القرآن الكريم بالعربية فأغناها معاني ساميةً وبياناً رائعاً، وفتح لها سبيل الانتشار في مشارق الأرض ومغاربها.

وبعد السلطان المكين، أقبل العرب على نقل علوم الأقدمين، ومنها انطلقوا في آفاق العالم مستكشفين مبدعين إلى جانب عطائهم المستمر في الفقه والأدب وفنون القول كافة.

وبعد عصور الحضارة العربية اليانعة، تعرض العرب لغزوات مدمرة أتتهم من الشرق حيناً ومن الغرب حيناً آخر، وتتالت عليهم مِحَنٌ قلَّ نظيرها، فخبا الألق قروناً، وأقفرت ثقافتهم بعد خصوبة.

(*) مجلة المعرفة آب ٢٠٠٢ ومجلة الثقافة كانون الأول ٢٠٠٣.

وفي مطلع القرن التاسع عشر، بزغت في الأفق ومضات من نور، فأقبلوا على نهضة شاملة توحِّدُ شتاتهم وتصلهم بما حقق «الآخرين» من أصناف العلوم والآداب والفنون.

وتتابع السعي قُرابة قرنين لم يستطع العرب تحقيق بغيتهم لأنهم لم يحصلوا على الوسائل الكافية، ولا «الآخرون» تركوهم يتدبرون شؤونهم، بل عمل هؤلاء على كبح النهوض وإخماد اليقظة بالبطش والعنف أحياناً وبالتآمر والتحايل أحياناً أخرى.

وخلال هذه المسيرة الشاقة تعرضت الثقافة العربية لسهام «الآخرين» الذين حاولوا الإساءة إلى اللغة العربية وإقصاءها عن التدريس ومجالات الحياة المختلفة، ثم حاولوا إدخال مفاهيم مزيفة في الثقافة العربية، ثم جاءت ثقافة العولمة لتزاحم الثقافة العربية في عقر دارها كما تزاحم ثقافات مختلف شعوب العالم لتجعله بلا حدود ولا ألوان، ساحة للسلع ومتجراً واسعاً يُكدس منه الطامعون أرباحاً خيالية هي عرق الكادحين ودم المناضلين في أرجاء الأرض.

إن قَدَرَ لغتنا العربية أن تقاوم الإقصاء والتشويه، وقدر أمتنا أن تحافظ على هويتها وتردَّ الطامعين بها. إن إرادة الحياة هي الأقوى والحق هو الأبقى، والمستقبل لمن صبر حتى نيل الظفر.

أولاً: تعريفات

١- معنى الثقافة لغة:

ماذا تعنى كلمة الثقافة التي كثر استعمالها في مختلف بلدان العالم، من ناحية اللغة؟

إن كلمة الثقافة هي مصدر لفعل ثَقُفَ. وقد جاء في معجم «لسان العرب» لابن منظور: ثَقُفَ الرجل ثقافة صار حاذقاً خفيفاً فهو ثَقفٌ. ومثل ثَقِفَ ثِقافاً وثَقفاً وثُقُوفَةً، فيقال ثَقِفَ الرجل الشيءَ فَهِمَه وتعلَّمه وحَذَقَه فهو ثَقفٌ وثَقِفٌ. وثَقَّفَ الرماح تَثقيفاً: سَوَّاها وأزال عُقَدَها.

وجاء في «المعجم الوسيط» إصدار مجمع اللغة العربية بالقاهرة.

ثَقِفَ العلم والصناعة: حَذَقَهما، وثَقُفَ فلان: صار حَذقاً فَطِناً وثاقفه مُثاقفةً وثقافاً: لاعبه إظهاراً للمهارة والحذق، وثَقَّفَ فلاناً: علَّمه وأَدُبَّه وهَذَّبه.

وفي المعاجم الأخرى ثَقِفَ يَثْقَف ثَقَفاً: صار حاذقاً فَطِناً فهو ثَقِف، وثَقِفَ العلم ثَقفاً وثقافةً: حَذَقَهما، وثَقِفَ الشيء: صادفه أو أدركه أو ظَفِرَ به، ﴿**وَاقتُلُوهُم حَيثُ ثَقِفتُمُوهُم**﴾ سورة البقرة الآية ١٩١. وثَقُف ثَقافة صار حاذقاً فطناً فهو ثَقْف.

والثقافة التي أصل معناها الحِذق والفطنة قد عرفها المعجم الوسيط المذكور: «مجمل العلوم والفنون والمعارف والآداب

وشؤون الحياة التي يُطلب فيها الحِذق».ومن مزيداته: ثَقَّفَ فلاناً: هَذَّبه وعلمه فصار مُثَقَّفاً. وثَقَّف الرمح: سَوَّاه وأزال عُقَدَه وقوَّم اعوجاجه. قال عنترة العبسي الشاعر الجاهلي في معلقته:

وَمُدَجَّجٍ كَرِه الكُماةُ نِزالهُ   لا مُمعِنٍ هَرَباً ولا مُستسلِمِ

جَادَت لَهُ كَفِّي بعاجِلِ طَعنَةٍ   بِمُثَقَّفٍ صَدقِ الكُعُوبِ مُقَوَّمِ

إن هذه اللفظة إذن عربية النِّجار (الأصل) قديمة الاستعمال، ويدور معناها حول الفهم والفطنة والحذق والتعلم، ولكنها اكتسبت مع الزمن، وبالتحديد منذ مطلع القرن العشرين، معنى اصطلاحيّاً أريد به أن يكون المقابل للمعنى الذي حملته منذ منتصف القرن الثامن عشر كلمة Culture الإنكليزية والفرنسية، هذه الكلمة المستمدة من كلمة Cultura اللاتينية التي شاعت في عصر النهضة في أوروبا.

٢- معنى الثقافة اصطلاحاً

إن الثقافة سمة الأمة والعلاقة التي تدل عليها. إنها أهم مقوم من مقومات هويتها ومرآة عبقريتها وعطائها الفكري والجمالي.

وقد اكتسبت هذه اللفظة معنى اصطلاحيّاً حاول المفكرون والدارسون من العرب وغيرهم أن يوضحوه بتعريف محدود، ولكنهم وضعوا أكثر من مئتي تعريف له.

وربما كان تعدد هذه التعريفات عائداً إلى اختلاط مفهوم الثقافة بمفاهيم العلم والمدنية والحضارة.

إننا نتوقف ملياً عند التعريف الذي ورد في إعلان مكسيكو في أثناء انعقاد مؤتمر المنظمة العالمية للتربية والعلم والثقافة (اليونسكو) عام ١٩٨٢م.

«إن الثقافة هي التي تمنح الإنسان قدرته على التفكير في ذاته، وهي التي تجعل منه كائناً يتميز بالإنسانية المتمثلة بالقدرة على النقد والالتزام الأخلاقي، وعن طريقها نهتدي إلى القيم ونمارس الاختيار، وهي وسيلة الإنسان للتعبير عن نفسه والتعرف على ذاته والبحث دون ملل عن مدلولات جديدة وحالات إبداع».

إنه تعريف يعد الثقافة أساس حياة الإنسان النفسية والعقلية وطريقه إلى اكتشاف القيم وحرية الإرادة وممارسة النقد والالتزام والبحث عن الإبداع، ولكنه تعريف ينصرف إلى الفرد ولا يدخل في حسابه لكون الإنسان موصولاً بالجماعة متأثراً بها بتفكيره وتعبيره.

كذلك نتوقف عند التعريف الذي ورد في الخطة الشاملة للثقافة العربية التي أقرها مؤتمر الوزراء المسؤولين عن الشؤون الثقافية في الوطن العربي عام ١٩٨٥:

«تشمل الثقافة مجموع النشاط الفكري والفني بمعناه الواسع وما يتصل به من المهارات أو يعين عليه من الوسائل، وهي تنظيم جميع السمات المميزة للأمة: الروحية والفكرية والفنية والوجدانية. إنها تشمل جميع مجموعة المعارف والقيم وطرائق التفكير والإبداع الجمالي والمعرفي والتقني وسبل السلوك والتصرف والتعبير وطرز الحياة، كما تشمل تطلعات الإنسان إلى المثل العليا والبحث الدائب عن مدلولات جديدة لحياته وقيمه ومستقبله، وكذلك إبداع كل ما يتفوق به على ذاته».

يجمع هذا التعريف المفصل بين الفرد في نشاطه الفكري والفني وبين خصائص الجماعة الأمة الروحية والفكرية والعاطفية والفنية، حتى تطلعات الإنسان إلى المثل العليا وسعيه لتجاوز ذاته.

وثمة تعريف أطلقه أحد المفكرين فقال معرِّفاً الثقافة كما يلي:

إن الثقافة هي الاستنارة العقلية وسعة الاطلاع، ويطلق على منتجها ومستهلكها المباشر اسم المثقف (Intellectuel) أو جماعة (الانتلجنسيا) وهي بهذا المعنى صفة فردية. ولكن هذا التعريف أفاد التمييز بين منتجي الثقافة من مفكرين وعلماء وأدباء وفنانين مبدعين وبين مستهلكي الثقافة. وهذا ما يسمح بالقول إن الثقافة إبداع من جانب وانتفاع من جانب آخر، وبين الجانبين تلازم ولا ينشط أحدهما دون مساندة الآخر.

ويقدم المفكر الجزائري مالك بن نبي تصوراً واسعاً لمفهوم الثقافة، إذ يرى:

«**إن الثقافة مجموعة من الصفات الخلقية والقيم الاجتماعية التي تؤثر في الفرد منذ ولادته وتصبح لاشعوريّاً العلاقة التي تربط سلوكه بأسلوب الحياة في الوسط الذي ولد فيه، فهي إذن المحيط الذي يشكل فيه الفرد طباعه وشخصيته، إنها المحيط الذي يعكس حضارة معينة والذي يتحرك في نطاقه الإنسان المتحضر**».وبهذا المعنى تعدّ الثقافة الصورة الحية للأمة التي تحدد ملامح شخصيتها، وتعمل على ضبط اتجاهات سيرها بل ترسم أهدافها. وتصدر معالم الثقافة عن العقائد والمبادئ التي تسود الأمة والنظم التي تضبط شؤونها. وتُعَدُّ القيم السائدة في المجتمع محور الثقافة التي تميز هذا المجتمع.

وبعد اطلاعي على تعريفات أخرى للثقافة يركز بعضها على الفرد تفكيراً وسلوكاً وإبداعاً ويركز بعضها الآخر على الأمة أو الجماعة ونتاجها الذهني، أستطيع القول: إن مفهوم الثقافة يشمل مساحة واسعة من النشاط الإنساني في مجالات الفكر والأدب والعلم والفن، وهي تتجلى بصنوف متعددة وأشكال مختلفة:

في النفس والعقل: تشمل المنظومة الروحية والخُلقية والسلوكية «القِيَمِيَة» للفرد والجماعة مع الأعراف والتقاليد

والعادات، كما تشمل البناء الفكري والحياة العقلية الواعية والحياة الاجتماعية والإنسانية وما يختزن الوجدان ويفيض عنه من مشاعر وعواطف.

في الكلمة: تتمثل الآداب: الشعر الذي يعبِّر باللغة عن الفكر والإحساس والخيال وتحكمه القافية والوزن الموسيقي، والفنون النثرية كالأقصوصة والقصة والرواية والملحمة والمسرحية والمقالة والخطبة والدراسة الأدبية، والنقد الأدبي...

في اللحن: وتشمل الموسيقى والغناء والترتيل والإنشاد والعزف على الآلات المختلفة.

في الحركة: تشمل التمثيل المسرحي والتلفزيوني والسينمائي والرقص بأنواعه.

في الفن التشكيلي: تشمل الرسم والتصوير اليدوي والتصوير الفوتوغرافي والرسم الزيتي والرسم التزييني والنحت والعمارة والنقش على الخشب والمعدن والخط بمختلف أنواعه...

في العمل اليدوي: تشمل العمل الذي يستخدم المواد المختلفة كالخشب أو المعدن أو الجص أو الزجاج أو الجلد أو القش أو الدهان بجميع أنواعه.

إن الثقافة، في جميع الحالات ابتكار وإبداع أي هي تجديد لا تقليد. إنها عملية حية تختلف صيغها في المكان والزمان، وهي

في الأصل خصائص الكائن البشري وحده الذي هو الإنسان، إذ أنَّ كل كائن آخر إنما تحركه الغريزة لا العقل ويفتقر إلى العاطفة والخيال ويكرر نفسه على الدوام حرصاً على البقاء والحفاظ على النوع. إن لدى الإنسان غريزة أسمى هي غريزة حسن البقاء التي تدفعه إلى تجاوز كل حال إلى حال أفضل وأرقى... هذه هي خصائص البشر دون سواهم من الكائنات.

وحِرصاً على إبراز تميز الثقافة عن غيرها من المفاهيم المتداخلة معها أو القريبة منها نبين ما يلي:

٣- **الثقافة والعلم:**

إن الثقافة والعلم تجمع بينهما المعرفة، ولكن الثقافة ذات طابع شمولي واسع. في حين أن العلم يتفرع إلى علوم وكل علم يختص بجانب من جوانب الطبيعة أو الإنسان. وقد قيل بحق: إن العالم يعرف كل شيء بعينه في حين أن المثقف هو من يعرف شيئاً عن كل شيء. ومن جهة أخرى، نجد أن العلم كالفيزياء والطب وعلم النفس هو معارف شائعة بين الناس في مختلف الأجناس في جميع القارات، فلا هوية له ولا وطن ينسب إليه، وأما الثقافة فلها هوية ووطن فنقول الثقافة الفرنسية في فرنسا والثقافة الانكليزية في انكلترا، كما نقول الثقافة العربية في الوطن العربي.

ولكن مثلما أن العلم متاح لجميع الناس أن يطلعوا عليه، هو مبثوث في الكتب والمراجع والموسوعات والمجلات العامة والمتخصصة وينقل من لغة إلى لغة بوسائل عديدة أهمها الترجمة العلمية بالإضافة إلى المؤتمرات والندوات والاجتماعات العلمية في العالم، فإن الطابع المحدد للثقافة لا يمنع من أن يكون لثقافة ما حضور لدى أناس من غير أهلها ووجود في بقعة من الأرض أوسع من الوطن الذي يقيم فيه أصحابها، وذلك إذ ما تيسر لها من الخصوبة والغنى والإشعاع ما يشوق الآخرين ويحفزهم على الاتصال بها والانتفاع منها.

٤- الثقافة والمدنية والحضارة:

إن الثقافة، كما ذكرنا في تعريفاتها، تشمل الجانب الروحي والفكري والمعنوي من نشاط الفرد والجماعة في حين أن الجانب المادي العملي يقع تحت عنوان المدنية ويتمثل بالحِرَف والمهن والزراعات والصناعات المختلفة والأدوات والتجهيزات التي يحتاج إليها فيها، ما يلزم للإنسان في معاشه وحِلِّه وترحاله وسائر مناشطه العملية والترويحية.

أما حضارة أمة من الأمم فهي تعني مجموعة مكونات ثقافتها ومدنيتها. إن الثقافة تشكل روح الحضارة وعقلها وقلبها ووجدانها، بينما تشكل المدنية مادتها وجسمها وهيكلها.

إذن الثقافة ليست الحضارة، بل هي جزء منها، وليست المدنية بل هي باعثتها والموجهة لها.

٥- المثاقفة والغزو الثقافي:

إن الإنسان مفطور بطبعه على حب المعرفة يلتمسها في كل مكان ويقتبسها حيثما وجدها، حماية أو إغناء لها، والأصوب والأجمل، فإن وجدت ذلك عند غيرها من الجماعات أخذت ذلك منها.

وهكذا نجد، خلال حقب التاريخ، أنَّ كل شعب قد تأثر بثقافة شعب أو شعوب أخرى، ولا سيما إذا كانت له بها صلة قرابة أو جوار.

لقد قال المفكر الجزائري مالك بن نبي: «... إن الثقافة تسير كما تسير الشمس، فإنها تدور حول الأرض مشرقة في أفق هذا الشعب ثم تتحول إلى أفق شعب آخر».

وفي هذه المسيرة تنتقل شعلة الثقافة من جماعة إلى جماعة، تخبو في مكان لتتلألأ في مكان آخر، تبعاً للأحداث السياسية والاجتماعية والاقتصادية التي لا تكف عن التغير والتبدل. ونتيجة لذلك يسعى اللاحق للأخذ من السابق ثم يضيف إلى ما يأخذه ثمرات جهده وإبداعه في كل حقل من حقول المعرفة والحضارة.

إن هذا الأخذ والعطاء، هذا الاقتراض والإقراض هو ما ندعوه المثاقفة. وهي عملية تفاعل وتبادل وتكامل بين الأنماط الثقافية في أوقات متعاقبة من الزمن، تجري بطواعية واختيار دون قسر أو افتعال خلال الزمن وبين الأقوام.

ومن الأمثلة الساطعة النافعة ما فعله العرب عندما نقلوا في القرنين الثامن والتاسع للميلاد علوم الإغريق والهند وفارس فأغنوا ثقافتهم ثم استطاعوا، بعد استيعاب وتَمَثُّل ما اقتبسوه، الانتقال إلى الكشف والإبداع. ومثلما فعل العرب فعل الأوروبيون عندما نقلوا نتاجات الفكر العربي وثمرات الثقافة العربية الإسلامية إلى اللغة اللاتينية واللغات الأخرى كالفرنسية والإنكليزية والإيطالية، فكان هذا النقل منطلق النهضة الأوروبية الحديثة. أما الغزو الثقافي فهو فعل تعسفي يمارسه طرف قوي على طرف أضعف منه بقصد اختراق ثقافته كليّاً أو جزئياً أو على الأقل التشكيك بأهميتها وصلوحها للبقاء. في حال كهذه يكون الطرفان غير متكافئين ولا متماثلين أولهما يملك القوة العسكرية والاقتصادية والعلمية والإعلامية والآخر أقل منه قوة، بل لا يملك القدرة على الدفاع عن نفسه. إن هذه الحال قائمة في عصرنا الحاضر ولاسيما بعد أن غدت الولايات المتحدة الدولة الأقوى الساعية للسيطرة والهيمنة على العالم. وهي بدافع مصالحها التي لا حدود لها تعمل لهدم الحواجز

وإلغاء المعوقات التي تحول دون بسطها نفوذها الطاغي على العالم أجمع. إنها تسعى لإزالة الخصوصيات الثقافية وبرمجة العقول والمشاعر والأذواق وفق النهج الذي تختار، لتحتل النفوس تمهيداً لاحتلال موارد الثروة.

إن الغزو الثقافي عمل غير مشروع ولا أخلاقي، في حين أن المثاقفة عمل مشروع وأخلاقي.

ثانياً: ملامح الثقافة العربية:

١ - الهوية الثقافية:

تتميز الثقافة بخصوصية وعمومية، خصوصية قومية وعمومية إنسانية.

- إنها قومية بمضمونها الذي تشكله التأثيرات البيئية الطبيعية والاجتماعية، ولأنها تعبير عن قوم ينتجونها بلغتهم ووسائلهم الخاصة، فهي بالتالي تحمل طابع المكان والزمان.
- هي إنسانية لأن البشر على اختلاف ألسنتهم وبيئاتهم متماثلون إلى حد كبير في تفكيرهم وعواطفهم ومشاعرهم، ومتشابهون في حاجاتهم وتطلعاتهم وآمالهم الفردية منها والجماعية.

ومن هنا، فإن الثقافة بحكم خصوصيتها، تشترك في صوغ هوية الفرد وهوية الجماعة – الأمة، فتكون من مكوناتها ثم تغدو سمة من سماتها تدلُّ على ذاتيتها.

وبالمقابل تَعُدُّ الأمة ثقافتها أثمن ما لديها فتعتز بها وتحرص عليها وتقاوم تبديلها أو تشويهها وتدافع عنها دفاعها عن حق أساسي من حقوقها، وهذا بالطبع لا يتعارض مع المنحى الإنساني بل يؤكده لأن الثقافة الإنسانية في الحصيلة هي مجموع الثقافات القومية ويكمن غناها وجمالها في هذا التعدد كما يكمن غنى الطيف وجماله في تعدد ألوانه.

لقد جاء في الخطة الشاملة للثقافة العربية التي أصدرتها المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم عام ١٩٨٥، ما يوضح دور الثقافة في تكوين الهوية القومية:

«إن الثقافة القومية حقٌ من حقوق الأمم في الحياة وثروة تضاف إلى ثروات الإنسانية. والهوية الثقافية يمكن أن توصف بأنها النواة الحيَّة للشخصية الفردية والجماعية، والعامل الذي يحدد السلوك ونوعية القرارات والأفعال الأصلية للفرد والجماعة، والعنصر المحرك الذي يسمح للأمة بمتابعة التطور والإبداع مع الاحتفاظ بمكوناتها الثقافية الخاصة وميزاتها الجماعية التي تحددت بفعل التاريخ الطويل واللغة القومية والسيكولوجية المشتركة وطموحات الغد».

إن كل إنسان كائن يتميز عن غيره، وكل جماعة تتميز عن غيرها من الجماعات. ليس الفرد ولا الجماعة رقماً من الأرقام،

لأنه هو وهي نتاج طبيعي وتاريخي له خصائصه التي تتجلى في قوله وفعله وأخذه وعطائه، وتعاطيه مع الكون والإنسان.

ومن هنا، ونتيجة لذلك كله، نجد أنَّ كل سلطة طاغية، عندما تريد أن تسيء إلى شعب من الشعوب تبدأ أولاً بالهجوم على ثقافته - هويته - محاولةً حرفها أو تشويهها أو طمسها.

لقد كانت الثقافة مهمة دوماً في حياة الجماعات التي تجد فيها صورتها، ولكنها في القرن الأخير ازداد الاهتمام بها وأحدثت المنظمات القومية والإقليمية والعالمية للعناية بها، وعقدت المؤتمرات والندوات والاجتماعات العديدة وعلى مختلف المستويات حول موضوعات السياسات الثقافية والتنمية الثقافية والأمن الثقافي والتبادل الثقافي، وأبرمت الاتفاقات الثقافية بين الدول ووضعت الخطط والبرامج الثقافية وأنشئت الوزارات والإدارات والمراكز الثقافية...الخ.

إنّ الثقافة تقرب بين البشر بطابعها الإنساني وتغني عقولهم وتنير بصائرهم بطابعها التعددي من حيث مضامينها ولغاتها المتعددة، وتشكل سوراً منيعاً ضد الجهل والشر، بما تحمل من معارف وقيم صنعتها الأجيال المتعاقبة.

٢ - سمات الثقافة العربية:

إنّ ثقافتنا العربية تمتلك من السمات والخصائص ما يؤكد تميزها وتفردها، ومنها:

أ - **المنحى القيمي الإنساني:** كانت الثقافة العربية منذ البداية تتسم بروح إنسانية خلقية واجتماعية تجلت في أقوال العرب وأفعالهم في الجاهلية: فالحب أروع رباط بين إنسان وإنسان، والشجاعة دفاع عن الدار والذمار، والكرم سمعةٌ تُطلب وشرف يُرغَب، والإيثار والشهامة والمروؤة ونصرة المظلوم وإغاثة الملهوف...الخ.

وجاء الإسلام فثبت القيم العربية الحسنة وأبطل بعض القيم الضارة كالثأر ووأود البنات وأضاف مكارم أخلاقية عديدة وقيم الحق والعدل والمساواة، مؤكداً بذلك أسمى المبادئ التي جاءت بها المسيحية من قبل والتي اعتنقها العديد من العرب في الجاهلية ثم عايشت الإسلام منذ بزوغه حتى اليوم.

ب - **الامتداد في الزمان والمكان:** لئن امتد العصر الجاهلي نحواً من مئتي عام قبل الإسلام وصلتنا منه مرويات كثيرة من الشعر والنثر والقصص والأخبار، فقد سبقته قرونٌ عديدة كانت الثقافة في الجزيرة العربية تتشكل شيئاً فشيئاً ومثلها اللغة أداتها. وجاء الإسلام فأغنى الثقافة العربية بالقيم والمعاني السامية وزاد العربية غنىً وبلاغة وانتشاراً، فتألقت الحضارة العربية في عصر النهضة العربية الأولى، وتراجعت في عصر الانحطاط ثم استيقظت في عصر النهضة الحديثة.

أما من حيث المكان، فقد انتشرت الثقافة العربية إلى حيث وصلت الفتوحات العربية الإسلامية وأينعت ثمراتها في القلب والأطراف، وتلك آثارها خالدات.

ج - **الشمول والانفتاح:** في الجاهلية كان الشعر «ديوان العرب» إلى جانب الحكم والخطابة والأمثال ومنظومة قيم منبثقة عن حياة بدوية ونصف حضرية ولكن اتصالها بالثقافات الأخرى كان محدوداً. ولّما جاء الإسلام كان نقلة نوعية في حياة العرب، لغة وثقافة ومدنية وانتظاماً في دولة وطيدة الأركان مبسوطة السلطان. وعندها اتصلت الثقافة العربية بالثقافات السائدة آنئذ، فلم تتردد في التعامل معها وفتحت ذراعيها لحكمة الهند وآداب الفرس وعلوم اليونان، فاقتبست عن اقتدار وتمثلت المعرفة البشرية لتصوغها من جديد بلغتها وتغذيتها بإبداعها وعبقريتها. وفيما بعد نقلت إلى لغات الغرب فكانت أساس النهضة الأوروبية والعالمية في العصور الحديثة.

د - **القدرة على التعبير:** تُعدُّ العربية أكمل اللغات العربية القديمة «السامية بناءً وأغناها لفظاً وأقواها تركيباً وأجملها تعبيراً وأوضحها دلالة على دقائق الطبيعة وخفايا النفس».

وقد كان للقرآن الكريم على اللغة العربية فضلٌ وأيُّ فضل، فقد وحد لهجاتها وأغناها بمعانيه السامية ووصل بالبلاغة حدَّ

الإعجاز. ولئن استطاعت أن تكون وعاءً له بما تملك من خصائص فريدة، فقد سما بها إلى أعلى عليين إذ حَمَّلها عباراته النيّرات وآياته البينات.

وتمضي الأيام فتكون النهضة العربية الأولى في القرنين الثامن والتاسع للميلاد والنهضة العربية الثانية منذ بداية القرن التاسع عشر حتى اليوم، والعربية قائمة أبداً، تفي بما هو مطلوب وإن كان بعض أهلها قد أنكروا عليها قدرتها وبعضهم قصّروا في رعايتها وتنميتها بالقدر اللازم.

هـ - قابلية التطور والتجدد: لقد كانت الثقافة العربية، مذ وجدت في تفاعل دائم مع الحياة والثقافات الأخرى. ففي عهد النهضة العربية الأولى استوعبت معارف الأقدمين عن طريق الترجمة وكان بيت الحكمة ببغداد جسراً للتواصل والنقل.

وفي القرنين الأخيرين أقبل رواد التقدم والنهوض على إغناء الثقافة العربية وتطويرها وتجديدها بما ترجموا إليها من معارف الغرب وبما أبدعته قرائحهم من صنوف المعارف.

إنَّ الثقافة مرآةٌ لحيوية الأمة وقدرتها على البقاء والارتقاء. وهي تركد بركود أهلها وترقى برقيهم وتنهض بنهوضهم.

١- موقع ثقافتنا اليوم:

إنَّ الوطن العربي الكبير الذي يمتد على رقعة فسيحة من الأرض زاخرة بالخيرات ويضم مشرقه ومغربه نحواً من

ثلاثمئة مليون نسمة، تشد أبناءه على اختلاف أقطارهم الاثنين والعشرين صلات واشجة أحكمها الزمن ووثقتها اللغة المشتركة والذكريات التاريخية المشتركة والآمال العريضة بالمستقبل.

ولكن الأحداث الجسام التي عصفت به من هجمات الفرنجة والمغول، وحكم العثمانيين وتسلط الاستعمار قد أوهنت قوته وشتتت جهوده وعاقت تقدمه إلى حين.

ولكن وطننا العربي – أمتنا العربية – على الصعيد الثقافي، لا يبدأ من العدم بل هو يستند إلى إرث ثقافي غني باذخ. وما يشغله الآن هو: كيف يوائم بين هذا التراث وبين متطلبات العصر الذي نعيش فيه. هل يتمسك بالثقافة المتوارثة التي ألفها أم يهجرها إلى ثقافة مستوردة؟ خطران يتهددانه، لأنه إن تمسك بالقديم مكتفياً به عاش خارج الزمان، وإن تلبس الجديد بلا روية عاش خارج المكان.

إنَّ هذه المشكلة قد شغلت العديد من المفكرين والباحثين. ولكن من الجليِّ أن الثقافة ليست في أكثر مكوناتها صيغة جامدة لا تتغير، بل هي نتاج بشري ينمو ويزداد عمقاً واتساعاً، بجهود البشر، فالثقافة العربية في عصر المعري ببلاد الشام وعصر ابن رشد في الأندلس ليست الثقافة العربية في العصر الجاهلي أو صدر الإسلام أو العصر الأموي...

إننا نستطيع أن نقدّر للتراث قيمته ودوره في تكويننا النفسي والاجتماعي ونأخذ منه ما تقتضيه حاجتنا اليوم، وأن نقبل على الثقافة المعاصرة فنقتبس من ثقافات الآخرين ما تحتاج إليه ثقافتنا لتحقق معاصرتها ومواكبة الثقافات الأخرى، ولا سيما في ميدان العلوم والتقانة والتقنية والعلوم المستحدثة في السنوات الخمسين الأخيرة، فالمواءمة بين الموروث والجديد يحفظ للأمة هويتها ويجدد طاقتها على النماء والتطور.

أجل إنّ الثقافة العربية هي إحدى الثقافات الكبرى في تاريخ البشرية، وهي مؤهلة اليوم لاستئناف دورها حاضنة لقيم الخير والعدالة والمساواة والمحبة والسلام، ونابذة كل ما يشوه الإنسان من صور الشر والجور والعنصرية والظلم، وذلك من خلال صيغة مركبة متحركة متطورة لا تتنكر للأمس الغابر ولا تغمض العين عن متطلبات اليوم والغد.

الثقافة العربية والتحديات

ثالثاً: التحديات المتلاحقة:

إنّ ثقافتنا العربية تشكل منظومة متناسقة متجانسة صاغها الإنسان العربي في مسيرته التاريخية، من خلال خطابة مع نفسه ومع مجتمعه ومع الطبيعة: معتقدات مقدسة وعادات وتقاليد يمارسها وقيم توجه سلوكه، ولغة يعبر بها عن مكونات

نفسه، وآداب وفنون تعرب عن مشاعره وعواطفه، ومعارف علمية يكتسبها بالتجربة، وتطلعات يسعى لتحقيقها، لتقف سداً منيعاً تحمي وجوده وهويته القومية وتؤكد إنسانيته.

ولعل هذا ما جعل هذه الثقافة عرضة لسهام الأعداء على مرِّ الزمن اعتقاداً منهم بأن التغلب على العرب لا يتم إلا بإضعاف ثقافتهم وزعزعة ثقة أهلها بها.

إنّ الجماعة تعلو بسطوع ثقافتها وانتشارها وتهبط بخمود ثقافتها واندحارها. وفي هذا الاتجاه، انطلقت حملة الشعوبيين في العصر العباسي، وكانت حملة شرسة مشحونة بالكراهية والحقد، ولكنها على الرغم من ضراوتها لم توهن الثقافة العربية أو تضعف توجهها لأن الأمة العربية وثقافتها كانتا آنذاك في صعود وانتشار، وقوة ومَنَعَة.

ولكن المحاولات في العصر الحديث تتالت واتخذت صوراً متعددة:

المحاولة الأولى - الاستعمار واللغة العربية:

منذ بداية النهضة العربية الحديثة في مطلع القرن التاسع عشر، بدأت محاولات الغرب ولا سيما بريطانيا وفرنسا لعرقلة حركة التقدم العربية. وبعد الحرب العالمية الثانية، تصَدَّت الولايات المتحدة الأمريكية لهذه المهمة ومعها الصهيونية العالمية وركيزتها إسرائيل.

وتمثلت المساعي لمحاربة الثقافة العربية بمحاولة ضرب أداتها التعبيرية وهي اللغة العربية.

لقد دعا بعض المغرضين إلى هجر اللغة العربية واعتماد لغة أخرى، ودعا آخرون إلى استخدام العاميّة وهجر اللغة العربية الفصيحة، وزعم آخرون أنّ الحرف العربي لا يصلح البتة فدعوا إلى الكتابة بالحروف اللاتينية، على غرار ما فعل أتاتورك بالتركية.

كانت الساحة مصر ولبنان، ومن دعاتها الأجانب وليم سبيتا الإيطالي الجنسية وكان مديراً لدار الكتب المصرية، وويلكوكس البريطاني. ومن دعاتها العرب في مصر: عبد العزيز فهمي وأحمد لطفي السيد وسلامة موسى، وفي لبنان: مارون غصن ورفائيل نخلة وسعيد عقل.

إنّ هذه المحاولات لم تحرز أي نجاح، بل على العكس من ذلك نبهت إلى ضرورة التمسك باللغة العربية الفصيحة وتحسين تعليمها وضرورة إتقانها لأنها جوهر هويتنا القومية ومخزن ثقافتنا التي نعتز بها.

ولكن مسعىً آخر لمحاربة اللغة العربية قد أحرز نجاحاً غير قليل. فقد ادّعى بعضهم أن اللغة العربية لا تصلح لتدريس العلوم لافتقارها إلى المصطلحات العلمية وأنها تنأى بطلاب

العلم عن مصادر المعرفة العلمية، وبالتالي ينبغي أن تدرس العلوم بلغة أخرى، الانكليزية أو الفرنسية، حرصاً على مستوى التحصيل العلمي.

وفي هذا المنحى تمَّ تحويل التدريس العلمي في كليات الطب والهندسة والعلوم بمصر من العربية إلى الانكليزية عام ١٨٨٧ بعد أن كان يجري بالعربية مدة واحد وستين عاماً، ولكن الاستعمار البريطاني فرض هذا التغيير بعد احتلاله مصر بخمس سنوات. ومثل ذلك جرى بالكلية الإنجيلية السورية. نواة الجامعة الأمريكية بعد تدريسها العلوم بالعربية مدة ثمانية عشر عاماً (١٨٦٦ – ١٨٨٤).

ولكنَّ معهدي الطب والحقوق بدمشق اللذين أحدثا في العهد الفيصلي عام (١٩١٩) قد دَرَّسا العلوم باللغة العربية، واستمرّا بذلك حتى اليوم، وتبعتها جميع الكليات والمعاهد في الجامعات العربية السورية. وفي الحقبة الأخيرة تعمل بعض الأقطار العربية على تدارك الأمر واعتماد العربية في تدريس العلوم وهي العراق والجزائر والسودان وليبيا واليمن.

إنّ تصحيح المسار الخطأ، وإن كان صعباً يتطلب الجهد الكبير، لخير من الاستمرار فيه.

٢ - المحاولة الثانية – الصهيونية والتطبيع:

بدأت هذه المحاولة مع اتفاقية كامب ديفيد التي عقدت عام ١٩٧٩ بين مصر وإسرائيل برعاية الولايات المتحدة الأمريكية، ثم تتابعت بقوة بعد اتفاقية أوسلو بين منظمة التحرير الفلسطينية وإسرائيل، واتفاقية وادي عربة بين المملكة الأردنية الهاشمية وإسرائيل.

وقد سميت هذه المحاولة التطبيع أي جعل العلاقات طبيعية بين العرب وبين اسرائيل الغازية المحتلة الدائبة على التوسع والاستيطان، وما يتخلل ذلك ويستتبعه من قمع وتعسف وقتل وتدمير للمنازل وتهجير للسكان. إن التطبيع في حقيقته تطويع وتركيع وفرض للاستسلام تحت لافتة السلام.

لقد نصت المادة الثانية من اتفاقية كامب ديفيد الموقعة في ٢٦ آذار ١٩٧٩ على ما يلي:

١ - يتفق الطرفان على إقامة علاقات ثقافية عادية بعد تمام الانسحاب الإسرائيلي المبدئي.

٢ - يتفق الطرفان على أن التبادل الثقافي في جميع الميادين أمر مرغوب فيه، وعلى أن يدخلا في مفاوضات في أقرب وقت ممكن، وفي موعد لا يتجاوز ستة أشهر بعد انتهاء الانسحاب المبدئي بغية عقد اتفاق ثقافي.

هكذا كان النص، ولكن الفشل كان مصير هذا المسعى، ذلك أنّ الشعب المصري أفراداً وجماعات، مثقفين ونقابات واتحادات، قد قاوم التطبيع بمختلف الوسائل المتاحة.

أما بالنسبة لفلسطين والشعب العربي الفلسطيني فقد كانا وما يزالان الهدف الأول للصهيونية، وإسرائيل وأنصارهما، فلم يدعوا وسيلة إلا استخدموها لتزييف تاريخ فلسطين والإساءة إلى ثقافة شعبها بقصد طمس هويته الوطنية والقومية.

كتب أحد المفكرين الفلسطينيين: «إنّ العدو الصهيوني لم يوفر أية وسيلة قَمعية ضد الثقافة الفلسطينية العربية، ولم يكن يرمي إلى طمسها بالمعنى المجازي للكلمة، بل بالمعنى الحرفي، وكان يخطط لتجريد الشعب الواقع تحت الاحتلال من مقومات هويته الوطنية».

وقد قامت إسرائيل بإجراءات عملية عديدة لتحقيق أغراضها:

١ - ملاحقة الكتّاب والأدباء والفنانين وإدخالهم السجون.

٢ - طمس التراث الثقافي والحضاري الفلسطيني وسرقته وانتحاله وتشويهه.

٣ - قمع النشاط الثقافي مثل مداهمة المكتبات ومصادر الكتب وحلّ الفرق المسرحية... الخ.

وذهبت الصهيونية وإسرائيل مذهباً أبعد في التزوير والتضليل لجعل العقل العربي يتخلى عن مرتكزات تفكيره وعن مفاهيمه الصحيحة التي يؤيدها الواقع والتاريخ ويتبنى مقولات مزيفة تكون مدخلاً للتطبيع وأداة للتطويع.

وهذه أمثلة على هذه المقولات المزيفة التي يبتدعها أعداء الأمة العربية ويروجها دعاة الصهيونية وأنصار إسرائيل:

١ - إن المنطقة الجغرافية التي يسكنها العرب، من المحيط إلى الخليج تدعى «الشرق الأوسط» لا الوطن العربي.

إن هذه المقولة تجعل العرب جزءاً من سكان المنطقة لا جميع سكانها، وتنطوي بالتالي على تأصيل إسرائيل فيها، ويصبح الخزر والفلاشا من أهلها وأصحابها عوض العرب الفلسطينيين.

٢ - إن العرب لا يشكلون أمة واحدة. بل هم أمم وشعوب مختلفة، فثمة أمة مصرية وأخرى تونسية، وشعب جزائري وشعب سوداني... وهذا زعم منافٍ للواقع الذي يبين أن الروابط الطبيعية (الجغرافيا) والتاريخية (التاريخ المشترك) والاقتصادية (الموارد المتكاملة) والثقافية والاجتماعية (العقيدة واللغة والعادات والتقاليد ونمط العيش...) المتوافرة للعرب ليست متوافرة لأية أمة من أمم الأرض.

٣ - إنّ الثقافة العربية قاصرة مختلّفة، وإن الدور الحضاري العربي كان ضئيلاً في الماضي. وحقيقة الأمر هي أن الثقافة العربية من أغنى الثقافات في العالم، وأن الحضارة العربية قد امتدت في الزمان والمكان أكثر من أي حضارة أخرى.

٤ - إنّ إسرائيل دولة ذات حق في الوجود والبقاء، إذ تقوم على أساس وعد من الله لشعبه «إسرائيل» وإنه كان لليهود في الماضي مملكة في فلسطين.

إنّ هذا الزعم ظاهر البطلان، إذ لا يصدق عاقل أن الله يخص جماعة بأرض دون غيرهم. فالوعد المزعوم من بنات خيالهم. وأما دولة إسرائيل القديمة فلم تقم إلا على جزء من أرض فلسطين ولم تدم سوى بضعة عقود من عمر فلسطين البالغ خمسة آلاف عام...

٥ - إنّ إسرائيل الحديثة دولة ديمقراطية حرة وحضارية، وفي مقدورها أن تسهم في تنمية منطقة الشرق الأوسط بما تملك من تقدم علمي وتقني.

لقد دَلَّت السنوات الخمسون التي مضت على قيام الكيان الصهيوني أن هذه الدولة التي قامت بقرار من الهيئة الدولية، هي دولة عدوان واغتصاب وتمييز عنصري لأنها تطمع في توسيع رقعتها من النيل إلى الفرات. فتقوم بالاستيلاء على

أملاك العرب وتعمل على تهجيرهم من أرضهم وقمع مقاومتهم لهذه الإجراءات بالحديد والنار. وأما في داخلها فالتمييز قائم بين اليهود الغربيين واليهود الشرقيين والعرب. إذن فكيف تكون هذه الدولة ديمقراطية وحرة؟ وأما التقدم العلمي والتقني فهو ليس مقصوراً عليها بل هو متاح لكل شعب يعمل على كسب المعرفة والإبداع فيها.

٦ - إنّ إسرائيل وحماتها ولا سيما الغرب الاستعماري يقفون ضد كل تحرك يقوم به الشعب العربي الفلسطيني للتمسك بأرضه واستعادة المسلوب منها، والمطالبة بحقه في التحرر من الاحتلال وفي تقرير مصيره وممارسة السيادة الوطنية ويسمّون ذلك أعمال عنف بل إرهاباً مداناً، ولا تتورع إسرائيل عن إغراق الانتفاضة بالدم والدمار مستخدمة الأسلحة الحديثة الفتاكة.

إنّ من يدافع عن حقه ليس إرهابيّاً، بل هو مناضل شريف يضحي بالغالي والنفيس للذود عن أرضه ووطنه، والمقاومة حق تؤيده الشرائع والقوانين الدولية، وقد تكون سليمة أو عنيفة تبعاً للطريقة التي تقابل بها، فمن نال حقه بالمطالبة السليمة لا يلجأ إلى العنف.

وهكذا انتقلت حملة الطامعين والصهاينة من محاولة ضرب أداة الثقافة العربية التعبيرية أي اللغة العربية، إلى محاولة

ضرب أداتها الإبداعية أي العقل العربي، ولكن شاعرنا العربي قال بصدق:

ما كلُّ ما يتمنَّى المرءُ يُدرِكهُ تجري الرِّياحُ بما لا تشتهي السّفُنُ

٢- العولمة الثقافية:

أ- معنى العولمة وأهدافها:

بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية حققت البشرية منجزات علمية وحضارية كبيرة وتحققت ظاهرات جديدة أهمها تقدم الصناعة ولا سيما صناعة الأجهزة الدقيقة والحواسيب وزاد الاهتمام بالبحوث العلمية، واتسعت المعرفة البشرية عن الكون والطبيعة والإنسان اتساعاً مذهلاً. وفي البلدان الرأسمالية نشأت شركات كبرى متعددة الجنسيات من حيث الرأسمال ومركز الإنتاج وأسواق البيع، والخبرات الإدارية والفنية المستخدمة فيها، وفي بلدان المنظومة الاشتراكية تحققت إنجازات باهرة في ميادين العلوم والتقانات والثقافة والاقتصاد.

واستمرت المنافسة الشاملة بين النظام الرأسمالي والنظام الاشتراكي حوالي نصف قرن من الزمن. ولّما حسمت هذه المنافسة لصالح النظام الأول، وانتهت الحرب الباردة بين الدولتين الأعظم قدرة: الولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد السوفياتي، جنح الرأسمال حول التمركز الشديد واندمجت

مؤسسات اقتصادية وإعلامية وشركات ومصارف، بعضها ببعض، وأخذت تعمل برؤوس أموال خيالية تصل إلى مئات المليارات من الدولارات ويسهم فيها متمولون من جنسيات مختلفة.

وقد عبر عن هذا الوضع المستجد بالعولمة، وهي صيغة مصدر من عولم أي جعل الشيء عالمياً، وتدعى بالانكليزية Globalisation وباللغة الفرنسية Mod-alisation وبعضها أطلق عليها بالعربية الكوكبية والكونية.

وقد حاول عدد كبير من المفكرين والباحثين العرب وغير العرب أن يضعوا تعريفاً للعولمة، فتعددت تعريفاتهم باختلاف نظرة كل منهم إلى هذه الظاهرة المركبة والمتعددة الجوانب الاقتصادية والاجتماعية والعلمية والثقافية والسياسية.

رأى الباحث بول سويزي: أن العولمة صورة مستمرة منذ زمن بعيد وأنها بدأت مع ظهور الرأسمالية منذ أربعة أو خمسة قرون خلت... وما إن ضربت جذورها في الأرض حتى نمت وانتشرت.

وذكر جيمس روزنا العالم الأمريكي: «أنها علاقة بين مستويات ثلاثة للتحليل: الاقتصاد والسياسة والثقافة والأيديولوجيا، وتشمل إعادة تنظيم الإنتاج وتداخل الصناعات

عبر الحدود، وانتشار أسواق التمويل وتماثل السلع المستهلكة لمختلف الدول نتيجة الصراع بين المجموعات المهاجرة والمجموعات المقيمة».

ولعل تعريف الدكتور صادق جلال العظم أكثر التعاريف دقة وشمولاً إذ يعرِّفها بقوله: «إنها وصول نمط الإنتاج الرأسمالي عند منتصف هذا القرن العشرين تقريباً إلى نقطة الانتقال من عالمية دائرة التبادل والتوزيع والسوق والتجارة والتداول إلى عالمية الإنتاج والرأسمال أي الإنتاج وقوى الإنتاج وعلاقات الرأسمالية أيضاً ونشرها في كل مكان مناسب وملائم خارج مجتمعات المركز الأصلي ودوله... هي حقبة التحول الرأسمالي العميق للإنسانية جمعاء، في ظل هيمنة دول المركز وقيادتها. وتحت سيطرتها وفي ظل سيادة نظام عالمي للتبادل غير المتكافئ».

والخلاصة أن العولمة ظاهرة قديمة الظهور ولكنها في هذا الزمن تمثل تطوراً للنظام الرأسمالي يرمي إلى جعله شاملاً للعالم أجمع لصالح دولة المركز أو دوله... وهو يولِّد آثاراً اقتصادية وسياسية واجتماعية وثقافية على المجتمعات البشرية كافة.

ب - آثار العولمة:

لقد تحدث المفكرون كثيراً عن آثار العولمة على حياة الفرد والجماعات والدول. والحقيقة أن السنوات العشر الماضية قد أعطت دلائل كافية ومؤشرات واضحة.

ولعل في مقدمة آثار العولمة أن المنظومة العالمية التي كانت تقوم على تعدد الدول والأمم وممارسة كل دولة سيادتها وسلطتها على أرضها في ظل دستور هيئة الأمم المتحدة، وتميز كل أمة بخصائصها الاجتماعية واللغوية والثقافية، قد تعرضت للتغيير، إذ يتم تحويل النظام الدولي إلى نظام عولمي تتلاشى فيها سيادة الدول القومية وسلطتها على أرضها ليقوم عالم واحد هو «القرية الكونية»، وهذا على الأقل ما تريده دول حلف شمال الأطلسي بقيادة الولايات المتحدة الأمريكية وتعمل على تثبيته بمختلف السبل والوسائل ولا تتورع عن استعمال القوة لفرضه. ومن مقتضياته فرض سيطرة ثقافة الأقوى على الأمم جميعاً لإزالة الحواجز والسدود أمام تدفق السلع والبضائع من بلدان الإنتاج الأقوى إلى بلدان الإنتاج الأضعف وبلدان الاستهلاك. إنّ ترويج المنتجات الغزيرة لجني الأرباح يتطلب هدم الحواجز التي تعترضها.

إن الاحتلال السياسي والاقتصادي والثقافي. وهذا يشمل التفكير والذوق والسلوك. يحل محل الاحتلال العسكري، ولكن إذا استعصى فرضه بالضغط المعنوي، فلا بأس من فرضه بالضغط القتالي الذي ينشط صناعة السلاح ويمتص جزءاً من البطالة... الخ.

إن التوسع في شرح أخطار العولمة يطول، ولذا أكتفي بقليل عميق الدلالة. فقد عدد باحثان كبيران هما جيرالد بوكسبرغر

وهارالد كليمنتا الظواهر السلبية للعولمة التي ستحلق ببلدان العالم ومنها البلدان الأوروبية وطبعاً العربية وهي: (**انتشار البطالة، تدهور الحياة المعيشية لمعظم الناس، انخفاض أجور العاملين، التفاوت في الدخول والثروات، التراجع في الخدمات الاجتماعية والدمار البيئي.. إنها تغني الأغنياء وتفقر الفقراء!**).

وجاء في تقرير الأمم المتحدة للإنماء لعام ١٩٩٨:

- إن مئة شركة عالمية عابرة للقارات أو متعددة الجنسيات متمركزة في أكبر الدول الصناعية في العالم، وهذه الشركات تهيمن على ٧٠% من التجارة العالمية، إنها تمتلك ١/٥ الأسهم المالية العالمية ولكنها توظف أقل من ٣% من اليد العاملة في العالم.

- يعيش أكثر من ١،٥ مليار نسمة في العالم في ظل الفقر المدقع مع بداية الألف الثالث للميلاد، ويحتاج هؤلاء الفقراء إلى ٥% فقط من ثروة /٢٢٥/ غنيّاً في العالم لتأمين الطعام والمأوى والصحة والتعليم لهم.

- إن أكبر ثلاثة أصحاب مليارات في العالم يحملون أسهماً مالية تساوي أكثر من الدخل القومي لثمان وأربعين دولة تحت خط الفقر وبتعداد سكان ستمئة مليون نسمة. وأوضح تقرير بريطاني أن ثروة ثلاثة أغنياء أمريكيين تعادل أو تزيد على ثروات (٤٨) دولة من دول العالم الفقيرة.

- وإن (٤٨) شخصاً أميريكيّاً تزيد ثروتهم على ثروة الصين التي يصل عدد سكانها إلى مليار وربع مليار نسمة ويبلغ الناتج القومي فيها حوالي (٧٠٠) مليار دولار سنوياً.

ج - خطر العولمة الثقافية:

يفرق د. محمد عابد الجابري بين العولمة والعالمية بقوله: («**إن العولمة تعني إرادة الهيمنة أي هي قمع وإقصاء للخصوصي والذاتي معاً. وأما العالمية Universalisme فهي طموح إلى الارتقاء والارتفاع بالخصوصي إلى مستوى عالمي. العولمة هي احتواء للعالم في حين أن العالمية هي تفتح على ما هو كوني وعالمي**»).

ويشير الجابري بصورة خاصة، إلى مجال الثقافة فيقول: («**إن العالمية هي المجال الثقافي، كما في غيره من المجالات طموح مشروع ورغبة في الأخذ والعطاء وفي التعارف والحوار والتلاقح، إنها طريق الأنا للتعامل مع «الآخر» وسلبه خصوصيته، وبالتالي نفيه من العالم**»).

وفي موضع آخر يفصل الجابري رأيه في أثر العولمة السلبي على الثقافة، وهذا ما يجعلها خطراً يهدد ثقافات العالم الثاني ويعطل فاعليتها العقلية ويفقدها خصوصيتها، يقول: («**الهدف النهائي للعولمة هو السيطرة على الإدراك أي الوعي، وبها يتم إخضاع النفوس وتعطيل فاعلية العقل والتشويش على نظام القيم وتوجيه**

الخيال وتنميط الذوق وقولبة السلوك وبالتالي تكرس نوعاً معيناً من المعارف والسلع والبضائع. إنها ثقافة الاختراق وهدف الاختراق هو التطبيع مع الهيمنة وتكريس الاستتباع الحضاري») وباختصار تقوم هذه الثقافة بتسطيح الوعي والمسِّ بالهوية الثقافية للأفراد والجماعات والأمم، فهي ثقافة جديدة لم يشهد التاريخ لها مثيلاً، ثقافة إعلامية سمعية بصرية تصنع الذوق الاستهلاكي اقتصادياً والرأي العام سياسياً... إنها إعادة تقسيم العالم وفقاً لمبدأ الأقوى والأضعف، وتستخدم كل وسائل العلم الحديث والتكنولوجيا المعاصرة بدلاً من الاحتلال العسكري المباشر الذي كان سائداً في بداية القرن.

ويسأل سائل: إذا كانت آثار العولمة على الثقافة بهذا الاتساع فما هو نصيب اللغة منها، واللغة العربية، بالنسبة إلينا وعاء ثقافتنا وموضع اعتزازنا؟ يجيب د. عابد الجابري:

«إنَّ الغرب يقول لك افتح الحدود لأننا عالم واحد بلغة واحدة، وهكذا تتآكل اللغة العربية وتآكلها يعني تآكل الذاتية والعقل، وعندها لا يبقى إلا الثقافة المسطحة التي يصدرونها إلينا».

ولكن إذا كانت العولمة تحمل في ثناياها كل هذه المخاطر على ثقافتنا وثقافات الشعوب كافة لصالح ثقافة الأقوى وهو الولايات المتحدة، فإننا ينبغي ألا نغفل أنها تترافق مع ثقافة مغرية مضللة، وتقدم علمي وتقني هائل، ومنجزات مذهلة في

ميادين الفلك والفيزياء والكيمياء والبيولوجيا والاتصالات وغيرها، وأنها توظف ذلك لمصلحتها، فهل نرفضها كلاً لمخاطرها مع ما يرافقها من تقدم ومنجزات أو نقبلها كلاً مع مخاطرها بسبب ما يرافقها، أو نرفض منها ما يضر بنا ونقبل ما ينفع؟ وبالتالي ما هو مستقبل ثقافتنا في عصر العولمة؟

رابعاً – مستقبل الثقافة العربية:

يبدو حاليّاً أنّ في مقدمة التحديات التي تواجه الإنسان العربي في هذه الحقبة من الزمن، بالإضافة إلى الغزو الثقافي الذي تمارسه الصهيونية والدوائر المؤازرة لها في الغرب، إنما هي العولمة بصورها المتعددة، ونخص منها الصورة الثقافية، موضوع هذه الدراسة.

وجدير بالذكر، بادئ ذي بدء أن نذكر أننا نحن العرب حريصون على تعدد الثقافات وتنوعها في العالم، على التأكيد مع أن يكون بينها حوار وتكامل أي مثاقفة مستمرة لصالح جميع الثقافات، ونرى في تنميط الثقافة في العالم وتغليب ثقافة واحدة على الثقافات الأخرى اعتداءً على منجزات الشعوب والأمم وإفقاراً وهدراً للثروة الثقافية التي راكمتها البشرية خلال التاريخ. وقد رأت المنظمة العالمية للتربية والعلم والثقافة (اليونسكو) في إعلانها الصادر عام ١٩٦٦ أن تنوع الثقافات غنًى يجب المحافظة عليه.

ولكن، ما دمنا منذ سنوات عشر على الأقل، نتعرض للغزو الثقافي المنظم ولتأثيرات العولمة بكل أشكالها، فإننا مطالبون بإتخاذ موقف قومي وإنساني منها بحيث نتحاشى سلبياتها ونستفيد من إيجابيتها، لأن الرفض المطلق كالقبول المطلق يجر علينا خسراناً جسمياً ويوقعنا فيما نأباه: الرفض المطلق يقودنا إلى الانكماش والانغلاق، والقبول المطلق يؤدي بنا إلى الاستلاب والامحاء.

أ - الدوافع ورد الافتراءات:

إنّ حملة الافتراءات ضد العرب بدأت منذ زمن بعيد ولم تنته، لأسباب ودوافع سياسية، ولذا فإنها تشكل حملة ظالمة متواصلة لا تمتُّ إلى الحقيقة بصلة. ومن هذه الافتراءات أن الدور العربي الحضاري كان عميقاً وأن العرب كانوا في ميدان العلم نقلة لا مبدعين، وأن اللغة العربية قديمة عسيرة لا تصلح للتعبير عن معارف هذا العصر، وأنهم طوائف وجماعات ولا يشكلون أمة، وأن مستقبلهم غامض مشوش، ولا يجمع بينهم هدف مشترك واضح، وأن ثقافتهم هشة قابلة للاختراق...

إن هذه الافتراءات تخالف الواقع وتناقض الحقيقة، لمآرب لا تخفى على أحد، ولقد أدرجت في دراستي هذه سمات الثقافة العربية دون تحيز أو مبالغة.

وهذه الافتراءات التي أشرت إليها ليست باطلة كاذبة في نظرنا فحسب بل في نظر المنصفين من علماء الغرب والشرق ومؤرخيهم، فقد شارك العرب في الحضارة الإنسانية بفاعلية ثمانية قرون وكانوا رواداً فيها خمسة قرون. ومن أراد أن يطّلع على تفصيلات هذه المشاركة والريادة فإنه واجدها في مصنَّفات ومؤلفات لا حصر لها ولا عد.

ولكن ذلك كله لا يمنع من أن الواجب يقضي بأن نعرف الآخرين بثقافتنا في الماضي والحاضر، ونعطي الصورة الصحيحة، دفعاً لهذا الزيف الدافق من أوساط عدوة حافلاً بالأكاذيب والأباطيل والافتراءات.

ب - تنمية ثقافتنا وتحديثها:

إنه ليس بكافٍ أن نقف في خط الدفاع، بل أن نسير في مجرى الحياة المتطورة، لقد سبقنا الغرب بعد أن قبس من ثقافتنا الكثير وسار قدماً، ولئن ضاق المقام عن شرح الأسباب والعوامل والمؤثرات، فإن الواجب يملي علينا أن نتخلص مما آلت إليه حالنا وتجاوزه إلى الأفضل والأرقى والأكمل.

وثمة صوىً على الطريق:

١ - إن تراثنا العربي جزء من هوية الأمة، وهو ذاكرتنا الجماعية والنسيج الذي يشكل الذاتية العربية، وكل نهضة إنما

تبدأ منه وترتكز عليه، وصحيحٌ القول: إن من ليس له ماضٍ ليس له مستقبل.

إن معرفة هذا التراث وصونه وتحقيقه والعناية به والتعريف به وإبراز ما فيه من تجليات فكرية وإضافات علمية وإبداعات فنيّة. كل ذلك يأتي بل يجب أن يأتي في طليعة اهتماماتنا.

٢ - إن اللغة العربية هي سمة هويتنا القومية الأولى، ووعاء التراث النفيس الذي وصل إلينا من القرون الماضية. هي لغة قادرة اليوم وفي الغد على التعبير عن مختلف نوازع النفس والفكر وعن المعارف والعلوم والآداب، إذا ما خُدِمت خدمة صحيحة مستمرة وأغنيت بالمفردات والتعابير التي توجبها مستجدات هذا العصر.

٣ - إن العصر – الزمن – هو النبض الحي والمجال الطبيعي الذي يتحرك فيه أبناء هذا الجيل وليس من شيء أشد خطراً على قوم من أن يعيشوا على هامش عصرهم فيكونوا شهوداً لا جنوداً، مشاهدين لا فاعلين. إن لم يكونوا ضحاياها لأنهم الأضعفون في زمانهم.

إننا نعيش في زمن تتفجر فيه المعرفة تفجراً، ولاسيما العلوم البحتة والطبيعية. وأصبح العالم، كما يقال: قرية إلكترونية، مما يختصر مسافات الأرض ويطِّوع عباب البحر ويذلل الفضاء للإنسان. إننا بحاجة لنقل ذلك كله ولا سيما أحدثه وأعمقه، إلى

لغتنا العربية لنقرأه مترجماً بلغتنا فنستوعبه ونتمثله ونوطنه أرضنا، ثم ننطلق منه من منطلق القدرة والثقة بالنفس فنغنيه ونضيف إليه ونشارك الآخرين صنع المستقبل.

الخاتمة:

إنّ التنمية الثقافية تختلف عن النمو الثقافي، إن النمو شأن ذاتي من طبيعة كل حي، وأما التنمية فهي عمل هادف ومقصود ومخطَّط له ومنظم ومدعم بالسلطة والخبرة والمال.

إننا نحتاج إلى التنمية لا إلى النمو لأننا في سباق صعب مع الزمن ولأننا نريد أن نواكب العصر.

إن ثقافة قوية غازية في زمن العولمة الزاحفة، وزمن الغزو الفكري الشديد والدفع إلى التطبيع مع دخيل طامع، بمقدورها أن تلغي ثقافة قاصرة أو عاجزة أو جامدة ليس ثمة من يُعنى أو في مقدوره أن يُعنى بتطويرها وتنميتها ولكنها لا تلغي ثقافة حيَّة تغتذي لتقوى، وتزهر لتثمر، تطرد الضار الرديء وتتقبل النافع الجيد، تواجه التحديات والصعوبات لتتغلب عليها لا لتستسلم لها.

إننا نحن العرب نملك اللغة الواحدة والتراث الواحد، والثقافة الواحدة، فحبذا لو نملك الإرادة الواحدة للعمل والبنّاء الواحد ليكون مكاننا تحت الشمس ألِقاً زاهياً، امتداداً لماضٍ ألقٍ زاهٍ.

المراجع

١ - كتاب «العولمة: محاولة في فهمها وتجسيدها» بقلم ناهد طلاس العجة، ترجمة هشام حداد وإصدار دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر، الطبعة الأولى عام ١٩٩٩.

٢ - كتاب «أوراق ثقافية» بقلم شحادة الخوري، إصدار دار الطليعة الجديدة بدمشق عام ٢٠٠١.

٣ - «العولمة بين القبول والرفض» بقلم ثناء عبد الله، مجلة المستقبل العربي العدد ٢٥٦ حزيران / يونيو ٢٠٠٠.

٤ - «العولمة ثقافية الأبعاد والتحديات» بقلم الدكتور محمد جواد علي، مجلة قضايا استراتيجية، إصدار المركز العربي للدراسات الاستراتيجية العدد ٧ أيلول / سبتمبر ٢٠٠١.

٥ - «العولمة جذورها وفروعها وكيفية التعامل معها» بقلم الدكتور عبد الخالق عبد الله، مجلة عالم الفكر العدد الثاني تشرين الأول – كانون الأول / أكتوبر – ديسمبر ١٩٩٩.

٦ - «النظام الدولي الجديد في الفكر العربي» بقلم الدكتور حسنين توفيق ابراهيم، العدد الثالث والرابع (كانون الثاني - حزيران) ١٩٩٥.

التعاون والتسامح ودور التربية
في الحفاظ على القيم العربية والإسلامية(*)

المقدمة:

من طبيعة الإنسان، وهو أكمل المخلوقات تكويناً والمتفرد دونها بالعقل والإدراك، أن يسعى للتكيف والتآلف، قدر طاقته، مع البيئة الطبيعية والاجتماعية التي يعيش في أكنافها، ثم الاستفادة منها باستجلاب منافعها ودرء غوائلها، بغية الحفاظ على وجوده وإغناء ذلك الوجود.

وليس ما نسميه الحضارة إلا ذلك الجهد المتواصل الذي بذله الإنسان بدأب واستمرار، خلال الأزمان المديدة والقرون العديدة لتحقيق ذلك التكيف والتآلف مع البيئة التي تكتنفه، والإفادة منها بتحويل مسارها لصالحه فرداً أكان أم جماعة.

(*) الملتقى العربي الأول حول الإعلام والتربية ودورهما في تعزيز القيم العربية الأصلية دمشق (إيبلا الشام) من ١٤ - ٢٠٠٢/١٠/٢٠. والندوة الثانية التي ألقيت في كنيسة سيدة دمشق في ٢٠٠٤/٢/٢٨ .نشرت في كتاب وقائع الملتقى المذكور.

إن هذه المسيرة لم تكن مسيرة هينة، ولكن الإنسان ثابر على السير، بلا كلل ولا ملل. وقد كان كلما حقق درجات من التغير الاجتماعي والفكري، في أحد أنماط العيش والعمل والتفكير التي عرفها ولاح له أمل في الانتقال إلى نمط آخر أكثر أمناً وأرحب أفقاً، كانت النقلة تتم من النمط السائد إلى النمط الجديد الذي كان يرسم صورته ويحدد معلمه نبي مرسل أو مفكر حكيم.

وهكذا مرّ البشر بمراحل تاريخية عديدة، ولكل منها صفاتها وخصائصها.

وها نحن في مطلع هذا القرن، القرن الحادي والعشرين، نشهد في العالم جميع الأنماط المعيشية والاجتماعية والفكرية التي عرفها البشر منذ أن كانوا يهيمون على وجوههم في الغابات والبوادي ويأوون إلى المغاور والكهوف، حتى سكنوا اليوم القصور الفسيحة والمدن العامرة وناطحات السحاب وامتد طموحهم إلى اقتحام الكواكب الأخرى.

١ - المنظومات الأخلاقية:

وخلال هذه المسيرة الطويلة والشاقة أوجد الإنسان منظومات أخلاقية سلوكية تساعده على تنظيم علاقاته بنفسه وبمن حوله من الناس وبالبيئة التي يعيش فيها. وهذه المنظومة التي تستمد شريعتها من حاجة الإنسان إليها، تصبح مع الوقت بمثابة قواعد

صارمة ذات قدسية وتنتقل عبر المكان من منطقة إلى أخرى، وعبر الزمان من جيل إلى جيل يلقنها الآباء للأبناء.

ومهم أن نؤكد أن هذه المنظومات الأخلاقية السلوكية التي أشرنا إليها والتي تتابعت خلال التاريخ، تبعاً لتطور المجتمعات، ليست متباينة أو متعارضة بل هي متشابهة في مجمل قيمها وأحكامها.

فإن محبة الإنسان قريبه الإنسان، وتمسكه بالصدق والأمانة وعفة النفس واللسان، وممارسته الرحمة والبر والإحسان... كلها قيم وأحكام إنسانية دعت إليها الديانات ونادى بها الحكماء وارتاح إليها البشر من كل جنس ولون، لأن فيها سلامتهم وكرامتهم وحسن اجتماعهم. وأساس هذا التشابه هو هوية الإنسان نفسه، فالإنسان مخلوق قائم بذاته وواحد في حاجاته وتفكيره ومشاعره وتطلعاته. أما ما هو مختلف بين منظومة وأخرى وما هو متباين بين عقيدة أخلاقية وثابتة فهو ظرفي ناجم عن اختلاف الظرف الزمان أو المكاني.

٢ - المنظومة الأخلاقية العربية:

أ - قبل الإسلام:

وإذ حاولنا أن ننظر إلى هذا الأمر من خلال تاريخنا العربي وجدنا أنّ حياة العرب في العصر الجاهلي قد أفرزت منظومة تقتضيها ظروف معيشتهم في شبه الجزيرة العربية.

لقد كان على تخوم الجزيرة مدن لها نصيب في التحضر ولا سيما في اليمن والحيرة، كما كان ثمة مدن ناشطة في الحجاز مثل مكة ويثرب والطائف. وكان أهل هذه المدن يمارس بعضهم الزراعة وبعضهم الآخر التجارة المحلية والتجارة الواسعة في رحلات منظمة وقوافل كبيرة، فكانوا بالتالي على صلة مستمرة بالدول والشعوب المجاورة ولا سيما الفرس والروم.

وأما المعتقدات فقد عُرِفت اليهودية في بعض بقاع جزيرة العرب مثل يثرب واليمن وخيبر، ولكنها كانت كما هو شأنها دوماً ديناً مغلقاً فلم يحقق انتشاراً يذكر. وأما النصرانية فقد انتشرت في قبائل عربية عديدة، ولا سيما نجران وغسان والحيرة وتغلب وكان من رجالها خطباء يذيعون معتقداتها في الأسواق الموسمية حيث يجتمع الناس من مختلف القبائل ولكن الأكثرية الساحقة من عرب الجاهلية كانوا يعبدون الأصنام.

في مثل هذه الأجواء عاش عرب الجاهلية: وثنية تؤصِّل التعصيب القبلي، ويهودية متقوقعة تتوهم أن أهلها يفضلون سائر الشعوب، ونصرانية بينها وبين الجاهلية تعارض يعسر التغلب عليه.

أضف إلى هذا أن العرب كانوا في غالبيتهم بدواً متنقلين يمارسون الرعي وتربية الأغنام ويسعون وراء الماء والكلأ ويرحلون في طلبهما، فإن عثروا عليهما سالموا، وإن لم يعثروا زاحم بعضهم عليها ونشبت بينهم الغارات والحروب.

لقد كان الفرد منصهراً بالقبيلة، والقبيلة تقف في مواجهة القبيلة الأخرى، وثمة تنازع على موارد الرزق، وفي هذه الحال تكون للقوة مكان الصدارة. ومن هنا كان في نظر الجاهليين كل ما يمت إلى القوة الجسدية والمعنوية فضيلة، وكل ما يمت إلى الضعف الجسدي والمعنوي رذيلة: قوة البأس ورفعة النسب فضائل، وغيابها نقص وقصور.

وإلى جانب ذلك في منظومتهم الأخلاقية والاجتماعية قيم إنسانية راسخة هي: الشجاعة والوفاء والمروءة والعفة، ورعاية الجار وحفظ العهد والوفاء بالوعد... إنها فضائل تجمع بين الروح الإنسانية الصادقة وبين مقتضيات استدامة الحياة في الأجواء القبلية القاسية، وذلك إلى جانب عادات مقيتة كوأد البنات والأخذ بالثأر.

ولعل من الخير أن نورد هذه الكلمات التي فاه بها النعمان بن المنذر رداً على كسرى أنو شروان الذي ذمّ العرب أمام الروم والهند والصين. قال النعمان: «وأمَّا عِزُّها ومَنَعَتُها، فإِنَّهَا (للعرب) لم تَزَلْ مُجَاوِرَةً لآبائِكَ الَّذِين دوخوا البِلادَ ووَطَّدوا الملكَ وقادوا الجُنْدَ، لَمْ يَطْمَعْ فِيْهِم طَامِعٌ ولَمْ يَنلهُمْ نَائلٌ، حُصُونُهُمْ ظُهُورُ خيلِهِم ومِهادُهُمُ الأرضُ وسُقُوفُهُمُ السَّمَاءُ جَنَّتهُم السُّيُوفُ وعُدَّتُهُم الصبَّر.. وأَما سَخَاؤُها فَإِنَّ أَدناهُمُ الَّذِي تَكُوْنُ عِندَهَ البَكْرَةُ والنَّابُ عَلَيْها بَلاغُهُ فِي حَمُولِهِ وشِبَعِهِ ورَيِّهِ فيَطْرُقُهُ

الطَّارِقُ الَّذِي يَكْتَفِي بِالفِلْذَةِ ويَجتزي بالشَّرْبة فيَعْقرُها لَهُ، ويَرْضَى أَنْ يَخْرُجَ عَنْ دُنياهُ كُلِّها فِيْما يُكْسِبهُ حُسْنَ الأُحدُوثة وطَيِّبَ الذكّر. وأَمَّا حِكْمَةُ أَلْسِنَتهِمْ فَإِنَّ الله تَعَالى أَعْطاهُمُ فِي أَشْعَارهِمْ ورَوْنَقِ كَلاَمِهِم وحُسْنه وَوَزْنِهِ وقَوافِيِهِ، مَعَ مَعْرِفَتِهِمْ بِالأَشْيَاء وضَرَبِهِمْ لِلأَمْثالِ وَإِبلاغِهِمْ فِي الصِّفاتِ مَا لَيْسَ لِشَيءِ مِنْ أَلْسِنَةِ النَّاس».

ب - بعد الإسلام:

وظلت الحال كذلك تتأرجح بين فضيلة شامخة مثل الكرم الطائي وعادة بائسة مثل وأد البنات، بين معركة تحرير مشروعة كمعركة ذي قار ومعركة قبيلة طاحنة كحرب داحس والغبراء، بين أشجاع خرافية سحرية ومعّلقات هي من عيون الشعر وروائع الأدب، حتى كانت النقلة الكبيرة والتحول العظيم برسالة محمد بن عبد الله، النبي العربي الذي طوى صفحة الجاهلية وافتتح عهداً جديداً في حياة العرب والعالم، وكان مما أعطاه منظومة أخلاقية اجتماعية جديدة.

جاء في استراتيجية تطوير التربية العربية التي أصدرتها المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم: جاء الإسلام ثورة حضارية كبرى بما فصّل من عقيدة في التوحيد وتكوين الوجود وبما وضع من نظام لحياة الإنسان وحياة المجتمع وبما دعا إليه

من أخوة إنسانية شاملة، وصار ثورة حضارية كبرى بما أدى إليه من وحدة العرب وقيامهم بأمانة الدعوة وباستقبالهم للشعوب تستجيب لها وتدخل في الدين الجديد عن طواعية واختيار، لتعاون معهم في بناء حضارة شاملة أغنت الإنسانية قروناً طويلة، وما زالت قادرة على الإسهام في إغنائها وتطويرها...

ولا يسعنا في هذا البحث أن نفصل في أركان الإسلام وخصائص العقيدة الإسلامية فذلك لا تتسع له المجلدات، ولا سيما أن قصدنا في هذا البحث إنما ينصرف إلى تبيان مفهومي التعاون والتسامح دون غيرهما وإيضاح دور التربية في الحفاظ على القيم العربية الأصيلة.

ومن المهم أن نذكر بادئ ذي بدء، أن الإسلام لم يُلغِ ما اشتملت عليه المنظومة الأخلاقية السلوكية التي سادت قبله من مناقب ومكرمات فردية واجتماعية، بل جاءت الرسالة الكريمة لإتمام مكارم الأخلاق أي تداركت ما كان من نقص وسدّ ما كان من خلل.

أبطل الإسلام ما في تلك المنظومة من أثر الوثنية المقيتة والعصبية القبلية الشديدة، والأنانية الفردية المفرطة، كالتفاخر بالأنساب، والاستسلام للحقد، وطلب الثأر، واستعلاء القوي على الضعيف والرجل على المرأة والحر على الرقيق مع التحكم به وسلبه إرادته وإذلاله...

وأضافت إلى ما كان قبله من فضائل، فضائل أخرى حثت على التحلي بها مثل الأخوة والمساواة بين الناس أجمعين والعدل والشورى والتعاون والتعاضد والتراحم والتسامح والتقوى وغيرها، مما يجعل الإنسان العربي أسمى خلقاً وأرقى سلوكاً ويجعل المجتمع أوفر أمناً وأكثر طمأنينة.

وإننا نخص مفهومي التعاون والتسامح بشيء من التفصيل وإيضاحاً لدورهما، ورغبة في توسيع هذا الدور في عالمنا المعاصر، هذا العالم السريع التغير.

٣ - التعاون عند العرب:

ليس من شك في أن التعاون ضرورة حياتية لدى الجماعة البشرية، في كل زمان ومكان. إن الفرد يجد نفسه ضعيفاً أمام قوى الطبيعة أو أمام أفراد آخرين أو جماعة غير الجماعة التي ينتمي إليها، فيجد نفسه مدفوعاً لالتماس القوة من أقرانه والتعاون معهم ليحصل بذلك على الحماية والأمن، والفرد أصلاً ينشأ بين مجموعة صغيرة من الناس: أمه وأبيه وإخوته وأخواته وأقربائه وكلّ من هؤلاء يُسدي إليه معونة ما في صغره، فيصبح التعاون أي تلقي المساعدة والعون أو تبادلهما أمراً مألوفاً عدا كونه ضرورة، ولذا قيل: الإنسان حيوان اجتماعي. في العصر الجاهلي كانت الوحدة الاجتماعية الأقوى هي القبيلة، فكان الفرد ملتصقاً بها ومعتمداً عليها في السلم والحرب، كأنه خلية من خلاياها.

قال أحد الشعراء:

ومَا أنَا إلا مِنْ غَزيَّةَ إنْ غَوَتْ غَوَيْتُ وإنْ تَرْشُدْ غَزيَّةُ أرشدِ

والعون كان متبادلاً إذ كانت القبيلة بدورها تهُبُّ لتقديم العون والمناصرة لكل فرد من أفرادها إذا شكا ظلماً أصابه أو عدواناً وقع عليه، قال الشاعر:

لا يَسْألُونَ أخَاهُمْ حِيْنَ يَنْدُبُهمْ فِي النَّائباتِ عَلَى مَا قَالَ بُرهَانا

إن التعاون بين القبيلة من جانب وأفرادها من جانب آخر كان تعاوناً مطلقاً لا يقيده قيد ولا يحده شرط، وهذا يتنافى مع مفهوم الحق ومفهوم العدل إذ كثيراً ما كان بسبب ادعاء فرد طائش بأنه ظلم واعتُديَ عليه حرباً تستعر نارها بين قبيلة وأخرى.

أما في الإسلام فقد جاء مفهوم التعاون مخالفاً ما كان عليه في الجاهلية، في منطلقاته وصوره وغاياته.

لقد تأسس هذا المفهوم على أن البشر قد خُلقوا ليتعارفوا: ﴿**يَا أيُّها النَّاسُ إنَّا خَلَقْنَاكُم مِنْ ذَكَرٍ وأُنثَى، وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعارفُوا إنَّ أكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أتْقَاكُمْ**﴾ سورة الحجرات الآية: ١٣.

إن التمايز بين الناس: رجل وامرأة، شعب وآخر، قبيلة وأخرى يجب أن لا يكون سبباً في العداوة والتناحر والبغضاء، بل أن يكون مداعاة للتعارف، والتعارف يقود إلى التوادّ والتوادّ يؤدي إلى التعاون.

ويمضي القرآن الكريم فيُعدُّ المؤمنين أخوة وليس أقرب من الأخ من أخيه، ولا أوفر محبة ولا أصدق مودة، ﴿**إنَّما المؤمنونَ إخْوَة**﴾ سورة الحجرات الآية: ١٠.

وقال: ﴿**واذْكُرُوا نِعمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أعْداءً فألَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوانا**﴾ سورة آل عمران الآية: ١٠٣.

إن هذه المبادئ السامية إذا ما مارسها الناس عرف بعضهم بعضاً ووصلت بينهم أواصر الأخوة، وعندها.. يتحقق التعاون بينهم في كل وجه من وجوه الحياة ويكون تعاوناً حقيقياً مخلصاً.

ولكن عَلامَ يتعاونون؟

إن الإسلام لم يَدَعِ التعاون بين الناس مطلقاً بل قيده بالبر والتقوى، وفي البر والتقوى سلامة الفرد وسعادة المجتمع: ﴿**وتَعَاوَنُوا عَلَى البِرِّ والتَّقْوَى وَلا تَعَاوَنُوا عَلَى الإِثْمِ وَالعُدْوان**﴾ سورة المائدة الآية:٣.

في هذه الآية الكريمة تأكيد على غائية التعاون كيما يكون في محصلته محققاً لنفع مؤكد، وفيها تعويض لما كان في الجاهلية من مناصرة عشواء على الخير والشر سواء بسواء. إن في الحياة خيراً وشراً، وعملاً ينتج خيراً وآخر ينتج شراً فحري بالإنسان ألا يناصر أخاه في عمل الشر ففي القرآن الكريم: ﴿**فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهْ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقالَ ذَرَّةٍ شَرَّاً يَرَهْ**﴾ سورة الزلزلة الآية ٦، ٧.

وليس المحسن كالمسيء ولكلٍّ جزاؤه.

ولّما قال الرسول الكريم: «انصُرْ أخَاكَ ظَالماً أو مظلوماً» سأله سائل: وكيف أنصره ظالماً؟ فأجابه: «تحجزه عن الظلم فإن ذلك نَصْرَه».

هذا ومفهوم التعاون واسع المدى ويصل بالشعور بالمسؤولية: إذ لولا هذا الشعور لما وجد الدافع إلى التعاون، كما ينطوي على مفهوم التضامن الاجتماعي الذي يشكل بدوره الأساس لكل تقدم حضاري وكل إنجاز ثقافي، وهو واجب على كلِّ فرد، أياً كان موقعه وأيّةً كانت قدراته. جاء في حديث شريف: «كُلُّكُم راعٍ، وكُلُّكُمْ مسؤولٌ عَنْ رَعيَّته» حديث شريف، وجعل القرآن الكريم التعاون واجباً في الأسرة: ﴿**وَبالوالِدَيْنِ إِحْسَاناً**﴾ سورة البقرة الآية: ٨٣.

وجاء في الحديث الشريف: «مَنْ كانَ يُؤْمِنُ باللهِ وبِاليَوْم الآخَرِ فَليُكْرِم جَارَه».

أجل لقد ارتقى الإسلام بمفهوم التعاون ارتقاءً كبيراً حتى جعله ركناً من أركان الحياة الاجتماعية وعنصراً أساسياً في المنظومة الأخلاقية والسلوكية.

هذا ويحمل التعاون بين الناس معنى التكافل الاجتماعي أي إنفاق المال على الفقراء والمعوزين من خلال الزكاة والصدقات:

﴿**وَلَيْسَ البِرُّ أنْ تُولُّوا وُجُوهَكُمْ قَبَلَ المشْرِقِ والمغْرب، ولَكِنَّ البِرَّ مَنْ آمَنَ باللهِ واليَوْم الآخِرِ وَالملائِكَةِ والكِتَابِ وَالنّبيِّينَ وَآتَى المالَ عَلَى حُبِّه ذَوي القُرْبى واليَتامَى والمسَاكينَ وابنَ السّبيلِ والسَّائلِيَنَ وفِي الرِّقاب**﴾ سورة البقرة، الآية: ١٧٧. وجاء تنبيه شديد وإنذار صارم لهؤلاء الذين يكنزون الذهب والفضة والناس جياع: ﴿**والذينَ يَكْنِزونَ الذّهَبَ وَالفِضَّةَ ولا يُنفِقُونَها فِي سَبيلِ اللهِ فَبَشَّرهُمْ بِعَذابٍ أَليم**﴾ سورة التوبة، الآية: ٣٥. وهذه المساعدة التي يقدمها القادر إلى المحتاج غير القادر إنما هي حق للثاني على الأول: ﴿**وَالَّذِينَ في أَموَالِهم حَقٌّ مَعْلُومٌ للسَّائِلِ والمحْرُوم**﴾ سورة المعارج، الآية: ٢٤ – ٢٥.

ومن أحاديث الرسول الكريم: «إن الله فرض على الأغنياء في أموالهم بقدر ما يكفي فقراءهم، من احتكر طعام المسلمين فليس منا».

وقد التقى الإسلام بتأكيده مفهوم التعاون وتوسيع أفقه وإيضاح مراميه، بأرفع المبادئ المشرقية، ولا سيما المبادئ التي دعا إليها السيد المسيح الذي ولد وعاش وعلّم في أرجاء فلسطين العربية.

لقد دعا السيد المسيح إلى المحبة بين الناس: «أَحِبُّوا بَعْضُكمْ بَعْضاً» متى ٣٤/١٣ و«أَجْبِبْ قَرِيبَكَ كَنفسِكَ» متى ٣٩/٢٢

كذلك أرسى قاعدة ذهبية للتعامل بين الناس بقوله: «كُلُّ مَا أَرَدْتمُ أن يَفْعَلَ النَّاس لَكُمْ افْعَلوهُ أنتُمْ لَهُمْ» متى ١٢/٦.

إنَّ كل إنسان يحتاج إلى أن يعاونه أقرانه، وكل من أحب الآخر قدم له العون عند الحاجة، وهكذا يصبح التعاون متبادلاً في المجتمع. قال: «مَنْ سخَّركَ أنْ تَسير مَعَهُ مِيْلاً وَاحِداً فَسِرْ مَعهُ ميلَين، ومَنْ سَأَلكَ فأَعطه ومَنِ استَقْرَضَكَ فَلا تُعْرِضْ عَنْهُ» متى ٤١/٥.

وهكذا تلتقي العقيدتان الإسلامية والمسيحية في الدعوة إلى التعاون الخيِّر بين الناس، لتجعل من المشرق العربي مبعث النور ومنطلق الحضارة الإسلامية.

٤ - التسامح عند العرب:

بادئ ذي بدء، ينبغي التفريق بين التسامح والعدل، وكل منهما مبدأ من المبادئ الإنسانية، وعنصر من عناصر المنظومة الأخلاقية السلوكية التي جاء بها الإسلام.

يقول القرآن الكريم: ﴿**إنَّ الله يَأمُرُ بالعَدْلِ وَالإِحْسَانِ**﴾ سورة النحل، الآية: ٩٠، ويقول: ﴿**وَإِذا حكَمتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أنْ تَحْكُمُوا بالعَدلْ**﴾ سورة النساء، الآية:٥٧، ويقول: ﴿**ولا يَجْرِمنْكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلى ألاَّ تَعْدِلوا اعْدِلُوا هُوَ أقْرَبُ للتَّقْوى**﴾ سورة المائدة، الآية: ٩، ويقول: ﴿**وإذا حكَمْتَ فاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بالقِسْطِ إنَّ اللهَ يُحبُّ المُقْسِطِيْن**﴾

سورة المائدة، الآية: ٤٥، ويقول: ﴿**وإذا قُلتُم فَاعْدِلوا ولَوْ كانَ ذا قُرْبى**﴾ سورة الإنعام، الآية: ١٥٢.

إنَّ العدل يعني الإنصاف وعدم الانحياز إلى أحد المتخالفين أو المتخاصمين. وأما التسامح فهو اللين والسهولة في معاملة الآخر، وهو يناقض القهر والشدة والتشدد، وكلاهما، العدل والتسامح حق وخير، كل في موضعه.

ولا يقتصر الإسلام على الدعوة إلى التسامح بل يذهب إلى أبعد من ذلك، فيدعو إلى الغفران والعفو وهذا كله مغالبة للطبع لأن الأصل البشري أن يرد الإنسان على الفعل بمثله أو بأكثر منه.

يقول القرآن الكريم: ﴿وَلِمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ، إِنَّ ذلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُور﴾ سورة الشورى، الآية: ٤٣، ويقول: ﴿خُذِ العَفْوَ وَأْمُرْ بالِعُرْف﴾ سورة الأعراف، الآية: ١٩٨.

ويقول: ﴿**الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّراءِ وَالضَّراءِ وَالكاظِمِيْنَ الغَيْظ والعافِينَ عَنِ النَّاس**﴾ سورة آل عمران، الآية: ١٣٤.

وهكذا تلتقي مفاهيم العدل والتسامح والغفران بالإضافة إلى الشورى والتكافل الاجتماعي ورفض الظلم والمسؤولية عن العمل لتشكل التكوين الخلقي للإنسان المؤمن.

ولقد كان لكل من المفاهيم – المبادئ – أثر على حياة العرب مدى الزمن. ونود أن نفصل بعض التفصيل في مفهوم التسامح

الديني في الإسلام الذي كان له أثر كبير في تكوين الدولة وقيام الحضارة العربية الإسلامية، وما زال تأثيره قائماً في حياتنا العربية المعاصرة.

كان المسلمون مدعوين إلى نشر الإسلام بين العرب والأقوام كلها – الناس كافة - بطريقة الإبلاغ والإقناع، فإذا ما صدُّوا عن ذلك بالقوة كان الجهاد واجباً. ويلاحظ أن القتال إنما شرع للمسلمين دفاعاً عن النفس أو درءاً للفتنة. يقول القرآن الكريم: ﴿**وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لا تَكُونَ فِتْنَةٌ**﴾ سورة البقرة، الآية: ١٩٣. ويقول: ﴿**فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُم**﴾ **سورة البقرة، الآية: ١٩١.**

وأما إذا ما بدرت بادرة مسالمة أو مصالحة فينبغي قبولها، جاء في القرآن الكريم: ﴿**يَا أَيّها الَّذِيْنَ آمَنُوا ادْخُلوا فِي السِّلْمِ كَافَّة**﴾ سورة البقرة، الآية: ٢٠٨.

وجاء فيه: ﴿**وَإِنْ جَنَحُوا لِلسلمِ فَاجْنَحْ لَها وَتَوكَّلْ عَلى الله**﴾ سورة الأنفال، الآية: ٦١. وقد بلغ عدد الآيات التي تدعو إلى السلم والمسالمة أكثر من ١٣٨ آية.

وكان انتشار الدعوة الإسلامية بين الناس آنئذ السبيل إلى تحقيق أهداف الرسالة وإقامة الدولة. ولكن هذا التحرك في إبلاغ الدعوة لم يَجْرِ اعتباطاً بل فرق المسلمون في ضوء التعاليم الدينية التي تلقوها من القرآن الكريم والأحاديث النبوية بين الناس بحسب معتقداتهم الدينية وتعاملوا معهم بطرائق مختلفة.

إنهم لم يهادنوا الوثنيين من العرب وسواهم، ولم يتسامحوا معهم، بل ألزموهم بدخول الإسلام أو خوض القتال. وأما أهل الكتاب وبالتحديد اليهود والنصارى فقد عاملوهم بتسامح ولم تفرض عليهم العقيدة الجديدة بل خيروا بين الدخول في الإسلام أو البقاء على دينهم ودفع الجزية.

ولم يكن هذا الموقف بالنسبة للنصارى وليد المصادفة بل بني على ما ورد في القرآن الكريم من ذكر كريم للسيد المسيح وأمه مريم بنت عمران جاء في القرآن الكريم: ﴿**إنَّما المسيحُ عِيْسى بنُ مَريَمَ رَسُولُ اللهِ وكَلمَتُهُ ألقَاها إلى مَريَمَ ورُوحٌ منْه**﴾ سورة النساء الآية: ١٧٠. وجاء أيضاً: ﴿**مَا المَسِيْحُ بنُ مَريَمَ إلا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِه الرُّسُلُ وأُمُّهُ صِدِّيْقَة**﴾ سورة المائدة الآية: ٧٨.

لقد دعا الإسلام إلى اتخاذ الحوار معهم سبيلاً للإقناع ولم يحاول إجبارهم على تغيير دينهم قال: ﴿**ولا تُجادِلُوا أهْلَ الكِتَاب إلاَّ بالَّتي هِيَ أَحْسَنُ، إلاَّ الَّذينَ ظَلَمُوا مِنْهُم**﴾ سورة العنكبوت الآية: ٤٦. وقال: ﴿**ادْعُ إلى سَبِيلِ ربِّكَ بالحِكْمَة والموْعظَةِ الحَسَنَةِ وجَادِلْهُمْ بالَّتي هِي أَحْسَنُ إنَّ ربَّكَ هوَ أعْلَمُ بمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبيلهِ وَهو أَعْلَمُ بالمُهْتَدِيْنَ**﴾ سورة النحل الآية: ١٢٥. وقال: ﴿**أفأنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤمِنِيْن**﴾ سورة يونس الآية: ١٠٠.

ولذا فإنه ترك لهم حرية اتخاذ القرار بشأن اعتناق الإسلام، دون إكراه. قال: ﴿لا إكْراهَ في الدَّيْن قَدْ تَبيَّنَ الرُّشْدُ منَ الغِيِّ﴾

سورة البقرة الآية: ٢٥٦. وقال: ﴿**لا يَنْهاكُمْ اللهُ عَنِ الَّذينَ لَمْ يُقاتِلُوكُمْ فِي الدّينِ ولَمْ يُخْرِجوكُمْ منْ دِيارِكُمْ وتُقْسِطوا إِليهم**﴾ سورة الممتحنة الآية: ٩.

وبصورة عامة يمكن القول إن موقف القرآن الكريم من المسيحية كان موقفاً إيجابياً مشبعاً بالمودة.

وقد تلا ذلك موقف النبي الكريم في أحاديثه الشريفة وفي عقود الذمة التي كتبها لأهل الكتاب ولا سيما عقده مع أهل نجران.

قال الرسول الكريم: «مَنْ ظَلَمَ مُعاهِداً أو انتَقصَهُ حَقَّهُ، أو كَلَّفَهُ فَوْقَ طَاقَتِه، أو أَخَذَ منْهُ شيئاً بِغَيرِ طِيْبِ نَفْسٍ فأَنا حَجِيجهُ يَوْمَ القِيَامة» وقال: «مَنْ آذىَ ذّمياً فَقَدْ آذانِي».

وعلى هذا الأساس قامت العلاقة بين المسلمين والمسيحيين وحددت العقود التي أبرمت بين الطرفين واجبات كل منهما تجاه الآخر، وحددت حقوق الدولة على أهل الذمة وحقوق أهل الذمة على الدولة التي هي دولتهم التي يعيشون في كَنَفِها وحمايتها بوصفهم من أهل الدار «دار الإسلام».

إن الذمة هنا هي بمعنى العهد والأمان، وتلك العقود المبرمة أو العهود التي أعطيت لم تكن محددة بزمن بل هي مؤبدة تشمل الجماعات المعاهدة وأجيالها من بعدها ما لم تفسخ من قِبَلِهم كما

لا يحق للدولة أو المسلمين فسخ العقد إلا إذا تعاون أهل الذمة المتعاقدون مع العدو.

وكان عقد الذمة يرتب على المسيحي أن يدفع الجزية وهي مقدار من المال أو المتاع يتفق عليه في العقد وتقع على كل فرد بشرط توفر الرجولة والبلوغ والمقدرة.

ومقابل ذلك كان المعاهد يعفى من المشاركة في الحرب.. فإن حارب مع المسلمين أسقطت عنه الجزية كما جرى لبني تغلب أيام الفتوح.

ومن أهمِّ العقود والعهود التي أبرمها المسلمون عقد النبي الكريم مع أهل نجران، والعهدة التي أعطاها الخليفة عمر بن الخطاب لأهل القدس.

لقد اشترط الاتفاق بين الرسول الكريم وأهل نجران أن يدفعوا جزية ويمتنعوا عن أكل الربا وترتب على الدولة لأهل نجران حماية أموالهم وأنفسهم وأرضهم وحلّهم وغائبهم وشاهدهم وعشيرتهم وضمن لهم حرية العبادة وأماكنها وحمايتهم من الغزو الخارجي وبذا كانت محققة لمقولة العيش المشترك: «لهم ما لنا وعليهم ما علينا».

إنّه اتفاق متوازن تم عقده بعد تفاوض حر يرضي الطرفين، وكان كل طرف يرى فيه الخير وتحقيق مصلحته.

أما العهدة العمرية فبعد معركة اليرموك التي انتصر فيها العرب على الروم حاصر جيش المسلمين القدس فطلب بَطريقُها حضور الخليفة عمر بن الخطاب لتسليمه مفاتيح المدينة. ولّما حضر استقبله أهلوها فأعطاهم عهداً وقعه مع عدد من الصحابة بأن تصان أرواحهم وأموالهم وكنائسهم وبألا يسمح لليهود بالعيش معهم ولا يكرهون على دينهم ولا يضار أحد منهم..

ولقد أرست العهدة العمرية هذه قاعدة صلبة لتآخٍ عربي وتضامن وتسامح ديني بين العرب المسلمين منهم والمسيحيين تآخٍ لا تنفصم عُراه على مدى الزمن.

وهنا لا بد أن نلاحظ أن التسامح الذي أبداه المسلمون تجاه النصارى إنما كان من وحي القرآن الكريم الذي جاء فيه: ﴿**ولَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَودَّة لِلَّذِينَ قالُوا إنَّا نَصارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسينَ ورهْبانا وأنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُون**﴾ سورة المائدة الآية: ٨٥.

أضف إلى ذلك أن ثمة جامعاً متيناً بين الفريقين هو جامع النسب واللسان والموطن والنشأة والخلق والمعشر مما جعل هذا التساهل نتاجاً لعوامل متعددة روحية وطبيعية واجتماعية وثقافية.

وقد أثمر هذا التسامح خلال الحقب المختلفة تعاوناً مثمراً بين المسلمين والمسيحيين الشرقيين على اختلاف طوائفهم في زمن السلم كما في زمن الحرب.

أما في فترات السلم فقد كانت بين الفريقين متسمة بالود وقائمة على الثقة بصورة عامة، بل إن بعض الخلفاء الأمويين والعباسيين والفاطميين قد أسندوا إلى النصارى في الشام وبغداد والقاهرة مسؤوليات جسيمة إدارية ومالية وسياسية وائتمنوهم على أموالهم واعتمدوا عليهم في تربية أبنائهم.

وأما في ميدان الثقافة فقد كان النصارى مجلين إذ تولوا نقل العلوم والمعارف، وعلى الأخص في العصر العباسي من اللغات اليونانية والسريانية والهندية والفارسية إلى اللغة العربية في المجالات المختلفة: الفلسفة والرياضيات والفلك والطب والهندسة والمنطق وغيرها، فيسروا للعرب المسلمين الاطلاع عليها بلغتهم وكان ذلك منطلق العمل العلمي الكبير الذي حققه العرب. أضف إلى ذلك أنه كان منهم عدا النقلة، العلماء والشعراء الذين أسهموا في إغناء الثقافة العربية ترجمةً وتأليفاً وإبداعاً.

أما في حالات الحرب فقد وقف النصارى في الشام والعراق ومصر مثل غسان وتغلب وغيرهما إلى جانب إخوانهم العرب المسلمين فكانت معارك الفتح معارك تحرر قومي من سطوة الروم وسلطان الفرس.

أما الحروب الصليبية فقد وجد فيها المسيحيون الشرقيون اعتداءً خارجياً يستهدف إلحاق الأذى بهم مثلما يستهدف المسلمين وتحملوا من المسيحيين الغربيين الطامعين في خيرات

المشرق، السوء والأذى فعملوا مع المسلمين على استرداد القدس وغيرها من أيدي المعتدين.

وفي عصر النهضة الحديثة في القرنين التاسع عشر والعشرين، شارك المسيحيون المشارقة إخوانهم المسلمين في دفع الاستعمار وناضلوا معهم من أجل التخلص منه وتحقيق الاستقلال، ودعا مفكروهم في مصر وبلاد الشام إلى الوحدة الوطنية واليقظة القومية وتحقيق النهضة العربية الشاملة.

بيد أنه من الحق القول إنَّ هذا التساهل لم يكن على الدوام مصوناً ومطبقاً وفي خط مستقيم بل مرت أحوال شابه ضعف أو تهاون، إذ يلاحظ بعض المؤرخين أن باب الاجتهاد وحاجة خزينة الدولة إلى المال وتسرب الفساد إلى كيان الدولة العربية الإسلامية قد أدى إلى استغلال موضوع الجزية والإخلال بعقود الذمة. ولذا فقد عرف النصارى العرب فترات من الضيق ولكن ما يجب قوله في هذا المقام إن فِرقاً من المسلمين قد عانت أكثر مما عانى النصارى من السلطات التي لم تدرك تماماً جوهر الدين ومقاصد الشريعة.

هذا ولئن بسطنا كنموذج للتسامح موقف العرب المسلمين إزاء النصارى العرب، فإن هذه الخلفية أي التسامح بين الواحد والآخر لم تكن مقتصرة على المختلفين ديناً وعقيدة من العرب،

بل شملت موقف المسلمين العرب منم أبناء الأقوام والأجناس الأخرى التي عاشت في دار الإسلام كالفرس والروم والديلم والترك استناداً إلى قول الرسول الكريم في خطبة الوداع: «يا أيُّها النَّاسُ إنَّ ربَّكُم وَاحِدٌ وإنَّ أباكُمْ وَاحِدٌ، كّلُكُمْ لآدمَ وآدمُ مِنْ تُراب. إنَّ أَكْرَمَكُم عِنْدَ اللهِ أَتْقاكُمْ لَيْسَ لِعَرَبِيّ عَلى أَعْجَمِيّ وَلا لأَعْجَمِيٍّ عَلى عَرَبِيٍّ، وَلا لأَحْمَرَ عَلى أَبْيَض، وَلاَ لأَبْيَض عَلى أَسْوَدَ فَضْلٌ إلاَّ بِالتَّقْوى».. لقد كانت دار الإسلام داراً لمختلف الأديان والأقوام.

إنَّ المساواة بين الأجناس والأقوام مبدأ من أهم مبادئ العقيدة الإسلامية جاء في القرآن الكريم: ﴿**يَا أيُّها النَّاسُ إنَّا خَلَقْناكُم مِنْ ذَكَرٍ وأُنثى وَجَعلْناكُمْ شُعوباً وَقَبائِلَ لِتَعارَفُوا إنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقاكُم**﴾ وهكذا التقى الإسلام بدعوته إلى التسامح والعفو والغفران بالمبادئ التي دعا إليها السيد المسيح والتي ذاعت في أرجاء واسعة من الوطن العربي مدة ستة قرون قبل البعثة النبوية.

قال السيد المسيح في خطبة الجبل: «أَحِبُّوا أَعْداءكُمْ فَإِنْ أَحْبَبْتُمْ مَنْ يُحِبُّونكُم فَأَيُّ فَضْل لَكُمْ» متى ٤٦،٤٤/٥ و «مَنْ لَطَمَكَ عَلى خَدِّكَ الأَيمَنَ فَأدِرْ لَهُ خَدَّكَ الأَيْسَر» متى ٣٩/٥. وفي الصلاة التي علّمها لتلاميذه «واغفر لنا ما علينا كما نَغفر نحن لمن لنا عليه» متى ١٢/٦. وجاء في إنجيل متى أيضاً: «فدنا بطرس وقال له: كم مرة يخطئ إلّي أخي وأغفر له؟ أسبع

مرات؟ فقال له يسوع: لا أقول لك سبع مرات بل سبعين مرة سبع مرات».

وهكذا تلتقي القيم السامية: التسامح والتساهل والعفو والغفران، لدى المسلمين والنصارى على السواء. وهذه القيم إنما هي قطرات من نبع المحبة محبة الإنسان أخاه الإنسان.

إنها لتؤكد مرة أخرى أن الإنسان هو سيد الكون لا بما هو عاقل فحسب بل بما يمتلئ قلبه من مشاعر نبيلة.

٥ - المنظومة الأخلاقية العربية والعصر الحاضر:

والآن نحن في مطلع القرن الحادي والعشرين، هذا القرن الذي يحفل بالتبدلات المادية والاجتماعية والفكرية، ويشهد ثورة المعرفة العلمية والتقنيات الجديدة وصار العالم فيه قرية الكترونية نتساءل بحق عن المنظومة المذكورة وعمّا إذا كانت تلبي سائر احتياجاتنا الحياتية، أم يكون لنا موقف آخر؟

بادئ ذي بدء أود أن أذكر أن كل منظومة أخلاقية سلوكية ولا سيما المنظومة العربية تشتمل على عناصر إنسانية ثابتة وعناصر طرفية متبدلة. فأما العناصر الأولى فتعبر عن نفسية الإنسان وتتوافق مع احتياجاته وتطلعاته في كل زمان ومكان، وهي واحدة لدى البشر جميعاً، إذ ليس من منظومة تسوغ القتل أو السرقة أو الكذب أو تبرر الظلم والحقد والحسد. وأما

العناصر الثانية فهي تتعلق بالمستوى الثقافي للإنسان في زمن ما، وبالمستوى الحضاري للمجتمع، وهما عرضة للتبدل ويتطلبان الاجتهاد في المبادئ والقيم الأخلاقية والاجتماعية وتطبيقها. إن معاملة الرقيق معاملة حسنة لم تعد قائمة بعد زوال الرق كنظام اجتماعي، وإن أشكال التعاون التي يحتاج إليها مجتمع صناعي تختلف عن أشكاله التي يحتاج إليها مجتمع زراعي، والتساهل مع مهربي المخدرات ومروجيها ضار بالمجتمع ولا يمكن قبوله.

أ - التحول الحضاري:

وأين نحن اليوم من ذلك كله؟

بعد مرحلة الازدهار الحضاري والثقافي العربي الذي امتد من تخوم الصين حتى بلاد الفرنجة مؤيداً بالقوة التي استطاعت على الرغم من انقساماتها الكثيرة في بلدان المشرق والمغرب والأندلس، أن تبقي الشعلة المضيئة، تضافرت عوامل الضعف على البنية العربية السياسية والاقتصادية والاجتماعية، فحلَّ الشتات بين العرب محل الألفة، والتجزئة مكان الوحدة، والضّعْف موضع القدرة، فطمع بهم الخصوم وتتالت عليهم الحروب والغزوات، تأتيهم من الغرب حيناً ومن الشرق حيناً آخر، فخبا الألق الذي سطع قروناً بسبب تسلط الأعاجم على

الحكم وحَلَّ الدمار بديارهم، وانقطع حبل العمران والارتقاء، ضَمُرت بالتالي ثقافتهم نتيجة ركود حياتهم العامة، وتجمدت الصيغ الأخلاقية والسلوكية في قوالب محددة.

وبعد حلكة الظلام التي انتشرت قروناً عدة أيام حكم المماليك والعثمانيين، بزغت في الأفق ومضات في مطلع القرن الماضي، بفعل الصدمة التي حصلت إثر الحملة الفرنسية على مصر.

لقد قرَّ في أذهان العرب، ولاسيما المصريين، أن الجهل والتخلف هما سبب الهزيمة، وأن القوة المادية والمعنوية إنما مصدرها العلم الذي استطاعت أوروبا تطويره، بعد أن قبست من العرب ما كانوا قد أنجزوه في مضماره. وكان من نتيجة ذلك أن بُدِئ بافتتاح المدارس وإرسال البعوث لاكتساب العلوم العصرية، وأنشئت الجامعات والمعاهد وأصدرت الكتب والمجلات...

ب - الأصالة المعاصرة:

وفي خضم هذا التحول، ظهر اتجاهان متباينان إزاءه لم يُحْسَم الخلاف بينهما حتى اليوم.

• اتجاه التمسك بالأصالة ومبعثه ما للتراث العربي الثقافي من مكانة في النفوس، ويطلق على هذا الاتجاه اسم الاتجاه المحافظ. ولكن بعض أصحابه يتطرفون فيدّعون أنه يعني عن كل تجديد وتحديث، فيقفون في الماضوية والتشدد والجمود والتخلف والتنكر لمقتضيات العصر.

• اتجاه الأخذ بالمعاصرة، ومبعثه الإعجاب إلى حد الاندهاش بمنجزات الغرب في القرون الأخيرة في ميدان العلوم والآداب والفنون. ومن أصحاب هذا الاتجاه من يعتدل فيدعو إلى الانفتاح على الجديد والأخذ بكل مفيد دون التنكر للموروث الديني والفكري والأخلاقي. ومنهم من يغالي ويتشدد فلا يجد في الماضي خيراً يستفاد منه اليوم ويميل إلى اقتباس الجديد دون تمحيص فيقع في التغرُّب والتنكُّر للقيم التي ملأت تاريخنا خيراً ومجداً وفلاحاً.

• وفي هذين الموقعين اللذين يثيران جدلاً وخلافاً بين المفكرين والمثقفين ودعاة الإصلاح منذ قرنين من الزمن، تندرج قضية مفهومي «التعاون والتسامح» بل قضية جميع المبادئ والقيم التي تشكل تراثنا الخلقي والسلوكي والثقافي. فهل من الصواب أن نتمسك بهذه المنظومة غير منقوصة، وكما فهمها المتفقهون والمفسِّرون في القرون الماضية، قبل ألف عام مثلاً، ونرفض كل ما حملته إلينا المدينة الغربية، أم نستبدل مشتملات هذه المدينة بهذه المنظومة؟

٦ - الحضارة الغربية:

قبل الإجابة أود الإشارة إلى أنَّ الحضارة الغربية هي تسمية مكانية لا نوعية، ذلك أنها ليست مقطوعة عن الحضارات التي سبقتها، بل هي الحلقة الأخيرة في سلسلة الحضارات التي ابتدعها

الإنسان بعقله وجهده منذ آلاف السنين، ابتداءً بالحضارات السومرية والبابلية والفرعونية والصينية ومروراً بالحضارات الأخرى كالحضارة الإغريقية والرومانية والحضارة العربية.

ومثلما كان في سابقتها أمور ترقى بالإنسان عقلياً واجتماعياً وخلقياً، ففي هذه الحضارة ما يرقى به أيضاً، فهي تحمل حسناتها إلى جانب سيئاتها، ومنافعها إلى جانب أضرارها.

ولكن ما حصل، أننا نحن العرب تعرفنا إلى الحضارة الغربية في أسوأ تجلياتها، وهو الاستعمار الذي غزا البلدان العربية منذ بداية القرن التاسع عشر، طمعاً في مواد رخيصة يحصل عليها، وأسواق لتصريف سلعه ومنطقة حيوية يمارس فيها نفوذه السياسي وتسلطه العسكري، ثم عرفناها كذلك في صورة الصهيونية الباغية البغيضة التي ترمي إلى اغتصاب فلسطين قلب الوطن العربي. فليس غريباً البتة أن ينظر العرب والمسلمون عامة إلى هذه الحضارة نظرة رفض وإنكار وريبة وألا يثقوا بما أفرزته من ثقافة ومبادئ وقيم.

ولكن النظر الموضوعي إلى الأمور، انطلاقاً من مصلحتنا بالذات، يجعلنا نفرِّق بين الطيب والخبيث، والنافع والضار، والأسود والأبيض في معطيات الحضارة الغربية ومفرزاتها، فنقبل ما نحن بحاجة إليه من العلوم والتقانات والآداب والفنون لأنها ألصق بالعصر الذي نعيش فيه، وليس من ضَيْر علينا في

اقتباسها على غرار ما جرى في العصر العباسي عندما نقل العرب إلى لغتهم معارف من سبقهم من الأمم، ونردّ نتاجاتها التي نرى فيها ما يخالف تراثنا الأخلاقي ولا يساعدنا على التقدم الاجتماعي والنهوض الاقتصادي.

أ - سمات الحضارة الغربية:

فما هي بالتالي السمات الأساسية للحضارة الغربية المعاصرة؟

لا نعود إلى بداياتها ومرتكزاتها الفكرية والاقتصادية والاجتماعية وتطورها في القرون الخمسة الأخيرة، ولكننا نشير باقتضاب إلى ما تم في نصف القرن الأخير، وما تحقق فيه من ثورة متعددة الجوانب.

ثورة علمية معرفية طوَّرت العلوم المختلفة الأساسية والتطبيقية والاجتماعية والإنسانية، وأوجدت مناهج وطرائق بحثية توفر للمعرفة والنمو السريع.

ثورة تِقْنّية وتِقانيَّة طوَّرت الصناعات المختلفة وأوجدت الآلة واستخدمت البخار واكتشفت الكهرباء واستفادت بنجاعة من المواد الأولية وحولتها إلى منتجات استهلاكية، وسارت في علوم الفضاء والبحار والبيئة والجينات أشواطاً بعيدة مذهلة وما تزال.

ثورة اتصالات ومعلومات، ألغت الأبعاد وقربت المسافات واختصرت الزمن. وقد فتحت الأقمار الصناعية والحواسيب

الإلكترونية آفاقاً بعيدة للإنسان كي يعرف ويتصل وينتقل ويرى بعينه ويسمع بأذنيه وهذا ما كان من قبل حلماً بعيد المنال...

والمفارقة أنَّ هذا يجري في بلدان العالم المتقدم، بلدان الحضارة الغربية، ووطننا العربي، على الرغم من اتساعه وغناه، وموقعه الفريد وإنسانه الفَطِن القادر، يعاني العجز والتقصير عن اللحاق بالركب المتسارع، تعوقه أسباب عديدة من تجزئته إلى أقطار بعضها دويلات صغيرة، وتخلفه الاقتصادي والاجتماعي، إلى جانب انشغاله بحماية نفسه من تسلط الغرب وعدوان إسرائيل وانهماك أكثر حكامه باستدامة السلطة مع ضعف مريع في التخطيط والإدارة... ونتيجة هذا كله، نجد أن الغرب يتقدم مع تقدمه ويقوى فوق قوته، ونحن نقف على رصيف الزمن، نجري وراء الغرب فلا ندركه فتتسع الفجوة الحضارية بيننا وبينه فيكون هو العالم الأول ونحن عالماً ثالثاً إلى أجل غير محدود.

إنَّ عوامل كثيرة حالت دون تمكن العرب من إنجاز مشروعهم النهضوي الذي باشروه منذ قرنين من الزمن. من هذه العوامل ما هو خارجي، وأهمها أنهم صرفوا جلَّ طاقتهم لمدافعة الاستعمار والتدخل الأجنبي وإحباط المشروع الصهيوني، ومنها ما هو داخلي، وأهمها التخلف الموروث عن العهد العثماني والتردد في اقتباس المستجدات المفيدة في عالم اليوم.

ب - العولمة وآثارها:

وعلى صعيد العالم، كانت السنوات الخمسون التي تلت الحرب العالمية الثانية فترة تنافس بين قوتين عظيمتين، نظامين رئيسين كل منهما كان يسعى جاهداً لجذب الدول والشعوب إلى جانبه: النظام الرأسمالي والنظام الاشتراكي.

وقد انتهت فترة التنافس هذه ببروز العولمة، بعد سقوط النظام الاشتراكي، بمثابة ظاهرة تاريخية تمثل النتيجة الطبيعية والموضوعية للتراكم الرأسمالي العالمي تعززه الإنجازات الباهرة التي تمت في ميدان العلوم والتقانة والمعلومات والاتصالات.

ويستهدف هذا النظام تحقيق التوسع في الاستهلاك السلعي، لمصلحة الإنتاج الذي تحققه الشركات الكبرى المتعددة الجنسيات، مما يستدعي تنميط التفكير واللغة والسلوك والذوق لترويج المنتجات في كل مكان في العالم.

ولذا كان من شأن العولمة أن تحد من السيادة الوطنية للدول، وتلغي الحدود الاقتصادية والتخوم الثقافية وتحول العالم إلى ساحة إنتاج واستهلاك وسوق مفتوحة تكون السيطرة فيها للدول الأقوى.

إن العولمة تتحدى ثقافات الأمم جميعها، حتى المتقدمة صناعياً وثقافياً منها، لأنها تعمل على تذويب الثقافات كلها في بوتقة ثقافة الدولة المهيمنة – الولايات المتحدة الأمريكية – وتنتقص من هوية الشعوب وذاتيتها وخصائصها المميزة من لغة

وآداب وفنون وتقاليد وعادات وأنماط عيش، لتعيد الطريق لقطار العولمة السريع المندفع بقوة غالبة مالية وتقنية وتقانية، ترفده قدرات عسكرية وسياسية وإعلامية هائلة.

إنَّ هذا كله لا يمنع من القول أن العولمة ينتظر أن تكون حافزة على تحقيق الكشوف العلمية والبحوث والتطبيقات في كل مجال من المجالات، ووصل العالم ببعضه عن طريق الاتصالات والمعلوماتية بحيث يقترب من الوحدة التي ترمز إلى وحدة الجنس البشري على هذا الكوكب. إذا روعيت فيها العدالة والمساواة يكون في مقدورها أن تحقق التقدم والرفاهية لكل شعب من الشعوب، لكن هيهات أن يتحقق ذلك.

لقد كان رد الفعل لدى فئات عديدة من أصحاب العقائد الدينية والأخلاقية في العالم، على العولمة التي تعتمد في جانبها الإيديولوجي، على العلمنة والعقلانية لتجاوز الخصوصيات الروحية والفكرية والسلوكية، وبشكل غريزي، بل بمثابة دفاع عن النفس، الرفض المطلق الناجم عن الخشية من هذا الوافد الغريب، والانطواء على الذات، والعودة إلى الماضي وإحياء الجذور، بل التقوقع والانكماش.

ومن هنا برزت الأصوليات الدينية: اليهودية والبوذية والمسيحية والإسلامية والأصوليات العرقية والثقافية واللغوية، بمثابة دروع واقية في نظر أصحابها لحماية مقدسات وقيم تخشى فقدانها في خضم العولمة.

وفي اعتقادي أنّ العولمة ليست خطة يندرج فيها إلغاء الأديان والقيم واللغات وسائر الخصوصيات، وإذا كان قد حصل أو سيحصل شيء من هذا القبيل فهو أثر من آثار الاختراق والتنميط، بل هي لا تتورع أحياناً من توظيف البنى الدينية والثقافية، في بعض الأماكن والظروف، لتحقيق أغراضها.

إنّ الموقف السليم من العولمة، بالنسبة لنا نحن العرب، ليس الرفض والتقوقع والانكماش، بل التعامل معها بحكمة وشجاعة وثقة بالنفس.

إنها ليست قدراً نقبله كليةً، ولا اختياراً نرفضه كليةً، ولذا فإن الموقف السليم منها هو التفاعل مع الجوانب الإيجابية لتحقيق التقدم المعرفي والعلمي والتقاني في الوطن العربي، وفق خطة محكمة شاملة تنطلق من حاجات الشعب العربي، في جميع أقطاره، ومن تطلعاته إلى غد أفضل وينبغي أن تُحدد الأهداف المراد بلوغها والطرائق والوسائل اللازمة لبلوغ هذه الأهداف، مع تحاشي جوانب العولمة السلبية بالحفاظ على الهوية القومية والمبادئ التي تقوم عليها والعمل على مواءمة المنظومة الدينية والأخلاقية المتوارثة مع متطلبات هذه المرحلة الدقيقة، والجمع بين الأصالة والمعاصرة، وبين الموروث والجديد، وإبداع صيغ مبتكرة تجعل الجديد يحتضن التراث ليحيا في الجديد.

٧ - الحفاظ على القيم العربية ودور التربية:

إننا نحن العرب، نملك منظومة قيم تحدثنا عنها فيما سبق، وهي متمكنة في ثقافتنا وعميقة الجذور في تكويننا النفسي وسلوكنا العملي، يستوي في ذلك عرب المشرق وعرب المغرب، وهي التي تتشكل، مع عناصر أخرى في مقدمتها اللغة العربية، هويتنا القومية في الأمس واليوم والغد. ومن هذه القيم: كرامة الإنسان، الاهتداء بالعقل، حب المعرفة والعلم، المحبة والتعاون والتسامح، العدل، المساواة والحرية والشورى، الأمانة والوفاء والرحمة والإحسان، وغيرها من القيم الخيِّرة الأخرى.

وجدير بالذكر أن المبادئ الدينية والقيم الأخلاقية والسلوكية ليست ألفاظاً تردد أو شعارات يُتَغنى بها، ولا مشروعات ترسم ومؤسسات تقام، بل هي قبل أي شيء آخر إيمان في القلب وثقة بالنفس، وقناعة في العقل وإرادة على التمسك بها والعمل بموجبها.

إننا مدعون للحفاظ على القيم العربية الأصيلة التي ذكرت أهمها، فهي تراث ديني وثقافي وأخلاقي نفيس قد انتقل إلينا عبر الزمن من الأجيال السابقة؛ ومن واجبنا نقله إلى الأجيال القادمة، حَيَّاً متجدداً.

ولكن إذا كانت هذه القيم قد اتخذت، عند الفعل والتطبيق، صوراً وأشكالاً معينة، تتلاءم مع مقتضيات أحوال المجتمع العربي آنذاك، فمن الممكن، بل من الواجب أن نعطيها اليوم

صوراً وأشكالاً تتلاءم مع أحوال المجتمع العربي اليوم، من حيث حاجاته وتطلعاته، ومع موقعه في العالم المعاصر، وما يواجه من صعوبات وتحديات.

وقد ورد في الخطة الشاملة للثقافة العربية التي أصدرتها المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ما يلي: «إن منظومة القيم العربية الإسلامية مجموعة متكاملة من المبادئ التي تشكل في جملتها مذهباً خاصاً في الحياة هو الذي منح الهوية الثقافية العربية ملامحها المميزة، وإن كانت بعض الأشكال التي أخذتها هذه القيم في الماضي مختلفة عن الأشكال العربية الحديثة نتيجة تطورات العصور، وهي اليوم أنساق ونظم ومؤسسات موجودة في صلب المجتمع العربي الإسلامي القائم، ولكن فاعليتها بلغت الآن أدنى مستوياتها لأسباب عديدة. والحراك الاجتماعي يبدأ لا في إيجادها بل في طريقة منحها طاقات جديدة حركية من جهة ومفاهيم تستوعب العصر من جهة ثانية، وتحويلها إلى مؤسسات اجتماعية ثابتة من جهة ثالثة».

أ - التعاون:

إنَّ صور التعاون وأشكاله، بين أفراد المجتمع، لا يحددها الإيمان بضرورة التعاون وأهميته وفوائده، ذلك أن هذا الإيمان قائم بالضرورة، لأن الإنسان اجتماعي بطبعه، بل تحددها

المرحلة التي بلغها المجتمع من حيث التطور الاقتصادي والاجتماعي والثقافي وأساليب العمل التي يطبقها وطرائق العيش والتعامل التي يصطنعها.

إنَّ التعاون في مجتمع زراعي تختلف صوره وأشكاله عنها في مجتمع رعوي، وهي في مجتمعٍ نامٍ مثل أكثر المجتمعات العربية اليوم، مجتمع يعمل لتحسين طرائق الزراعة والاستثمار الزراعي وإحداث الصناعات الخفيفة والثقيلة، ومتحصل على قدْر مقبول من التعليم والتدريب والثقافة وساعٍ للانفتاح على الدول والشعوب الأخرى في العالم، تختلف عنها في مجتمع زراعي متخلف ومنعزل وراكد.

وعلينا أن نذكر أن الشرط الأساسي ليكون التعاون قيمة أخلاقية هو أن يكون منبعثاً عن دافع إنساني نبيل، مستنداً إلى الإخلاص في القصد، وأن يكون كل طرف من المتعاونين راغباً في تقديم العون للطرف الآخر ومتوخياً للنفع المتبادل أو النفع العام.

ونستطيع أن نذكر بعض صيغ التعاون الممكنة والمفيدة، في هذه المرحلة، والتي يجدر أن توضع الخطط التربوية لإيضاحها وبيان طرائق تنفيذها:

١ - التعاون ضمن الأسرة: بين الزوجين، بين الأبناء، بين الأبوين وأولادهم، بين أفراد الأسرة ومن حولها من أقرباء:

جدود وجدات، أعمام وعمات، أخوال وخالات... ومن أصدقاء وأنسباء.

٢ - التعاون في نطاق الحي أو القرية: ينبغي على الفرد أن يقيم علاقات تعاون مع أبناء حيِّه أو قريته، تأمين منافع مشتركة اقتصادية واجتماعية وثقافية والعناية بالبيئة والنظافة والصحة العامة أو القيام بنشاط اجتماعي أو علمي أو فني أو رياضي.

٣ - التعاون في مجال العمل أو المهنة: إنَّ التعاون في العمل مع الزملاء أو المهنة، رؤساء أكانوا أم مرؤوسين، واجب يمليه الإخلاص للعمل والمهنة، ذلك أن التعاون يجمع الجهود ويوحَّد المساعي ويحمي الحقوق ويسِّهل أداء الواجبات.

وفوق ذلك يوفر التعاون جوّاً من الراحة النفسية للعاملين فيزداد نشاطهم ويكون فيه الخير لهم وللمؤسسة والمهنة والمجتمع.

٤ - التعاون في نطاق الوطن والأمة: إن التعاون هو الموقف المطلوب من كل مواطن. إنّ المواطن تجمعه بأبناء قومه علاقات حميمة، وخدمة الوطن والعمل على ترقيته هما مهمة أبنائه جميعهم بلا استثناء.

وفي أعلى مراتب العمل الوطني والقومي حماية الوطن والحفاظ على الأمة من كل اعتداء يقع عليها أو اجتراء يمس كرامتها وحريتها.

إنَّ الأمة العربية تمتلك جميع الشروط اللازمة لتكوين دولة واحدة موحدة، تبني حضارة مميزة وحياة زاهرة آمنة... ولكن لئن حالت دون ذلك عقبات فلا أقل من أن يكون التعاون بين أبنائها وبين أقطارها منهجاً ثابتاً وسعياً دائباً.

٥ - التعاون على ساحة العالم: إنّ التعاون بين الأمم المختلفة قد زاد عما كان من قبل ازدياداً كبيراً، ذلك أن وسائط السفر والاتصال الحديثة قد يَسَّرت اتصال الناس بعضهم ببعض وجعلت من التعاون فيما بينهم، ولو اختلفت أوطانهم ولغاتهم وثقافاتهم شأناً مهماً سواءٌ أكان هذا التعاون اقتصادياً أم علمياً أم مثاقفة.

أضف إلى ذلك نشوء عدد كبير من المنظمات والمؤسسات الدولية خلال العقود الخمسة الأخيرة، بغرض تنظيم حياة البشر والتعاون الفاعل في قضايا الأمن والسلام والتربية والثقافة والعلوم والأمن والعمل والسياحة والبيئة.

ولا يفوتنا أن نذكر الملاحظات التالية:

١ - لا نستطيع أن نقدر ضرورة التعاون وأهميته وفائدته على كل الأصعدة، إلا إذا تصورنا فقدانه وحلول التنابذ والتباغض والتجاسد محله.

إنّ التخصص الدقيق في العمل في هذا العصر، وازدياد حاجة كل فرد للآخرين وحاجة الآخرين له، قد جعلا التعاون

شرطاً لازماً لا للازدهار وللتقدم في حياة البشر، بل لوجود هذه الحياة وديمومتها.

٢ - ولسنا نغفل أن التعاون كيما يكون مجدياً في بعض حالاته وصوره، يجب أن يتم ويطبق من خلال تشريعات تعاونية (قانون التعاون) أو هيئات تعاونية (جمعيات تعاونية ذات أغراض متعددة) ومؤسسات تعاونية (إدارات ونقابات وروابط واتحادات تعاونية) تضم شرائح اجتماعية متنوعة تحتاج إلى التعاون لتحقيق أهداف مهنية أو علمية أو ثقافية...

٣ - ولا يفوتنا أن نشير إلى أنَّ التعاون، وإن كان ميلاً فطرياً في الإنسان، فإنه يقوى بالإِعْمال ويَضْمُر بالإِهْمَال. ولذا فإن تنشيط روح التعاون وتفعيله أمر جَمُّ الفائدة، والتوعية بأهمية التعاون ودوره في ترقية الفرد والمجتمع ومساعدته على تحقيق أهداف نبيلة ترقى بالفرد والمجتمع أمر ضروري.

إنّ التعاون يحوِّل الفُرقة والأُلفة والتنابذ تراحماً وتعاطفاً، ويحدُّ من الأنانية والروح الفردية المفرطة والاستئثار بالرأي والركض وراء الكسب الشخصي، بل هو على عكس ذلك ينمي المشاعر الأخوية والإنسانية لدى المتعاونين ويساعدهم على إنجاز أعمال يعجز كل منهم بمفرده على إنجازها.

ولهذا ينبغي بذل الجهد المنظم لتوعية الأجيال الجديدة بفضائل التعاون وفوائده ليتخذوه قاعدة من قواعد التحرك الاجتماعي والتواصل الإنساني.

ب - التسامح:

أمّا التسامح فهو ضَرْب من السمو الخلقي وفوز للعقل على الغريزة، وانتصار لنزعة المسالمة والخير في الإنسان على نزعة الشر والمخاصمة لديه، وتعالٍ على مشاعر الحقد والثأر والانتقام.

إنّ التسامح يرتكز على معرفة الناس بعضهم بعضاً واعتراف الواحد بالآخر، ذلك أن معرفة الغير ليست كافية لإيجاد الجو الإيجابي بين إنسان وآخر، بل يجب أن يعترف به صنواً ونظيراً والإقرار بحقه في التفكير وإبداء الرأي، واتخاذ المواقف. في مثل هذه الشروط يحترم الواحد الآخر، فيتغاضى عن هفواته، بالقول كانت أو بالفعل، ويُقلُّ من العتاب واللوم.

ويقدر العاقل أن الإنسان خطّاء وأن الأعمال بالنيات والأمور بمقاصدها، ويذكر قول من قال: لكل جوادٍ كبوة ولكل سيف نبوة ولكل عالم هفوة، كما يذكر قول الشاعر:

فَعِشْ واحِداً أَوْ صِلْ أخاكَ فَإِنّهُ   مُقارِفُ ذَنْبٍ تارَةً وَمُجَانِبُهْ

ولكن هل التسامح مطلوب دوماً، ويصح في كل حال؟

إن التسامح مطلوب بل محمود عند الاختلاف فيما لا يكون من اختيار الآخر وصنعه، كالاختلاف في الدين والمذهب والطائفة، والاختلاف في الجنس واللون واللغة. إن التسامح في مثل هذه الأمور، وتقبل الواحد للآخر، تحتمه ضرورات التعايش على هذا الكوكب بين الأمم والشعوب والجماعات المختلفة، وتركُهُ يؤدي إلى التناحر والتقاتل والدمار. وبهذا المعنى، وبهذا الشمول، يكون التسامح ركناً من أركان الأنا الاجتماعي والسلام العالمي بين الدول والأقوام. قال القرآن الكريم: ﴿فَاصْفَحْ عَنهُمْ وَقُلْ سَلامٌ، فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ سورة الزخرف، الآية: ٨٩...

ولكن، مع كل ما للتسامح من سمو ورفعة، فمن الواجب ألاَّ يبذل عبثاً ويسفح مجاناً. فإن من نال مسامحة مَدْعُوّ، إذا ما أحس بخطئه أو نُبِّهَ إليه أن يُصغي إلى النصح ويظهر الندم ويتحاشى تكرار الخطأ، وفي هذا نفع لمن لقي المسامحة ومكافأة لمن قدمها.

ولا يغيبنَّ عن البال أبداً أن لكل خِلَّة وجهين، وما يصح في حال لا يصح في حال أخرى، وأن التسامح، إذا ما وضع في غير محله، كان سبباً في تفشِّي الإهمال واقتراف الأخطاء والحماقات، بل في ارتكاب الجرائم الفردية والجماعية وشيوع التعدي على النفس والكرامة والمال.

إن حماية النفس البشرية وصون الكرامة الإنسانية لفي مقدمة الأمور التي ينبغي مراعاتها والاهتمام بها، كيلا تَعمَّ الفوضى وينتشر الخوف وتُظلمَ الحياة في عيون أبنائها.

ومن هذه الضرورة، كانت الشرائع والقوانين التي تعنى بتحديد الجرائم وتعيين العقوبات الرادعة، حفاظاً على حياة البشر وأمنهم وطمأنينتهم.

جاء في القرآن الكريم: ﴿**وَسَيَعْلَمُ الَّذيْنَ ظَلَمُوا أيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُون**﴾ سورة الشعراء الآية ٢٧٧، وجاء أيضاً: ﴿**وَلَكُمْ في القِصَاصِ حَياةٌ يا أُولي الأَلْبابِ**﴾ سورة البقرة الآية: ١٧٩. وقال الإمام علي بن أبي طالب: «لاَ يَكُونَنَّ المُحسِنُ وَالمُسِيءُ عِنْدَكَ عَلى حدٍ سَواء، فَفِي ذَلِكَ تَثْبيطٌ لأَهلِ الإِحْسانِ، وَتَشْجِيعٌ لأَهْلِ الإساءَةِ عَلى الإِساءَةِ».

وفي وطننا العربي، بل في موضع القلب منه، تشهد منذ خمسين عاماً أو أكثر ما يفعله الصهاينة في فلسطين العربية التي اقتحموها في غفلة من العرب وبحماية أصحاب السطوة والبغي: يغتصبون الأرض ويقترفون القتل وَيدمرون القرى والمنازل ويشردون السكان ويرهبون الأطفال والشيوخ ويجترئون على المقدسات، ويقتلعون الزروع ويقطعون الأشجار وينشرون الخوف والجوع، ويتنكرون لحقوق الإنسان.

في مثل هذه الحال يكون التسامح تفريطاً بالحق وتكون المسالمة استسلاماً للقوة الغاشمة، والتغاضي ضعفاً واستكانة والتساهل إغراءً للمعتدي بالمزيد من الاعتداء، بل يكون من واجب المستضعفين المعتدى عليهم أن يقاوموا العدوان، في كل وقت، وبكل وسيلة.

جاء في القرآن دعوة إلى الدفاع عن النفس ضد المعتدين: ﴿**فإنْ قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ**﴾ سورة البقرة الآية: ١٩١. وجاء: ﴿**انْفُرُوا خِفافاً وَثِقالاً وجاهِدوا بِأمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُم**﴾ سورة التوبة الآية: ٤١.

وإلى جانب إيضاح مفهوم التسامح، نجد أنفسنا مدعوين لإبراز صيغ وصور للتسامح، يمكن أن توضع بصورة خطط تربوية لبيان طرائق تنفيذها.

١ - التسامح ضمن الأسرة: بين الزوج وزوجته، وبين الأبناء وبين الأهل والأولاد، وبين الأقرباء والأنسباء والأصدقاء.

إن الفرد يعيش في جماعة مؤلفة من عدة أفراد، لكلٍّ منهم مشاعره وأفكاره وحاجاته وطموحاته، ولذا لا بد أن يخطئ أحدهم نحو الآخر. ومن شأن التسامح أن يزيل من النفس ما يعلق بها من انزعاج وقلق ويخرجها من الضيق، ويعيد الصلات بين الأقربين النقاء والصفاء.

٢ - التسامح في نطاق الجماعة: إن الفرد لا يعيش وحده بل ضمن جماعة تجمعه بهم فالإنسان لا يحب الانفراد والوحدة كما قال الشاعر:

وَلَوْ أَنِّي حُبِيتُ الخُلْدَ فَرْداً   لَما أَحْبَبْتُ فِي الخُلْدِ انْفِرَادا

والإنسان في طبعه خطَّاء، فإذا قُوبِل الخطأ بالعتاب امتلأت القلوب مرارة، والخطأ يولِّد الخطأ ويفاقم الخلاف بين الناس، قال الشاعر:

إذا كُنْتَ فِي كُلِّ الأُمورِ معَاتِبــاً   صَدِيقَكَ لَمْ تَلْقَ الذَّي لا تُعاتِبُهْ

فَعِشْ واحِداً أوْ صِلْ أَخاكَ فَإنَّهُ   مُقَارِفُ ذَنبٍ مَرَّةً وَمُجانِبُــهْ

٣ - التسامح على صعيد الوطن والعالم: إنَّ ما يصح بين الأخ وأخيه يصح بين المواطن والمواطن، والإنسان والإنسان، إنَّ العفو والغفران يجمع ولا يشتت ويخمد الضغينة في النفوس، والإنسان أخ للإنسان وإن اختلفا عقيدةً وجنساً ولغةً وموطناً...

ونعود إلى القول إنّ التسامح مشروط بألا يُبطلَ حقاً أو ينقص عدلاً وألا يُبْذَل إلا لمن يستحقه ممن لا يضمر شراً ولا يبغي سوءاً، ولا يحدث أذىً ولا يثير فتنة. وأما من أفسدوا في الأرض واعتدوا على الناس فلا تسامح معهم لأن ذلك يزيدهم سوءاً فيمعنون في الاذيّةِ والعدوان.

٨ - دور التربية:

إننا نعيش في هذه الحقبة من الزمن، في مرحلة قلقة حرجة، مفتوحة على أحسن الاحتمالات وأسوئها. والسؤال الكبير: هل في طاقتنا أو في مقدورنا أن نتجدد ثقافياً لنحلِّق في الركب الحضاري الصاعد والمتسارع دون أن نفقد توازننا أو نخرج من جلدنا الذي اتخذناه كساءً ووقاءً عبر قرون طويلة، أم أننا سنظل في حيرة تشبه فقد الوعي، فنترك عقولنا تُخْتَرق كما تُخْتَرق أرضنا، وتمضي بنا العاصفة إلى مفازة ضياع وتِيْهٍ؟ وما السبيل إلى التجدد وما الأداة للعلاج؟

إنني أجزم بكل تأكيد أنّ التربية، إنما هي دون سواها: السبيل والأداة والعلاج. ولكن أية تربية؟

هل التربية هي أن نجمع الأطفال واليافعين والشباب في روضات ومدارس ومعاهد وجامعات، نلقنهم أقوالاً وأمثالاً وأشعاراً وقصصاً قديمة وجديدة، ونرصفها في ذاكرتهم كما هي مرصوفة على صفحات الكتب والمجلدات ثم نختبرهم لنعرف ما علق منها في أذهانهم وما لم يعلق!؟ أم التربية هي أن نتوجه إلى عقول الناشئة فنضيئها بمآثر الماضي ونبصرها بمشكلات الحاضر ونُعدَّها لبناء المستقبل، فتكون التربية، في هذه الحال بناءً للشخصية التي تتلقى المعارف لتستوعبها، وتؤالف بين

القديم والجديد في مساق زمني لا عِوجَ فيه ولا تضادّ، ثم تكون قادرة على التفكير الأصيل والمحاكمة القويمة والإبداع الحي؟

إنّ التربية جهد منظم يجعل القدرات الطبيعية لدى الناشئ تربو أي تزيد ومهمة المربين أن يعنوا بتلك القدرات، كما يعنى الزراع بأشجاره كيما تزهر وتعطي ثمارها.

ليس دور التربية الحفاظ على المجتمع فحسب، بل العمل على تغييره نحو الأفضل، وذلك بإعادة بناء الإنسان وتنمية ملكاته وقدراته، وتقريبه من الكمال.

إنَّ التربية، من جانب آخر، علم يحول الأفكار والتصورات والتوجهات إلى برامج ومشروعات وتطبيقات ينهض بها رجال التربية الذين يقع على عاتقهم إنجاز الهدف الكبير وهو نقل أمتنا العربية إلى عصر جديد تكون فيه فاعلة لا منفعلة، بانية لا متلقية، ومبدعة مجدِّدة لا تابعة ولا مُقلِّدة.

ومن المؤكد أنَّ هذه المهمة ليست قاصرة على رجال التربية، من يرسم منهم البرامج والمشروعات ومن يطبقها، بل هي مهمة كل مواطن عربي، مهمة جميع الآباء والأمهات، ومهمة كل قائم على العمل العلمي والثقافي والإعلامي، لأن ساحة التربية قد تعددت، وأساليبها قد تنوعت.

وإذا كان هذا الهدف: النهوض القومي الشامل بفعل التربية البصيرة الواعية، والحفاظ على القيم العربية الأصيلة بتجذيرها

في تربة الحاضر وتجديدها في ضوء المستقبل المرجو ضرورةً ملحّة في كل وقت، فإنه في الوقت الحاضر أكثر إلحاحاً من أي وقت مضى.

إنّ العولمة تزحف بلا هوادة مهددة باقتلاع الثقافات الوطنية والقومية التي تشكل طيفاً رائعاً متعدد الألوان، وإشاعة النمط الواحد واللون الواحد والذوق الواحد واللسان الواحد، خدمة لأغراضها التجارية والتسويقية، ولذا فإننا مدعوون للتعاون معها معتمدين على أصالة تراثنا وغناه وقابليته للتطور من جهة وقدرتنا على مقاومة الطغيان ورد العدوان في الساحات جميعها: الاقتصادية والاجتماعية والفكرية.

إننا مع عالم تسوده العدالة والمساواة وروح التآخي الإنساني، ويؤمن بحرية الإنسان وكرامته، مع عالمية لا عولمة تزدهر فيها الثقافات وتتقدم العلوم والآداب والفنون، ويتثاقف فيها الناس باختيار وطواعية، وتوفر للبشر أكبر قدر من السعادة، لكننا ضد عولمة تستغل معطيات العلم والثقافة، مثلما تستغل الإنسان، فرداً وجماعات، عولمة تقودها شركات كبرى جامحة وسلطة سياسية غاشمة، وصهيونية طامعة باغية.

إنّ التقدم العلمي والمعرفي والتقاني في العالم، ولا سيما في ميدان الاتصالات والمعلومات ليس من صنع العولمة، بل هو

من منجزات العقل الخلاق والجهد البشري الدؤوب، وحلقة من حلقات الإبداعات العلمية والتقانية خلال التاريخ، وما فعلته العولمة أنها جاءت اليوم لتستغله لتحقيق أغراضها، بل لم يتورع بعضٌ في دعاتها عن الزعم بأنه مُفرز من مفرزاتها أو نتيجة من نتائجها.

إننا مع إيجابيات الحضارة المعاصرة، نقبس منها ونتفاعل معها تمهيداً للمشاركة في حركتها، ولكننا ضد الاستعلاء والاستئثار ونرفض الاختزال والذوبان... نناضل، شأننا شأن الأمم العريقة على هذه الأرض، لبعث قيمنا العربية الأصيلة في ثوب جديد يتوافق مع العصر، ووسيلتنا هي التربية المخلصة الرشيدة لبناء مستقبل زاهٍ يكون امتداداً لماضٍ زاهر صنعه آباؤنا وأجدادنا، وانعكست آثاره على العالم بأسره خيراً نفعاً.

المراجع

١- القرآن الكريم، طباعة مكتبة فؤاد هاشم الكتبي بدمشق / سورية.
٢- كتاب المرشد إلى آيات القرآن الكريم وكلماته تأليف محمد فارس بركات، إصدار دار قتيبة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت / لبنان.
٣- الكتاب المقدس (العهد الجديد) دار المشرق –بيروت / لبنان ١٩٨٦.
٤- كتاب (استراتيجية التربية العربية) إصدار المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم تونس عام ١٩٧٩.
٥- كتاب (الخطة الشاملة للثقافة العربية) إصدار المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم تونس عام ١٩٩٦.
٦- كتاب (أوراق ثقافية) تأليف شحادة الخوري، إصدار دار الطليعة الجديدة بدمشق / سورية عام ٢٠٠١.
٧- دراسة موضوعها (من يحمي المسيحيين العرب) للأستاذ الدكتور سحاب منشور في مجلة المستقبل العربي الصادرة عن مركز دراسات الوحدة العربية العدد٣٠ آب / اغسطس ١٩٨١.
٨- دراسة موضوعها (العولمة الواقع والآفاق) للدكتور الحبيب الجنحاني وأخرى موضوعها (العولمة جذورها وفروعها وكيفية التعامل معها) للدكتور عبد الخالق عبد الله منشورتان في مجلة عالم الفكر، المجلد ٢٨ العدد الثاني أوكتوبر / ديسمبر ١٩٩٩.

العرب والحضارة المعاصرة(*)

معنى الحضارة

لعلنا ونحن نتصدى لهذا الموضوع، نتساءل عن معنى الحضارة، وإن كان من العسير وضع تعريف محدد لها ومتفق عليه، إنها بصورة عامة، جماع نشاط الإنسان الاقتصادي والاجتماعي والفكري، ومحصلة الطرائق والأساليب والوسائل التي يستخدمها، ومجمل نتاجه المادي والثقافي والفني، إنها كلٌّ متماسك متكامل الأجزاء، وإذا ما قورنت بالثقافة التي هي أسلوب الحياة ونشاط الذهن، كانت أغنى منها مضموناً وأوسع أفقاً.

وإذا تجاوزنا الحضارات البدائية التي أنشأها الإنسان في مراحل الصَّيْد والرعي وما قبلهما، فإن الحضارات ثلاث: الحضارة الزراعية وهي التي تكون الزراعة عماد النشاط البشري فيها، والحضارة الصناعية التي قوامها الصناعة التي

(*) ألقيت في مدينة كانتون بأوهايو عام ١٩٨٦ثم عدلت عام ١٩٩٠. نشرت في مجلة "بناة الأجيال" العدد١ عام ١٩٩١ ص ٧٩.

تعتمد على الآلة، والحضارة المعاصرة، ما بعد الصناعية، حضارة العلم والتقانة التي نعيش غمارها اليوم في البلدان المتقدمة والتي تغرق العالم بمنتجاتها وتشغله بمنجزاتها المتلاحقة حتى غدت الأنموذج الذي تسعى شعوب العالم قاطبة لتقليده وتجهد للتَّمثُّل به.

إنّ الحضارة تتطور وتتقدم وتتخذ صوراً مختلفة بفضل الجهد البشري المتواصل ولا سيَّما الجهد العقلي الذي يدرك به الإنسان الواقع الذي يحيط به ليحوله إلى واقع أفضل، والغاية، دوماً، هي الحفاظ على الجنس البشري والارتقاء بتحريره من الحاجة والخوف، وتمكينه من بسط سلطانه على الطبيعة، والسيطرة على ميوله وأهوائه، وجعله يحقق قدراته ومواهبه ويمضي صعداً في سلم الإنسانية. إنها ثمرة انتصار الإنسان على ذاته وانتصاره على محيطه الطبيعي، وتمكنه من الكشف والإبداع لخلق الجديد.. إنها حركة لا سكون، وفعل لا انفعال، وإضافة لما هو موجود لإيجاد ما ينبغي أن يوجد.

حضارات اليوم

وفي ضوء الأصناف الثلاثة التي ذكرناها من الحضارات، ينقسم العالم اليوم إلى مجموعتين: أولاهما: مجموعة الدول التي تعيش المرحلة الصناعية وما بعد الصناعية وهي الدول الأعظم سلطة وقدرة وتأثيراً – ويطلق عليها اسم الدول المصنعة

والمتقدمة أو البالغة النمو أو دول الشمال. نسبة إلى موقعها الجغرافي – وهي الدول الأكثر إنتاجاً والأوفر غنى في العالم. وثانيهما: مجموعة الدول التي تعيش مرحلة الزراعة مع مخلفات عهد الرعي المتميز بالبداوة والترحال، أو التي دخلت مرحلة التصنيع بحدود ضيقة ويطلق عليها اسم الدول المتخلفة أو النامية، على سبيل التفاؤل، أو دول الجنوب نسبة إلى موقعها الجغرافي، وهي دول أضعف قدرة من دول المجموعة الأولى وأقل إنتاجاً وتتفاوت فقراً وغنى بحسب ما تملك من موارد طبيعية. وإلى هذه المجموعة تنتمي الدول العربية البالغ عددها واحدة وعشرين دولة يبلغ عدد سكّانه نحواً من مائة وسبعين مليوناً يعيشون في منطقة من أهم مناطق العالم، غرب القارة الآسيوية وشمال القارة الإفريقية.

التقانة والحضارة

لقد نشأت التقانة وهي معرفة صنع الأداة والآلة من المواد الموفورة في الطبيعة، قبل نشوء العلم، فسبق العمل النظر، واليد العقل، في استنباط ما يساعد الإنسان في معركة الحياة، وقد دفعه إلى ذلك حرصه على الوجود "غريزة حب البقاء" وحرصه على حسن الوجود "غريزة حسن البقاء" في عالم معادٍ له بجماده وحيوانه.

ولّما بدأ الإنسان في ابتداع التقانة ولدت الحضارة، ثم سارت بخطوات وئيدة بوجهها المادي الحسي ووجهها المعنوي الخلقي الذي هو انعكاس منفعل وفاعل للوجه الأول.

واليوم، تكاد لفظة التقانة أن تكون أكثر الألفاظ شيوعاً واستعمالاً، بل إن لها في الأسماع أصداء بعيدة وفي النفوس تأثيراً ساحراً.

والواقع أنّ الآثار التي تخلفها التقانة تصل إلى مختلف مجالات حياتنا العملية والمعنوية: الثقافية والروحية ولعل الأقمار الصناعية والسفن الفضائية التي تجوب الأجواء – والحاسبات الإلكترونية المتطورة التي دخلت كل مكان ووسائل الاتصال والإعلام، والنجاحات المذهلة في ميدان التكنولوجيا وغيرها من الميادين، بعض الأمثلة الدالة على ذلك.

ويقف المفكرون من هذه الظاهرة مواقف متباينة. يرى بعضهم فيها نجاحاً باهراً للعقل البشري في فهم الطبيعة والسيطرة عليها واستخدامها لمصلحة الإنسان، ويرى بعض المفكرين الآخرين في هذه الظاهرة شبحاً مخيفاً يحمل للبشرية المشكلات والويلات مثل تلوث البيئة والتفجر السكاني وتفتت البُنْيَة الأسرية والاجتماعية وخطر الفناء الشامل في حرب نووية وكيميائية. والحق أنّ التقانة ليست بذاتها خيراً ولا شراً، بل هي قدرات يمكن أن تستخدم لصالح الإنسان وتحقيق السعادة له

وتقريبه من الكمال، كما يمكن أن تستخدم لإذلاله وتدمير الحياة البشرية. بيد أنها على أية حال – تشير إلى انتصار العقل البشري وتؤول إلى سيطرة الإنسان على الطبيعة والتدخل في أنظمتها السرمدية لصالحه.

لقد عاش الإنسان مئات الألوف من السنين عبداً للطبيعة تخيفه رعودها وبروقها وترعبه وحوشها وزواحفها ويضايقه حرّها وقرّها، ومنذ أمد غير بعيد، بدأ يتحرر من كابوسها ويُسَخِّر مواردها لمنفعته، مع ما يحمل ذلك من احتمالات السعادة أو الشقاء.

ومن هنا كان على رجال الفكر أن يهتموا بتطور التقانة وبآثارها على المجتمع، وأن يعنوا بالتوجيه إلى سبيل الاستفادة من إيجابياتها وتجنب سلبياتها، بما يخدم الإنسان فرداً وجماعة.

قصة التقانة

وقصة الإنسان مع التقانة قصة متعددة الفصول ونيرة الصفحات. لقد بدأت قبل حوالي نصف مليون سنة عندما اكتشف الإنسان النار واستغل هذا الاكتشاف لتحقيق أغراض شتى: طهي الطعام وصنع المعادن وإنارة الكهف والاحتماء من الحيوانات المفترسة..وهكذا كانت النار شعلة حقيقية في حياة البشر.

ومضت أحقاب متطاولة، وانحسر الجليد عن الأرض تدريجياً وبرزت التجمعات البشرية الأولى، ومارس الإنسان الصيد وأوجد الأدوات اللازمة له: النار، والإبرة المصنوعة من العظم، والفأس المنحوتة من الصوان.. وجاء العصر الحجري الجديد قبل الميلاد بنحو ثلاثة أو أربعة آلاف سنة، فحدثت فيه تحولات كبيرة هي اكتشاف الزراعة – القمح والذرة والفول والزيتون.. وتدجين الحيوان – الحصان، والثور والماعز والكلب والخروف.. وكانت الأدوات المستصنعة لهذه المرحلة وما جدّ فيها من عمل: الفأس والجاروف والمنجل، والمنشار والمِغزل والرَّحى والمحراث.. الخ.. وأهمية هذه الاكتشافات التي حدثت على ضفاف دجلة والفرات، في البدء، فيما يعتقد أنها انتقلت بالإنسان من طور الآخذ من الطبيعة (جمع الثمار وصيد الحيوان) إلى طور المنتج للغذاء والكساء وغيرها (الزراعة وتربية الحيوان).

ونشأت الحضارة الزراعية منذ الألف الثالث أو الرابع قبل الميلاد في بلاد ما بين النهرين ومصر والهند والصين، وسكن الإنسان البيوت بناها من الطين والخشب والحجر وتشكلت القرى والمدن وقامت الدول والممالك والإمبراطوريات، وحدثت الغزوات والحروب، ووضعت القواعد السلوكية والعادات والتقاليد والقوانين والأنظمة وازدهرت الآداب والفنون في ظل المعتقدات الدينية.

وكان بين النشاطات الإنسانية المختلفة تفاعل وتأثر متبادل: الحاجة تولد الاختراع والاختراع يولد حاجات جديدة، وهكذا وجدت التقانة التعدينية وعرف الإنسان النحاس والحديد والبرونز والفضة والذهب والرصاص – ووجدت العربات ذات الدواليب المعدنية والمحراث المعدني والمراكب الشراعية، وصنع الناس القرميد والزجاج والمنفاخ وورق البردي.

لم يكن ثمة علوم بالمعنى الدقيق للكلمة بل هي معارف ذات طابع عملي تطبيقي، وفي كنف هذه المعرفة شيدت الأهرامات في مصر قرب ممفيس وأقيمت الحدائق المعلقة لسميراميس في بابل ونحتت التماثيل الهائلة وشقت الطرقات ورصفت وجاب الفينيقيون الشجعان البحار وأنشؤوا المستعمرات وابتدعوا الحرف. إنَّ أول من ارتقى بالمعرفة من طابعها العملي إلى طابعها النظري هم الإغريق الذين انتقلت إليهم الحضارة من سواحل فينيقيا ووادي النيل وبلاد الرافدين، فكانت كتب إقليدس في الهندسة والحساب وكتب أبقراط وجالينوس في الطب وبطليموس في الفلك وأفلاطون وأرسطو في الفلسفة ..الخ.

الدور العربي

ولّما ظهر العرب على مسرح التاريخ في القرن السابع للميلاد واستقر لهم الحكم في الشام ومصر والعراق وفارس، أقبلوا بشغف على معارف من سبقهم، ونقلوا إلى لسانهم العربي

المبين من اللغات الأخرى: اليونانية والسريانية والفارسية والهندية ومعارف الأقدمين ولاسيما علوم اليونان وفلسفتهم.

وإذا كان للإغريق فضل نقل المعرفة من العمل إلى النظر، من اليد إلى العقل، وهذا ما سماه بعضهم المعجزة اليونانية، فقد كان للعرب فضل أعمق وأشمل تمثل فيما يلي:

١ - زاوجوا بين اليد والعقل، والتصوير والتصور – والبصر والبصيرة – وقرنوا القول بالفعل. وكان علماؤهم يفكرون ويعملون في آن واحد: الفكر يرشد إلى العمل والعمل يصوب الفكر.

٢ - اتبعوا منهجية تجريبية تقوم على الاختبار والمشاهدة والاستنتاج، فكانت التجربة محكّاً لصحة الرأي، بل كانوا يختبرون بالتجربة صحة آراء من سبقهم من العلماء فيؤيدونهم فيما تثبت التجربة صوابه ويخطئونهم فيما تبين خطؤه: "المشاهدة أقوى الدلائل" و "التجربة أكبر برهان".

٣ - اعتبروا أنَّ المعرفة واحدة لا تتجزأ لأن الطبيعة واحدة والإنسان واحد فيجمع أكثرهم بين علوم عدة، ونحن ننسب العالم العربي الموسوعي إلى الذي اشتهر به أكثر من غيره.

وهكذا سطعت أسماء علماء عرب أجلاء سطروا صفحات ناصعة في تاريخ العلم والتقانة من أمثال: جابر بن حيان في الكيمياء، والكندي في الضوء ودراسة طرق إنتاج الفولاذ

والأسلحة النارية، وابن الهيثم بالبصريات، والرازي وابن سينا في الطب، والفارابي في الموسيقى والبتاني وابن يونس في الفلك وأولاد موسى بن شاكر في علم الحيل "الميكانيك" وغيرهم كثيرون. ومن أهم اكتشافاتهم واختراعاتهم أنَّهم في ميدان الطب اخترعوا التخدير وسموه المرقد، واكتشفوا الدورة الدموية الصغرى، وأوجدوا خيوط الجراحة من أمعاء الحيوانات واكتشفوا كثيراً من الأمراض كمرض الحساسية ومرض الحصبة والأمراض النفسية والعصبية، وعنوا بطب الأطفال وطب المسافر، وطوروا الجراحة وأدواتها وعرفوا الجراحة التجميلية وخالفوا بالتجربة آراء جالينوس وغيره من أطباء الإغريق وصححوا أخطاءهم فقالوا مثلاً إنَّ الكبد يتركب من قسمين لا من خمسة أقسام وإن الفك السفلي يتألف من عظمة واحدة لا من عظمتين وإنَّ عظم العجز هو قطعة واحدة لا ست قطع، وكذلك عرفوا تركيب العين من العدسة والحدقة والشبكية .. الخ وفي علم الفلك أثبتوا كروية الأرض واكتشفوا دورانها كما اكتشفوا كثيراً من النجوم والمجرات وأطلقوا عليها أسماء عربية ما زالت معروفة بها حتى اليوم في كلِّ اللغات، وأسهموا في تطوير طرق الري واستخدام الطاقة المائية بواسطة الطاحون المائية، وطاقة الريح بواسطة الطاحون الهوائية، كما أبدعوا في صناعة الخزف والزجاج الملون والتقطير واخترعوا

المنجنيق والأبراج المتحركة، بل إنهم ابتكروا علوماً جديدة لم تكن معروفة قبلهم فحملت أسماء عربية: علم الجبر وعلم الكيمياء وعلم المثلثات.

أهمية الحضارة العربية

إنه يصعب في هذا السياق التوسع والإفاضة في الحديث عن الحضارة العربية التي كان من أسسها العلم والتقانة. فقد شغلت هذه الحضارة المؤرخين في الشرق والغرب وأشاد بمنجزاتها المنصفون منهم، وحسبي أن أشير إلى أنها حضارة عالمية قبست من الحضارات التي سبقتها المعارف والعلوم دون تحرج أو تردد، ثم أعطت الغرب بسخاء ثمرات اكتشافاتها وإبداعاتها، فلم تعرف العزلة أو الإقليمية لا عند مشرقها ولا عند مغربها، وأنها حضارة تاريخية امتدت بعيداً في الزمان والمكان إذ عرفت الازدهار نحواً من خمسة قرون بدءاً من بداية القرن الثامن للميلاد، وشملت رقعة واسعة من الأرض، من تخوم الصين إلى شواطئ الأطلنطي وبلاد الأندلس وجزر المتوسط ومن طشقند وبخارى حتى منابع النيل في أواسط أفريقيا.

وَلَعَلَّ خَيْرَ شهادة في هذا المقام التي سطرها العالم الأمريكي الكبير جورج سارتون في كتابه الشهير "تاريخ العلوم" إذ يقول: ".. لقد كان العرب أعظم معلمين في العالم وقد زادوا على

العلوم التي أخذوها ولم يكتفوا بذلك بل أوصلوها إلى درجة جديرة بالاعتبار من حيث النمو والارتقاء". ويخص سارتون كل نصف قرن من عمر الحضارة باسم عالم اشتهر فيه، ففاز العلماء العرب بنصيب وافر، وفي هذا السياق أورد أن النصف الثاني من القرن الثامن هو عصر جابر بن حيان، والنصف الأول من القرن التاسع عصر الخوارزمي والنصف الثاني منه عصر الرازي والنصف الأول من القرن العاشر عصر المسعودي، والنصف الثاني منه عصر البوزجاني، والنصف الأول من القرن الحادي عشر عصر البيروني، والنصف الثاني منه عصر الخيام، النصف الأول من القرن الثاني عشر ابن زُهْر، والنصف الثاني منه عصر ابن رشد، والنصف الأول من القرن الثالث عشر هو عصر ترجمة العلوم من اللغة العربية إلى اللغات الأجنبية.

انحسار الحضارة العربية

بيد أن فترة الازدهار الحضاري العربي ما لبثت أن انقطعت، وجنح الحال إلى الانحسار والذبول، وفقد العرب القدرة على الفعل والإبداع فانتقل مشعل الحضارة من أيديهم إلى أيدي الأوروبيين من طرق شتى: بلاد الشام التي كانت مسرح الحروب الصليبية، والأندلس وجنوب إيطاليا وصقلية وسائر نقاط التماس والتلاقي.

والحق أن اليقظة العربية لم يَخْبُ نورها فجأة فلئن أصابها الضمور في القرن الثالث عشر. فقد ظهر عملاق الفكر العربي ابن خلدون في القرن الرابع عشر كما ظهرت بعض الإنجازات بعد ذلك التاريخ أيضاً.

ويعلل ابن خلدون انحسار القوة العربية بأن: «مما حصل هو من طبيعة الأمور لأن للدول والحضارات أعماراً كالأشخاص وأن الدول تمر بثلاث مراحل تبلغ مائة وعشرين عاماً: في الجيل الأول تشتد العصبية وفي الجيل الثاني يكون التملك والترف وفي الجيل الثالث يعظم الترف ويستعان بالموالي وتذهب الدولة..»الخ.

على أية حال ليس في التاريخ افتراضات وتمنيات، بل فيه أحداث ووقائع وأسباب ومسببات.

لقد طرأت أحداث وأسباب عاقت التقدم العلمي عند العرب:

في الداخل: كان للخلافات والنزاعات القبلية والشخصية والعنصرية، التي تعرض لها المجتمع العربي، ولاسيما بعد العصر العباسي الثاني أثر في إضعاف قدرته على النماء والارتقاء.

وكذلك كان تأثيّر لانهزام التيار العقلاني الذي ظهر وانتعش أيام المأمون، الخليفة المستنير، وسيطرة الغيبية على عقول الناس وغياب تغلب روح التجديد والابتكار.

وفي الخارج: تتابعت الغزوات والحروب التي دمرت مواطن الحضارة وأصابت كبريات العواصم بأضرار فادحة كبغداد ودمشق وقرطبة، وأتلفت ثمرات الفكر الخلاق من منشآت ومؤلفات، وأكبر هذه الغزوات الحروب الصليبية أو حروب الفرنجة التي تتالت حملاتها ووقائعها مائتي عام ١٠٩٧ - ١٢٨٩م وحملة هولاكو عام ١٣٠٠م وحملة تيمورلنك عام ١٤٠٢م ثم سقوط الأندلس ١٤٩٢م فالاحتلال العثماني الطويل الأمد، بعد حكم المماليك المتخلف عام ١٥١٦م.

الفرص الضائعة

وبعد حلكة الظلام بزغت في الأفق العربي في مطلع القرن الماضي، ومضات. فقد تنبه العرب إثر حملة نابليون على مصر إلى أن العلم هو مصدر القدرة وأن أوروبا قد ملكت زمام القوة بفضل العلوم والتقانة، وقرّ في أذهانهم أن من واجبهم أن يستأنفوا ما انقطع ويعاودوا السير في طريق التقدم العلمي.

وكانت مدة الحملة ثم ما أعقبها من حكم محمد علي ١٨٠٥ - ١٨٤٩م الفرصة الأولى لنهضة عربية جادة، وبالفعل فقد فتح محمد علي مدرسة للطب البشري ومدرسة للطب البيطري ومدارس للهندسة والزراعة والصناعات والفنون والترجمة والإدارة ومدرسة للعلوم العسكرية، وأوفد البعثات العلمية

للدراسة في الغرب وبالأخص في فرنسا. وفي هذه المدارس جميعها كان التدريس يؤدّى باللغة العربية حتى إن الدروس التي كان يلقيها أساتذة فرنسيون كانت تترجم إلى العربية. ومن شأن التدريس باللغة الأم أن يجعل الدارس والباحث يستوعبان العلوم بسهولة أكثر مما لو كان تدريسها بلغة سواها، ويساعد على توطين العلم وتجذيره في أرض الوطن.

لقد قام محمد علي وابنه ابراهيم بمحاولتين جادتين لو تم لهما النجاح فيهما لتغير وجه التاريخ في المنطقة العربية. المحاولة الأولى: هي ما أشرنا إليه من عمل التحديث لركائز التقدم الحضاري في مصر ونقل العلوم والتقنيات وتأصيلها بالعربية، والعمل على إعداد القوة البشرية الفنية في المدارس التقنية التي أنشأها وعن طريق إرسال البعثات إلى الخارج وبالأخص إلى فرنسا، وثانيهما محاولتهما إقامة دولة عربية عزيزة الجانب تشمل وادي النيل وبلاد الشام والتخلص من السيطرة العثمانية الغاشمة والمتخلفة، وقد قطع محمد علي بمساعدة ابنه إبراهيم خطوات هامة في هذا السبيل.

ولكن الاستعمار البريطاني الذي هاله أن ينهض العرب وتقوم لهم دولة حديثة قادرة في مصر والشام – على طريق الهند لؤلؤة تاج الإمبراطورية البريطانية – تدخل في أوضاع مصر بكامل ثقله لإحباط المحاولتين، وانتهى تدخله باحتلال

مصر عام ١٨٨٢م، فقضى على الحلمين الكبيرين في آن واحد: حلم إقامة دولة عربية مستقلة وقوية، وحلم التقدم العلمي والنهضة الحضارية.

إن ما فشلت مصر في بلوغه بلغته اليابان في أقصى الشرق. فقد واجهت هذه الدولة التحدي الأوروبي في النصف الثاني من القرن التاسع عشر بمجهود كبير لاكتساب العلوم والتقانة وسعت للتوفيق بين تراثها الاجتماعي والخلقي وبين المفاهيم العلمية فانتقلت إلى مصاف الدول الصناعية في أمد قصير نسبياً. ولّما قاتلت روسيا القيصرية عام ١٩٠٥م انتصرت عليها فكان لذلك رنة فرح في الشرق بأسره، ثم بعد ذلك ضاعفت جهودها وحثت خطواتها حتى غدت اليوم في طليعة الدول التي تزدهر فيها التقانة إنتاجاً وارتفاقاً.

وفي الحرب العالمية الأولى سنحت للعرب فرصة ثانية إذ كانت نهايتها «مفصلاً» تاريخياً ومفترق طرق. لقد كان انهيار الإمبراطورية العثمانية للعرب فرصة نادرة للتحرر القومي وبناء دولة عربية تشمل بلاد الشام والعراق، على الأقل. وقد عمل العرب لإقامة هذه الدولة وبذلوا من أجلها دماء الشهداء وأشعلوا على الأتراك العثمانيين ثورة عارمة، وكان متوقعاً أن تسعى هذه الدولة للتخلص من التخلف الاقتصادي والثقافي وتسلك طريق الرقي الحضاري درءاً للأخطار ورداً على

التحديات، على الأقل. ولكن الاستعمار البريطاني كان بالمرصاد، فبسط سلطانه انتداباً على فلسطين والأردن والعراق، واتفق مع فرنسا لتمارس الانتداب على سورية لبنان وذلك بموجب اتفاقية سايكس – بيكو ١٩١٦م، وأعطى وعد بلفور ١٩١٧م لليهود بإقامة وطن قومي لهم في فلسطين.

إن الوضع الذي آل إليه العرب غداة الحرب العالمية الأولى هو الانتقال من حلم بناء الدولة القومية المتقدمة إلى واقع الكفاح المرير ضد الانتداب البريطاني والانتداب الفرنسي وضد الاستيطان الصهيوني واستمراراً حتى الحرب العالمية الثانية.

وفي أثناء هذه الحرب الأخيرة التي قاتل فيها الحلفاء «الفاشية والنازية» قتالاً ضارياً، ورفعت فيها حرية الأفراد والشعوب، داعب النفوس أملٌ بأن تنال الشعوب المستعمرة التي أسهت في الحرب بتقديم المساعدات الممكنة للحلفاء، الاستقلال الذي كافحت من أجله وضحت في سبيله. ولكن ما جرى في الواقع أن القوات المحتلة لم تغادر الأقطار العربية إلا بعد نضال مديد دامٍ. زد إلى ذلك أن المنطقة العربية قد أصيبت فجر استقلال بلدانها بل قبل تحرير بعض أقطارها، بقيام دولة إسرائيل وتقسيم فلسطين عام ١٩٤٧م مما استتبع بعد ذلك نشوب خمس حروب بين إسرائيل والدول العربية المجاورة لفلسطين في المدة الواقعة بين ١٩٤٧و١٩٨٢، هذه الحروب التي كلفت العرب ثمناً باهظاً

واستنفدت مواردهم الاقتصادية وقواهم البشرية. وحالت ظروف «الاستنزاف» المستمر وعدم الاستقرار دون تحقيق الهدفين الكبيرين اللذين يطمح العرب إلى تحقيقهما وهما: الوحدة القومية والرقي الحضاري ولكن محاولة إقامة دولة عربية حديثة لم ولن تتوقف على الرغم من الصعوبات والعقبات.

الدوافع والضرورات

ونتساءل عن الدوافع الكامنة وراء السعي لبلوغ الرقي الحضاري والضرورات لاقتباس العلوم والتقانة وتوطينها في الوطن العربي. وتمهيداً لذلك نشير إلى أنّ الثورة العلمية والتقانية التي هي السمة الأساسية للحضارة المعاصرة قد شطرت العالم إلى شطرين: شطر مصنع متقدم منتج معطٍ ومبتكر مبدع، وشطر آخر يمارس النشاطات الاقتصادية بطرائق وأساليب غير متطورة وهو مقلد متلقٍ مستهلك يلهث وراء الشطر الأول دون جدوى للحاق به، بل تزداد الفجوة التي تفصله عن هذا الشطر اتساعاً سنة بعد سنة حتى ليقال إن المتقدمين يزدادون تقدماً والمتخلفين يزدادون تخلفاً، الأغنياء يتضاعف غناهم والفقراء يتضاعف فقرهم.

وفي زحمة هذا السباق ينبري بعض المفكرين إلى طرح تساؤلات كثيرة عن الماهية والغائية: ما التقدم ؟ وما الهدف من التطور العلمي ؟ هل التقانة وسيلة أم غاية ؟ ما التخلف وما

مسبباته وما ظواهره ؟ هل إقامة الصناعات وامتلاك الطاقة الذرية مثلاً هو طريق السعادة البشرية وبلوغ الكمال الإنساني ؟ ثم يضيفون: أليست السيطرة على القدرات العلمية، بما فيها إمكانات صنع وتطوير السلاح النووي أدعى إلى سوء استخدامها إذ تغري أصحابها بقهر الخصم فتقع كارثة لم يسبق لها مثيل، كارثة تحمل في طياتها احتمال «الدمار أو الانتحار الشامل»!!

في الحقيقة أن هذه التساؤلات مُبَرَّرة في عالم اليوم وتتعلق بأمور جوهرية تتصل بحياة الإنسان ومصيره: فرداً وجماعة، وعلى رجال الفكر وقادة الدول أن يتمتعوا بها ويجيبوا عنها، ويبتدعوا الحلول والمقترحات التي من شأنها أن تجعل من التقدم العلمي والتطور التقاني سبيلاً إلى السعادة البشرية والكمال الإنساني.

ولكنني أشير إلى أن التقدم العلمي يعني، قبل كل شيء، فهم قوانين الطبيعة واستنباط قدرات وطاقات جديدة وإيجاد مبتكرات حديثة تلبي حاجات الإنسان المتجددة. إن هذا بحد ذاته لا يدخل في سلم «القيم» فهو ليس بذاته خيراً أو شراً، ولكن صورة تصرف البشر بهذه القدرات والطاقات والمبتكرات هو ما يؤول إلى الخير أو الشر. هكذا كان الأمر دوماً: السكين التي تقطع بها تفاحة يمكن أن تقتل إنساناً، والطائرة الجبارة التي تنقلك من قارة إلى قارة كأنها بساط الريح قد تستخدم لقذف القنابل الحارقة والمدمرة.

الحقيقة التي تعلو على الجدل والمناقشة هي أن المجتمع المتقدم يوفر لأبنائه حياة أكثر هناءة ويساعدهم على تنمية مواهبهم وصقل أذواقهم وتغذية ملكاتهم أكثر من المجتمع المتخلف، لذا فقد صار التقدم التقاني الهدف الأسمى الذي تجهد المجتمعات النامية لتحقيقه بكل السبل والوسائل المتاحة لها.

ولكن الملاحظ أن التقدم العلمي والتقاني يزداد صعوبة مع مرور الزمن بسبب الإضافات التي تطرأ كل يوم في ميدان الكشف والاختراع. ومن العسير الآن التوسع في شرح مجالات هذا الكشف والاختراع، غير أننا نذكر، وبإيجاز أشياء مهمة يشهدها العالم المتقدم الآن مثل ثورة التقانيات الدقيقة التي ستؤثر في مجموعة العلوم الطبيعية وغير الطبيعية، وهناك ثورة الإلكترونيات الدقيقة وتطبيقاتها الكثيرة ولاسيما في مجال الاتصالات والمواصلات، ثم ثورة المعلومات التي أخذت تغير المعطيات الأساسية للحياة والبنى الاجتماعية والثقافية وثورة تقانات البيولوجيا وثورة المكونات الوراثية وثورة تقانة الجيولوجيا لاكتشاف المواد التي تختزنها الأرض والمحيطات.

أما الحاسب الالكتروني، أو الحاسوب فهو بلا ريب أهم اختراعات القرن العشرين. وقد مر هذا الاختراع بمراحل عديدة حتى بلغ الجيل الخامس الذي يتميز بصغر حجمه وسرعة تقبله المعلومات وقدرته على التحليل بل على شكل من أشكال

التفكير. ثم هناك اختراع الإنسان الآلي الذي قطع أشواطاً مذهلة واسعة وكلنا نتحدث عن الأقمار الصناعية والسفن التي تجوب الفضاء الخارجي وتسعى لاستكشاف الكواكب .. الخ.

أما الآثار التي تترتب على هذا فهي كثيرة ويصعب التنبؤ بها أو الإحاطة بحجمها ولكن المؤكد أن الأعمال القائمة على الجهد العضلي ستختفي أو تتقلص، وستهبط ساعات العمل الأسبوعية ويصغر سن التقاعد وتزداد الإجازات السنوية وتزداد أوقات الفراغ ويضمحل دور الكتب والمجلات والصحف أمام وسائل الاتصال والإعلام الحديثة.

إنَّ أي شعب في العالم لا ينتصر في معركة التقدم العلمي والتقاني أو يقف متردداً فيها سيكون مقصراً، مستهلكاً ما ينتجه الآخرون، مستغل الجهد، عالة على غيره، ضعيف المناعة سياسياً وعسكرياً وثقافياً، معرضاً لأزمات البطالة والمجاعة والإفلاس والصراعات الاجتماعية، واقفاً على رصيف الزمن في استسلام، شاهداً على العصر لا فاعلاً فيه ولا مؤثراً. لقد قال أحد المفكرين العرب: «من غير الجائز أن يكون موقفنا من الثورة العلمية والتقانية» موقف المتلقي المنفعل بالأحداث تسيره الرياح إلى حيث يريد ولا يريد. ومن غير الجائز أن نظل غرباء في عصرنا وواقعنا وأن نرتضي لأنفسنا أن نقعد في زمرة القاعدين، وأن نجد أنفسنا من «عبيد» نهاية هذا القرن.

العوامل المعوقة

نستطيع أن نلمس العوامل التي تعوق تقدم العرب في مضمار العلوم والتقانة فيما يلي:

١ - العوامل الخارجية:

أ - الموروث الرهيب الذي خلقه الاحتلال العثماني للأقطار العربية.: بدأ هذا الاحتلال عام ١٥١٦م بدخول السلطان سليم دمشق واحتلاله سورية وفلسطين ثم مصر والحجاز في العالم التالي منتزعاً إياها من المماليك. وبعد ذلك تتابعت الفتوحات العثمانية حتى شملت البلدان العربية جميعها عدا المغرب وعمان، واستمر هذا الاحتلال طويلاً، مدة أربعة قرون، حتى انهيار الإمبراطورية العثمانية غداة الحرب العالمية الأولى عام ١٩١٨.

أربعمئة سنة من الاحتلال، عقب حكم مملوكي متخلف، احتلال قام على نهب الثروات وتدمير البنى الأساسية للاقتصاد الزراعي والحرفي، وإفقار الناس بالضرائب الباهظة والرشوات الفادحة فانتشر التخلف وتجذر وعم الجهل والأمية، وقامت المجاعات والفتن والدسائس ..الخ.

ب - لقد فاتت العرب ثلاث فرص كما أشرنا – كانت كل فرصة منها صالحة لتفجير طاقاتهم المبدعة وجعلهم يسلكون

طريق التقدم الحضاري. ولكن قوى أجنبية كانت ترى، وما تزال، في النهضة العربية خطراً يهدد مصالحها ويعوق سيطرتها على منابع الثروة فيها وعلى أسواقها الواسعة.

إنَّ النزاع العسكري في منطقة بلاد الشام استنزاف مريع للقوى البشرية والأموال عند العرب وصرف الجهد عن البناء الاجتماعي الإيجابي إلى الدفاع عن النفس وحماية الأرض ودفع الهيمنة الأجنبية الداخلية.

٢ - العوامل الداخلية:

أ - إنَّ التقسيمات التي فرضت على الأمة العربية بموجب الاتفاقيات والمعاهدات الدولية جعلت من الوطن العربي، لا دولة واحدة أو دولتين أو ثلاثاً، بل إحدى وعشرين دولة يمكن توزيعها في خمس مجموعات: مجموعة بلاد الشام والعراق وتضم: سورية ولبنان والعراق والأردن وفلسطين ومجموعة بلدان الخليج واليمن وتضم: السعودية والكويت وقطر والبحرين ودولة الإمارات وسلطنة عمان والجمهورية العربية اليمنية ومجموعة وادي النيل: مصر والسودان والصومال وجيبوتي – ومجموعة دول المغرب وتضم: ليبيا وتونس والجزائر والمغرب وموريتانيا.

إنَّ التجزئة السياسية هذه جعلت من الوطن العربي وحدات مشتتة فثمة واحد وعشرون مركزاً لاتخاذ القرار، وزاد هذه التجزئة عمقاً وضرراً تعدد أنظمة الحكم واختلافها.

ولئن كانت جامعة الدول العربية «بيتاً» جامعاً للعرب، ومنظمة تحمل همومهم المشتركة وتهتم بقضاياهم الرئيسية، يلتقون فيها ويتحاورون فإنها تفتقر إلى السلطة المعنوية والمادية الذاتية، بل هي تقف عند حدود ما يتفقون عليه، وهو ليس بالشيء الكثير.

وطنٌ واحد من الخليج إلى المحيط يعيش فيه الآن مئة وسبعون مليوناً من البشر، وبعد عشرين عاماً سيكون العدد ثلاثمائة مليون إنسان، تجمعهم وشائج متينة من لغة وتراث وتقاليد وشعور بالانتماء الواحد وشعور بالمصير الواحد المشترك ثم تحكمه إحدى وعشرون خطة اقتصادية واجتماعية وثقافية وتعليمية تفتقر إلى التماثل والتكامل.

ب - إنَّ البلدان العربية، شأنها شأن جميع بلدان العالم الثالث. تعاني من نزيف مستمر للكفاءات، ويغادرها عدد كبير من أبنائها القادرين على الإسهام الفعال في تنميتها العلمية. لقد قال العالم برنال بحق: «من البديهي في يومنا هذا أن المصدر الحقيقي للثروة لم يعد يكمن في الخامات أو الآلات أو قوة العمل وإنما في امتلاك قاعدة بشرية مثقفة وعلمية وتقانية».

وفي الوقت الذي تفكر فيه الدول العربية في أساليب نقل التقانة من الدول المتقدمة إليها وتعقد المؤتمرات والاجتماعات من أجل هذا الغرض في الوقت الذي تؤازر فيه المنظمات

الدولية هذا السعي وفي مقدمتها المنظمة العالمية للتربية والثقافة والعلم بباريس (اليونسكو) والمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم بتونس (الألكسو) بقصد إيجاد تقارب وتوازن بين الدول المتقدمة والدول النامية وردم الفجوة الفاصلة بينهما، تأتي الهجرة لتؤثر سلباً في قلب الموازين وإحباط الخطط الإنمائية أو الحد من نجاحها.

وحرصاً على الإيجاز في هذه النقطة، نورد بعض الأرقام فقط لتكون معبرة عن هذه المشكلة:

أ - قدر عدد من هاجر من الدول العربية إلى الولايات المتحدة وأوربة الغربية حتى عام ١٩٧٦ (٢٤٠٠٠) طبيب و(١٧٠٠٠) مهندس و(٧٥٠٠) عالم طبيعيات، وهم يشكلون النسب التالية ٥٠% و٢٣% و١٥% على التوالي من الكفاءات العربية المتوافرة في هذه العلوم، علماً بأن هذه الأرقام لا تشمل أعداد العلماء والمهندسين الذين استقروا في الولايات المتحدة بعد تخرجهم.

ب - في عامي ١٩٦٦و ١٩٦٧ فقط هاجر إلى الولايات المتحدة وحدها من المهندسين والأطباء وعلماء الطبيعة والاجتماع: (١٦٨) من لبنان و(١٣٣) من مصر و(٩٨) من العراق و(٧٨) من سورية.. ومن عام ١٩٦٦ – ١٩٧٧ هاجرت الأعداد التالية (٦٢٣) من لبنان و(٣٣١٠) من مصر و(٦١٥) من العراق و(٣٨٠) من سورية و(٣٢٣) من الأردن

و(٢٦٥) من فلسطين و(٩٠) من المغرب و(٤٨) من الجزائر و(٤٥) من السودان و(٤٣) من تونس...الخ.

وتتدرج الهجرة، بحسب الاختصاصات، كالتالي: الأطباء فالمهندسون فعلماء الطبيعة والاجتماع، إلى جانب هجرة الكفاءات الأخرى في ميادين الصناعة والتجارة والخدمات المتنوعة.

هذا ولا يتسع المجال للتوسع في موضوع الهجرة وشرح عوامل الدفع وعوامل الجذب، ولكنني أقول: إن البلدان العربية لا تقدم للبلدان المصنعة الخامات اللازمة للصناعة وفي مقدمتها النفط، والأسواق الواسعة لتصريف منتجاتها بالأسعار التي يفرضها المنتج فحسب بل هي تقدم لها أيضاً ثروتها الفكرية «العقول المبدعة» و«الكفاءات الخلاقة» لتصب قدراتها لا في تنمية ذاتها بل في تنمية البلدان المتقدمة ودعم تقدمها المتسارع.

ج- ومن العوامل المعوقة، موقف العرب من الحضارة الحديثة التي يطلق عليها اسم الحضارة الغربية، إذ ليس ثمة إجماع في الوطن العربي حول هذا الموضوع. يرى فريق أن الأخذ بهذه الحضارة، جملة وتفصيلاً والانقطاع عن القديم الموروث، هو السبيل إلى الخلاص لأنه حل لجميع مشكلاتنا الاقتصادية والاجتماعية والثقافية بل السياسية. إذ تضع في أيدينا عناصر القوة المادية والمعنوية في عالم يعيش فيه الأقوياء

ويتهاوى الضعفاء، ويرى أن تمسكنا بالماضي عبث بل عودة إلى ظلمات القرون الوسطى.

ويرى فريق آخر أن الأخذ بالحضارة الغربية الحديثة تقليد مقيت وعمل منافٍ لتقاليدنا الموروثة، وتنكر لما قال به السلف، شرّها أكثر من خيرها، وأن الخلاص إنما يكمن في العودة إلى مناهج السلف وتقاليده وعاداته وصور سلوكه جملة.

ويحاول فريق ثالث أن يوفق بين القديم والجديد، والأصالة المعاصرة والتراث والمستحدث فيدعو إلى الأخذ بأسباب الحضارة الحديثة دون التنكر للقيم والعادات المتوارثة.

والواقع أنّ الحضارة هي جملة من الطرائق والأساليب والمستحدثات والمبتكرات ومن صور السلوك والتفكير، وهي نسيج متماسك يصنعه البشر في حقبة الزمن، وضمن شروط وظروف محددة، فتنشأ ثم تنمو وتزدهر ثم تعمل عوامل الضعف والانحطاط فيها حتى تضمحل وتنهار وتترك الساحة لحضارة جديدة فتية.

القضية إذن ليست قضية خير أو شر، فضيلة أو رذيلة، أي ليست قضية قيم بل هي قضية واقع متطور في عالم يسوده التنافس والصراع في معركة الوجود والبقاء.

لعلّ الأفضل والممكن، وحده، أن يكون الدخول العربي ساحة الحضارة العلمية الحديثة ، محكوماً بنوع مزدوج من

الاختيار:الأخذ بالعناصر الإيجابية المفيدة لنا من الحضارة العربية التي تألقت في عصر الازدهار العربي والأخذ بالعناصر الإيجابية المفيدة لنا من حضارة هذا العصر.إن صياغة عبقرية لحضارة عربية حديثة أمر بالغ الأهمية ولم تتضح صورتها بعد.

الحلول المقترحة

بعد هذا العرض السريع، يمكن أن نتلمس بعض الحلول أو المبادئ لحلول ممكنة. إن المجتمع العربي يتعرض لتغيرات كبيرة في بنيته وعلاقاته كما إنّه قطع خطوات واسعة على صعيد العلم والتقنيات ولاسيما في مجال إعداد القوى البشرية في السنوات الأربعين التي انقضت على انتهاء الحرب العالمية الثانية. ولكن هذا التطور الذي يكاد أن يكون قطرياً وعفوياً ينبغي أن يكون قومياً ومدروساً ومستنداً إلى تخطيط متوازن وموضوعي ومنبثق عن نظرة عقلانية إلى الشؤون كلّها الاقتصادية والاجتماعية والثقافية.

إنّ التخطيط للتنمية العلمية والتقانية التي تعني الدخول في رحاب الحضارة الحديثة يجب أن يتم في الوطن العربي اعتماداً على مبادئ أساسية أهمها:

١ - أن تكون خطة التنمية العلمية والتقانية في كل قطر عربي جزءاً لا يتجزأ من خطط التنمية الاقتصادية والاجتماعية

فيه، وأن تكون خطط التنمية الاقتصادية والاجتماعية في الأقطار العربية جميعها مندرجة ضمن «إستراتيجية اقتصادية اجتماعية عربية» تعتمدها مؤتمرات القمة العربية وتشرف على تنفيذها الأمانة العامة لجامعة الدول العربية.

لقد سبق لمؤتمر القمة الذي عقد في عمان عام ١٩٧٧ أن أقر إستراتيجية اقتصادية عربية. وضعت على أساس دراسات معمقة قامت بها جامعة الدول العربية وأجهزتها المتخصصة. ولكن تنفيذ هذه الإستراتيجية من قبل الدول الأعضاء في الجامعة لم يكن مرضياً، فاكتفي منذئذ بتنفيذ مشروعات عربية مشتركة في البلدان العربية.

٢ - أن يكون في الحساب والاعتبار عند وضع الخطط الاقتصادية والاجتماعية أن الوطن العربي ساحة عمل واحدة تحكمه الوحدة الاقتصادية، والإلحاح على التكامل الاقتصادي بمعنى أن يتفادى التكرار والازدواج والتنافس ويختص كل قطر عربي بنشاطات اقتصادية تتفق مع طبيعته الجغرافية والمناخية وثرواته الطبيعية وحاجات سكانه بل وتقاليده الزراعية والصناعية والتجارية.

٣ - أن يتم تنفيذ المشروعات التي تتضمنها الخطط الاقتصادية والاجتماعية بأيد عربية وألا يستعان بالخبرة الأجنبية

إلا في حال الضرورة. وبهذا تضمن الاستفادة من الكفاءات المتوافرة واستعانة كل قطر بكفاءات أبناء الأقطار العربية الأخرى، على أن يشمل هذا المبدأ التعاون في ميدان القوى البشرية جميع المستويات من كبار المتخصصين حتى الأيدي العاملة الماهرة.

أما التمويل، وهو عنصر أساسي فينبغي أن يكون تمويلاً عربياً، تغذيه الواردات العربية وفي طليعتها الأموال النفطية، وتتولاه مصارف عربية متخصصة.

إن مشروعات اقتصادية عديدة قد بدئ تنفيذها بتمويل عربي مشترك. ولكن التطور المقصود يتطلب مضاعفة الجهد لتحقيق الكفاية في تأمين الأساسيات لأبناء البلاد العربية وهي: الغذاء والكساء والدواء والسكن والتعلم والتنقل، ثم إرساء بنية تحتية متينة في كل قطر عربي تتيح له السير في طريق التقدم والرقي.

٤ - أن توضع خطة لمواجهة هجرة العقول والأيدي العاملة تستهدف تحقيق هدفين: استعادة الكفاءات المهاجرة بإصدار التشريعات التي تضمن للعائدين الإقامة المريحة في البلد الموطن وتؤمن لهم العمل وفق تخصصاتهم، بشروط مقبولة، والحيلولة دون هجرة كفاءات جديدة وسد السبل التي تؤدي إليها: إحداث دراسات عليا تخصصية في الجامعات، رعاية الخريجين واستيعابهم ضمن خطط التنمية الاقتصادية والاجتماعية، تأمين

الظروف والوسائل التي تتيح لأصحاب الكفاءات ممارسة أعمالهم في شروط معنوية ومادية ملائمة مع مكافأة المنتجين والمبدعين بكل السبل والأشكال.

٥ - إعادة النظر في الدراسات التي تتناول التراث الحضاري العلمي والأدبي للكشف عن الجوانب الإيجابية فيه لا لاستحضاره من جديد والوقوف عنده أو تقديسه بل لجعله حافزاً للهمم ومثيراً للعزائم. إن القيم الخلقية والروحية والنفائس الأدبية والفنية والإنجازات العلمية والتقنية التي زخرت بها حضارتنا العربية في إبان ازدهارها يمكن أن تشكل رصيداً معنوياً بالغ الأهمية بيد أنه ليجدر أن تكون دافعاً قوياً لنا إلى الآخذ بأسباب التقدم العلمي والتقاني وبالجوانب الإيجابية من الحضارة الحديثة المعاصرة.

إن التفكير العلمي والنظرة العقلانية والتقدير الموضوعي للأمور والأحداث هي التي تشكل المدخل الطبيعي إلى التقدم الحقيقي.

٦ - الاهتمام بالبحوث العلمية والتقنية في الوطن العربي بإيجاد مراكز وطنية ومراكز قطاعية لها داخل الجامعات وخارجها، وإنشاء مركز قومي للتنسيق بين المراكز الوطنية ومساعدتها على تحقيق أهدافها. وتتحمل هذه المراكز مسؤولية تنفيذ أغراض الإستراتيجية العربية الاقتصادية والاجتماعية وخطط التنمية الاقتصادية والاجتماعية في كل قطر عربي في مجال العلوم والتقانة.

وينبغي أن تدعم هذه المؤسسات العلمية بمراكز للإعلام العلمي والتقني وإيجاد شبكة معلومات وتغذيته باستمرار ووصلها بمراكز الإعلام العلمي والتقني بالخارج.

٧ - زيادة العناية بالقوى البشرية وإعدادها على المستويات كلّها بإعادة النظر في برامج التعليم الابتدائي والمتوسط والثانوي والعالي في محورين: محور التلاؤم مع البيئة المحلية ومتطلباتها، ومحور الاستفادة من التجارب العالمية مع إدخال الطرائق الحديثة والوسائل المعينة والآلية في العملية التربوية وكذلك ينبغي الانتباه إلى أن التعليم بكل مستوياته وتخصصاته يجب أن يؤدى باللغة العربية إلى جانب العناية بتعليم إحدى اللغات الأجنبية في المدارس والكليات للدارسين لأن التعليم باللغة الأم أضمن لاستيعاب المعلومات واسترجاعها ويفتح الطريق إلى الإبداع.

٨ - وضع خطة محكمة للتعاون مع البلدان الأجنبية والهيئات الدولية، تستهدف درء الاستغلال وصيانة الخامات المحلية والمنتجات الوطنية وتدعيم الصناعات وتحديثها والعناية بحسن التشغيل والصيانة مع التوفير في مصادر الطاقة. إن المنفعة المتبادلة والشروط العادلة يجب أن تكون قاعدة التعاون مع الغير، على أن تعطى الأولوية للتعاون بين الأقطار العربية فيما بينها ثم بين كل منها وبين بلدان العالم الثالث أي الأقطار النامية.

لقد علمنا التاريخ أن الحركية هي قانون الحياة وأن لا سكون ولا جمود، غير أن شروطاً معينة يجب توافرها كيما تحصل الولادة: يولد الجديد من القديم، وتنبثق الفتوة من الشيخوخة بصيغة جديدة، وإن حملت معها إرثها الذي يكوِّن الهوية ويحفظ للأمة ذاتيتها على مر الزمن.

إنَّ فجراً جديداً ينتظر الأمة العربية إذا تغلبت على معوقات التقدم والرقي، كيما تعود ثانية إلى مسرح التاريخ، تبني بقدرة وتعطي بسخاء.

المراجع

١ - كتاب التغير الحضاري وتنمية المجتمع تأليف الدكتور. محيي الدين صابر - منشورات المكتبة العصرية صيدا - بيروت ١٩٨٦.

٢ - كتاب من قضايا التنمية في المجتمع العربي تأليف الدكتور محيي الدين صابر - منشورات المكتبة العصرية صيدا - بيروت ١٩٨٧.

٣ - كتاب العرب أمام تحديات التكنولوجيا تأليف الدكتور انطونيوس كرم منشورات المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب بالكويت ١٩٨٢.

٤ - كتاب العرب في أمريكا دراسة لتاريخ الهجرة العربية إلى الولايات المتحدة الأمريكية تأليف الدكتور جمال زكريا قاسم منشورات معهد البحوث والدراسات العربية التابع لجامعة الدول العربية ١٩٨٨.

٥ - دراسة بعنوان النهضة العلمية في الديار العربية والإسلامية للأستاذ الدكتور عبد السلام العلامة الباكستاني – ترجمة الدكتور أمين عبد الله محمود ١٩٨٠.

٦ - دراسة بعنوان فضل العرب على الإنسانية في الميادين العلمية للدكتور عزة مريدن عميد كلية الطب بجامعة دمشق سابقاً ١٩٦١.

العرب والعلم(*)

إن الإنسان بفطرته يتوق إلى معرفة ما حوله وما يتصل به من كائنات وظواهر طبيعية، ويرغب في ارتياد المجهول، ويتشوق إلى امتلاك أسرار الكون والحياة... ومن هنا كان سعيه الدائب وراء العلم وحرصه على كسب المزيد منه.

وإنه لحقٌّ كذلك أن طلب العلم ليس إرضاءً لتوق أو تلبية لرغبة واستجابة لتشوّق فحسب، بل هو يعبر عن حاجة إنسانية تتصل بوجود الإنسان وبقائه، ذلك أنّ كل قدر من العلم يمنح الإنسان قدراً من القدرة: القدرة على مواجهة الطبيعة وظواهرها وأحداثها من حوله، والتعامل معها تعاملاً مجدياً، درءاً لغوائلها ودفعاً لكوارثها من جهة، واستدراراً لخيراتها وجلباً لمنافعها من جهة ثانية، بل لعله أمضى الأسلحة لحماية الذات من الخطر والفناء والتماس القوة والمنعة في معركة الوجود والبقاء.

(*) نشرت في مجلة "بناة الأجيال" الصادرة بتاريخ ١٩٩٧/١/٢١. وكتاب مهارات اللغة العربية لغير المختصين.

وإذا كان الأمر كذلك بالنسبة لبني الإنسان عامة، فإن حافزاً آخر حمل العرب على أن يجدُّوا في طلب المعرفة والعلم، ذلك أنهم بعد الدعوة الإسلامية وخروجهم من مواطنهم في الجزيرة العربية للفتح والتوسع ونشر الدعوة، في القرن السابع للميلاد، قد وجدوا أن ثمة أمماً وأقواماً عديدة، في مقدمتهم الروم والفرس، قد سبقتهم في ميادين المعرفة والعلم، فاستقر في أذهانهم أن سلطانهم لا يتوطد ويقوى وأن قدرتهم لا تثبت وتتدعم إلا إذا أقاموها على المعرفة والعلم وجعلا منهما حجر الزاوية في بنيان دولتهم.

لقد شهدت العصور القديمة فتوحات كثيرة، قبل الفتح العربي في القرن الأول للهجرة، وبعده، فكان الفاتحون يدمرون حضارات البلاد التي يدخلونها، ويبيدون معالم ثقافتها، ولكن العرب لم يدمروا حضارة ولا أبادوا ثقافة، بل حفظوا كل خيِّر ومفيد في حضارات من سبقتهم واقتبسوا من ثقافاتهم. وسرعان ما تحول ما اقتبسوه جزءاً من ثقافتهم العربية الأصلية النامية، وصار بعداً من أبعادها، ثم ما لبثوا أن أغنوا الثقافة الإنسانية بما اكتشفوا وأبدعوا، وصبغوا المعرفة البشرية بلون عبقريتهم الفذة.

وإجمال ما حصل أن اتصال العرب بعد قيام الدولة العربية، عصر الخلفاء الراشدين والأمويين ومطلع عهد العباسيين، بالحضارات التي كانت قائمة آنذاك في بلاد الرافدين والشام

وفارس ومصر، وقد حملهم على اقتباس ما كان لدى الأمم الأخرى من علوم ومعارف مختلفة كالفلسفة والرياضيات والفلك والكيمياء، وعلى الأخص علم الطب الذي يمثل حاجة أساسية من حاجات الإنسان لاتصاله بصحته وقوّته ووجوده، ويشكل دريئة تقيه المرض والوجع والموت. ولكن العرب لم يقفوا عند حد الاقتباس الذي تم بطريق الترجمة التي نشطت أيما نشاط إذ ذاك، بل سرعان ما تمثلوا ما ترجموه وانتقلوا إلى مرحلة الوضع والابتكار.

وقبل التطرق إلى ما أضافه العرب إلى العلوم المختلفة، يهمنا أن نجيب عن سؤال طالما تردد على ألسنة بعض المستشرقين الذين دأبوا على التحامل على العرب والانتقاص من دورهم في إغناء المعرفة البشرية: ما المقصود بالعلم العربي؟.

إن العلم العربي هو ما كتبت مادته باللغة العربية، وأسهم في صنعه وتقدمه، أفراد أفذاذ من أقوام مختلفة عاشت معاً في ظل السلطة العربية الإسلامية، من عرب مسلمين ونصارى، وأعاجم من أصول فارسية وتركية وغيرها، ولكنهم جميعاً ارتبطوا بهدف واحد ومصير واحد، واتخذوا اللغة العربية أداةً للتفكير والتعبير، وشيّدوا يداً بيدٍ حضارة سامقة انعقدت لها القيادة والريادة ردحاً طويلاً من الزمن. إن هذا العلم العربي الذي كان

نتاج المجتمع الذي تشكل فيه ألّف جانباً مهماً من ثقافة جديدة تشكلت من التقاء ثقافات عديدة وامتزاجها.

لقد كان السعي وراء الحقيقة عند هؤلاء من أعمال العقيدة، إذ أدرك أهل العلم آنذاك أن للعقل قدرة يمكن استخدامها في فهم الواقع واستكناه المجهول، فصار العلم، في تلك الحقبة، بمثابة مشروع جماعي يسهم فيه كل قادر عليه ويحظى بتأييد أولياء الأمور وعونهم.

ومما هو جدير بالتنويه أن العرب عندما قبسوا المعارف ممن سبقهم قد اعترفوا بفضل هؤلاء وأثنوا عليهم وقدَّروا إبداع المبدعين وجدّ المجدين. ولكنهم من جانب آخر لم يأخذوا تلك المعارف على أنها حقائق ومسلمات، بل نظروا إليها نظرة نقدية متفحصة، ولم يتلكؤوا عن تصحيح ما اقتنعوا بضرورة تصحيحه معتمدين في ذلك على المنطق السليم والحس والمشاهدة والتجربة، وهذه هي وسائل العلماء أو بعض وسائلهم في إدراك الصواب وبلوغ الحقيقة.

يقول البغدادي: «... والحسُّ أقوى دليلاً من السَّمع... وأن جالينوس، وإن كان في الدرجة العليا من التحري والتحفظ فيما يباشره ويحكيه إلا أن الحس أصدق منه» وقال أبو الريحان البيروني: «وإنما فعلت ما هو واجب على كل إنسان وأن يعمله في صناعته من تقبُّل واجتهاد من تقدَّمه بالمنة وتصحيح خلل إن

عثر عليه بلا حشمة...» ويقول عالم النبات ابن البيطار عن العلماء العرب: «فما ثبت لديهم بالخبرة لا الخبر وصح عندهم بالمشاهدة والنظر ادخروه كنزاً سريًّاً، وما كان مخالفاً في القوى والكيفية والمشاهدة الحسية في المنفعة والماهية للصواب والتحقيق نبذوه ظهرياً وهجروه ملياً وقالوا لناقله أو قائله لقد جئت أمراً فرياً...».

ونستطيع من استقراء ما خلفه هؤلاء العلماء الأجلاء من آراء سديدة وأقوال حميدة أن نلتمس المبادئ الفكرية والخلقية والعلمية التي اعتمدوها:

١ - لقد رأوا أن العقل نعمة منحت للإنسان، وأنه أداة التمييز بين الحق والباطل والصواب والخطأ، فقد قال أبو بكر الرازي: «إن الله أعطانا العقل وحبانا به لننال ونبلغ به من المنافع العاجلة والآجلة غاية ما في جوهر مثلنا نيله وبلوغه».

٢ - شغل هؤلاء العلماء بالعلم دون سواه، وصرفوا ببياض نهاراتهم وسواد لياليهم في تحصيله، وعنوا به دون غيره، وزهد بعضهم في الدنيا ومشوّقاتها وبالمال ومغرياته لأن متعة المعرفة أغنته عن متع الأرض. وكثيراً ما بُذل لبعض منهم مال فردّوه، وعرض عليهم منصب فانصرفوا عنه.

٣ - واعتبروا أن العلم هو ثمرة الجهد والمثابرة والعمل وليس بأقوال تحكى وشواهد تروى. إنه لا يتحصل إلا بالمعاناة والصبر وجهد الفكر والجسد، يقول ابن حيان: «وكن صبوراً ومثابراً وصامتاً ومتحفظاً» ودعا ابن الهيثم إلى التريث والتحري والنقد حتى يتحقق الحق.

٤ - وقد اختبروا الحقيقة بالتجربة التي اعتمدوها فيها حواسهم وما تيسر لهم من وسائل، ولم يستسلموا لما قيل أياً كان القائل. وكم هو معبر قول البيروني: «وليس الخبر كالعيان» وقول الكاشي: «واختصرت الطرق اختصاراً متهدياً بنور الخاطر لا مقتدياً بسطور الدفاتر».

وإنه من الصعب في هذه العجالة تعداد ما أضافه العرب إلى كل علم من العلوم، فذلك يقتضي بحوثاً مستفيضة من أهل الاختصاص، بيد أنه من الثابت أنهم قد أبدعوا في كل وجوه المعرفة وميادين العلم: الحساب والرياضيات والجبر وعلم المثلثات والفلك والفيزياء وعلم البصريات والكيمياء والطب وعلم النبات... وحسبنا أن نعرف أنهم في الطب قد عرفوا الاختصاص فكان منهم الطبيب والجراح والكحال والخاتن والفاصد والحاقن، وكان منهم من يعالج الإنسان ومنهم من يعالج الحيوان، وقد ابتنوا المستشفيات «البيمارستانات» في الشرق والغرب وأحسنوا تنظيمها. وإننا لنذكر بعض الأسماء لتدلنا دلالة

حق على ما قدم العرب للثقافة الإنسانية في مجال العلم، فضلاً عما أبدعوه في الأدب والفن وهو كثير لا يحصى. نذكر الكندي وابن يونس والبيروني وابن الهيثم في الفيزياء والبصريات، وجابر بن حيان في الكيمياء، والخوارزمي والطوسي والكاشي في الرياضيات، وأبناء موسى في الفلك وابن سينا وابن النفيس في الطب، والفارابي وابن رشد في الفلسفة، وياقوت وأبا الفداء والإدريسي في الجغرافيا، وابن خلدون في التاريخ وعلم العمران وغيرهم كثير.

ومع بداية انحسار القوة العربية، أخذ الأوروبيون يغترفون من الثقافة العربية التي كانت قد بلغت حداً كبيراً من الازدهار. تسربت إليهم من سورية ومصر إبان الحروب الصليبية، ثم من صقيلية وجنوب إيطاليا في عهد الأغالبة، ومن الأندلس، بشكل خاص. وقد استعانوا بالترجمة لاقتباس علوم العرب فكان ما نقلوه إلى لغاتهم الأساس في نهضتهم العلمية الحديثة التي بدأت قبل بضعة قرون ولا تزال مستمرة حتى اليوم.

لقد كتب غاردوي المفكر الفرنسي الكبير يقول: «... إن الحضارة العربية الإسلامية قد أغنت الإنسانية خلال ألف من الأعوام وهيّأتها للمستقبل. فقد نقلت الحضارة العربية عبر صقيلية واسبانيا إلى أوروبا، ثقافةً كان العرب يحملون همها

وتبعاتها خلال قرون عشرة، وعن طريق الترجمة راحت هذه الثقافة تفعل فعلها. لقد ولد الغرب المعاصر من اسبانيا الفونس العاشر من صقيلية فريدريك الثاني، وهما المعجبان بالحضارة العربية الإسلامية المتحمسان لها، وتلك الحضارة التي كانت المرجع لحضارة الغرب...».

وبعد، فإننا نقول بملء الثقة إنّ هذا التراث العلمي والثقافي الذي خلفه لنا الآباء والأجداد، بقدر ما هو مدعاة للفخر والاعتزاز، فإنه مسؤولية قومية تتطلب منا أن نهتم به اهتماماً كبيراً يستحقه، ذلك أنه كنز نحرص عليه وإرث نفيس ينبغي أن يصان، وهذا يقتضي تتبعه وتوثيقه وحفظه وتحقيقه وإحياءه ونشره والإفادة منه.

واليوم، ما حيلتنا وقد وقعنا غير مختارين، في وقت سار فيه الغرب قدماً حتى صرنا ننهل من معينه ونتعلم في جامعاته وندرس في مؤلفاته ونعجب بمنجزاته في كل حقل من حقول المعرفة. إننا مطالبون، والحق يقال، بتحقيق نهضة شاملة تقوم على العلم والمعرفة، ولا ضير علينا إن قبسنا وأمعنا في الاقتباس، فقد سبق أن أعطينا وأمعنا في العطاء. إننا مطالبون بأن نلحق بمن سبقنا لنعيش هذا العصر، بخيره وشره، فذلك خير لنا من أن نكون شهوداً عليه أو أتباعاً لصناعه.

إننا نعيش اليوم «ثورة علمية ثقافية (تكنولوجية)» تعصف بالعالم، وحريٌّ بنا أن نشارك في بناء ثقافة هذا العصر وتطوير علومه وتقنياته. ولا يتأتى هذا بجهود مبعثرة متقطعة، بل يتم بجهد عربي متناسق ومتكامل. ومن أولويات هذه المشاركة أن نوطن العلم في ديارنا ونتعامل معه ترجمة وتعلماً واستيعاباً وإنتاجاً، مبتدئين بأن ندرسه ونُدرّسه باللغة العربية كيما يسكن أرضنا ويزهر فيها ويثمر. وبذلك نصل ماضياً باهراً بمستقبلٍ زاهر.

وسائل الإعلام الحديثة

وبرامج الطفولة(*)

المقدمة:

ناطقٌ هو الإنسانُ مثلما هو عاقلٌ. العقل يمنحه القدرة على التفكير، والنطق ويعطيه القدرة على التعبير. وبالتفكير والتعبير يسمو إلى أعلى عليين، وإلاّ فإلى درك أدنى يصير.

والإنسان في الوقت نفسه، كائن اجتماعي ينشأ ويعيش في جماعة، يكره العزلة ويرغب في الاتصال والتواصل وتبادل المعلومات مع أفراد مجتمعه وأبناء جنسه، أي يرغب في ممارسة الإعلام، أخذاً وعطاء، بحسب مقتضيات الحال.

لقد تواصل الإنسان قديماً مع أخيه الإنسان بالإشارة والصوت، ولكنه مع مرور الزمن، لم يكتفِ بهاتين الوسيلتين

(*) الملتقى العربي الأول حول الإعلام والتربية ودورهما في تعزيز القيم العربية الأصلية - فندق إيبلا الشام دمشق ١٤ - ٢٠٠٢/١٠/٢٠. نشرت في كتاب وقائع الندوة المذكورة.

لإبلاغ مراده، بل ابتكر وسائل أخرى لإيصال ما يريد إلى من لا تبلغه الإشارة ولا يصل إليه الصوت، أو لإيصال ذلك إلى الآتي بعده من أجيال.

ومن هذا المنطلق دوّن الإنسان القديم أفكاره ومشاعره وتخيلاته على الحجر والآجر وجذوع الأشجار وأوراق البردي، ونقشها صوراً وإشارات على جدران الكهوف والمدافن، وعلى سقوف الهياكل وعمدانها، حتى ابتدع الحرف على الساحل الشامي، فكانت بداية الحضارة.

وتمر الأيام ويهتدي الإنسان إلى صنع الورق من القماش أو القطن أو الخشب أو القش. وعمل الناسخون بنسخ الكتب والوراقون ببيعها وإشاعتها زمناً طويلاً. وكان للعرب باع طويل في ذلك، ومخطوطاتهم في مكتبات العالم ومتاحفه شاهدة على ما قدَّموا من روائع.

وفي منتصف القرن الخامس عشر أحدث غوتنبرغ ثورة في المعرفة باختراعه المطبعة، إذ صارت الكتب أسرع ظهوراً وأرخص ثمناً وأوفر عدداً وأكثر قرَّاء. وما فتئت هذه الآلة تزداد قدرة منذ ذلك الحين حتى اليوم حتى بلغت ما بلغت.

لقد كان الكتاب وما زال حافظ المعرفة البشرية وناقلها من بلد إلى آخر ومن زمن إلى زمن، وهو المؤدب والصامت، والشجرة المعطاء، والرفيق الودود.

وفي العصور الحديثة، ازدادت قدرة الإنسان على فهم أسرار الطبيعة وخفايا الكون، فتتالت الكشوف والاختراعات، حتى سميت الحقبة الأخيرة «عصر التفجر المعرفي» أو «عصر الثورة العلمية والتقانية».

لقد خطا العلم خطوات واسعة في كل مضمار ولكن إنجازاته المذهلة في النصف الثاني من القرن العشرين، كانت في مجال الإعلام والاتصالات والمعلوماتية.

أولاً: وسائل الإعلام الحديثة:

لقد تطور الإعلام في القرن الأخير وتعددت وسائله وعظم تأثيره على الأفراد والمجتمعات حتى قام علم مستقل لدراسته وافتتحت المعاهد لإعداد العاملين في ميدانه.

أ - تعريف الإعلام:

اختلف الدارسون والباحثون في تعريف الإعلام كما اختلفوا في تعريف كل من التربية والثقافة اللتين بينهما وبين الإعلام ترابط متين. فلئن كانت التربية تختص بتنمية الوظائف الجسدية والنفسية والعقلية والخلقية للناشئ، وكانت الثقافة تمثل مجموعة المعارف وطرائق التفكير والتعبير والقيم الخلقية والسلوكية وطراز الحياة والإبداعات في العلوم والآداب والفنون، فإن

الإعلام هو مجموعة علمية للتواصل بين مرسل ومتلقٍ، بوسائل متعددة.

وتحدد الخطة الشاملة للثقافة العربية التي أصدرتها المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم وظيفة الإعلام ووسائله فتقول: إن وسائل الاتصال بقدرتها الواسعة ذات وظيفة تنموية تتمثل في التربية والتثقيف والنشر الفكري وتعميق الهوية الثقافية قومياً ووطنياً ومقاومة الغزو الثقافي...

ب - وسائل الإعلام:

بالإضافة إلى الكتاب تعددت وسائل الإعلام، نتيجة التقدم العلمي والتقني والتقاني في القرن الأخير. وهذه الوسائل تشتمل على أصناف عديدة: سمعية وبصرية وسمعية بصرية:

١ - الكتاب: إنه وسيلة تثقيفية وتربوية وإعلامية في الوقت ذاته. ولئن زاحمته وسائل أخرى فإنه ما يزال يحتفظ بدوره الكبير في حفظ المعرفة وثمرات الفكر ونقلها من المؤلف إلى القارئ ومن جيل إلى جيل ومن بلد إلى آخر. وكثيراً ما يُنقل مترجماً من اللغة الأصل إلى لغة أو لغات أخرى ليتاح الاطلاع على مضمونه في بقاع واسعة من الأرض.

٢ - الوسائل الحديثة: تدرجت في ظهورها تبعاً لتطورات العلم وتطبيقاته ونذكر منها:

١ - الصحافة: تشمل الصحف اليومية والمجلات الأسبوعية أو الشهرية أو الفصلية... وتعنى بمعالجة مختلف القضايا السياسية والاجتماعية... وقد يختص بعضها بأمور محددة: كالمرأة، والطفل، والبيئة والفن...الخ.

٢ - الإذاعة: وهي جهاز سمعي من أقوى أجهزة الإعلام نبوغاً وانتشاراً. وقد تجاوزت الحدود الإقليمية لتدخل كل بيت، وترافق المقيم والمسافر والعامل في معمله والسائق في سيارته والزراع في حقله والطفل في داره... وتقدم للناس جميعاً تنويعات من الأخبار والحوارات والقصص والتمثيليات والأغاني، لا حصر لها ولا عد، بأيسر سبيل وأقل كلفة.

٣ - التلفاز: جهاز سمعي بصري يجمع الصوت إلى الصورة الحية التي تبهر النظر وتشدُّ المشاهد إلى متابعة العروض بفكره وسمعه ونظره... إنه أداة تثقيف ببرامجه السياسية والتاريخية والاقتصادية والعلمية والأدبية والفنية، وأداة إمتاع بما يُقدم من عروض عن البلدان والطبيعة والفنون.

وقد ازدادت أهمية التلفاز أكثر بازدياد القنوات الفضائية التي تنقل إلى المشاهد ما تبثه ليل نهار وبلغات مختلفة وأساليب بارعة وطرائق مشوقة.

وقد مارس التلفاز أكثر من غيره من وسائل الإعلام تأثيره على الأطفال والشباب، ولا غرو فقد نقل العالم بأسره إلى المشاهد وهو في داره.

وإلى جانب هذه الوسائل نجد وسائل إعلامية أخرى لكل منها وظيفتها التي تختص بها كالسينما والفيديو والانترنت والهاتف والفاكس والهاتف المحمول.

ثانياً: خصائص الوسائل الحديثة:

تمتاز الوسائل الإعلامية الحديثة بأمور عديدة أهمها:

أ - تعدد أنواعها:

لقد أدرجنا أسماءها فيما سلف، علماً بأننا بتنا في هذا الزمن نتوقع الجديد في كل يوم، بسبب الجهود العلمية والعملية التي تبذل لصنع الأجهزة الجديدة أو تطوير الأجهزة الموجودة لا لغايات علمية فحسب، بل لغايات تجارية.

ب - تأثيرها المباشر:

إنَّ هذه الوسائل الإعلامية تتميز بالتأثير في مستخدميها ولا سيما الأطفال، وذلك بسبب تميزها بالصورة واللون والصوت والحركة، وتقديمها البرامج بشكل مشوق وأداء متقن، مما يجعل

الطفل المستخدم لها منجذباً إليها يقضي الساعات الطوال دون استشعار تعب أو ملل، فإن غاب عنها أو غابت عنه أحسَّ بالشوق إليها وسعى للحصول عليها واستعمالها.

جـ - تأثيرها غير المباشر:

ولا يقتصر تأثير وسائل الإعلام على الأطفال وحدهم، بل هو يلحق بوالديهم وأقربائهم ومعلميهم ولِدَاتِهم، ويترك آثاره الإيجابية أو السلبية عليهم. وهؤلاء بدورهم ينقلون هذه التأثيرات إلى الأطفال ملونة ومشحونة بانعكاسها على هؤلاء المتلقين.

د - تنامي تأثيرها:

إن وسائل الإعلام الحديثة لم تكن في بداية ظهورها مثلما هي اليوم. إن كل واحدة من هذه الوسائل كالسينما والمذياع والتلفزة والحاسوب قد مرَّ بمراحل عديدة، فصار كل جيل من أجياله أكثر قدرة وأغنى عطاءً، ،وأجمل شكلاً وأبهى لوناً من الجيل الذي سبقه، وبالتالي أصبح أقوى تأثيراً على المشاهدين ولا سيما الأطفال.

وهذا التطور الذي لحق بالأجهزة لحق بالبرامج التي تعد لها وتُبثّ بواسطتها، والتي يسهر على إعدادها وتقديمها ألوف من المتخصصين في التقنية الدقيقة والتقانة العالمية، وفي فنون

البرمجة والإخراج والتصوير والتمثيل والتقديم. وهذا كله ينعكس تطوراً وازدياداً في فاعلية الوسائل وتأثيرها على المتلقين ولا سيما الأطفال والمراهقين والشبان.

لقد صار كوكبنا الأرضي بفضل هذه الوسائل قرية يتسامع فيها الناس ويتراءون، وغابت فيها الأبعاد والمسافات.

هذا ولا يظننَّ ظانٌّ أن وسيلة من وسائل الاتصال التي أتينا على ذكرها تلغي وسيلة أخرى أو تنوب عنها. إن الإذاعة والتلفزة لم يلغيا الكتاب أو الصحيفة أو المجلة، وعندما ظهر الحاسوب والأنترنت لم يلغيا الإذاعة والتلفزة.

إنَّ لكلِّ وسيلة إعلامية خصائصها وصفاتها ووظيفتها بل مذاقها، فلا تنوب عن أخرى، حتى إنَّ الكتاب هو مصدر المعلومات والإعلام التقليدي قد احتفظ بدوره وأهميته وزاد الطلب عليه بعد انتشار وسائل الإعلام الحديثة.

ولقد أثرت هذه الوسائل الإعلامية في الناس جميعاً، صغاراً وكباراً، رجالاً ونساءً، كلٌّ بمقدار بحسب قدرته على التلقي ومخزونه اللغوي والثقافي. ولكن تأثيرها على الطفل أقوى منه على البالغ والراشد والكهل والشيخ، ذلك أن لدى الطفل استعداداً فطرياً للتقبل، وعند مواجهته هذه الوسائل، قبل أن يُشغل ذهنه بتأثيرات أخرى، يكون تفاعله معها أقوى وتأثيره أشد وأرسخ.

ثالثاً: الطفولة ومراحلها:

تنقسم الطفولة على الأقل إلى مرحلتين متمايزتين هما: المرحلة الأولى والمرحلة الثانية:

أ - المرحلة الأولى:

هي المرحلة المبكرة التي تبدأ من الولادة وتمتد حتى السنة السادسة، ويمر الطفل فيها بثلاثة مواقع: المنزل ودار الحضانة وروضة الأطفال. ويسعى الطفل في هذه المرحلة، بما لديه من قابليات وقدرات جسمية ونفسية وعقلية للتآلف والتلاؤم مع محيطه الطبيعي والاجتماعي، فيتعرف طرق الوقوف والجلوس والمشي، ويكتسب النطق ببعض مفردات اللغة، ويتعلم التعاطي مع بعض الألعاب الورقية والخشبية والمعدنية، ويقلد من هم أكبر منه سناً في حركاتهم وسكناتهم ويكرر ما يسمع منهم ليحفظه ويكرر الحركة ليتقنها وفي هذه المرحلة يكتسب الطفل معلوماته عن العالم الخارجي عن طريق حواسه ولا سيما حاستي البصر والسمع وتليهما حواس اللمس والشم والذوق.

ويُلاحظُ أن الطفل في هذه المرحلة يحاول تحديد معاني الألفاظ والمقاربة بينها، والمقارنة بين الأشياء التي تصل إلى يديه، ويحاول أن يعتمد على نفسه في تحركه وتصرفه.

وفي السنة السادسة من العمر يتخذ تفكير الطفل طابعاً أكثر واقعية، فيترك التخيلات والتوهمات التي رافقته قبل ذلك، ويصبح أكثر اتزاناً في تصرفاته ويكوّنُ لنفسه موقفاً مما يجري من حوله.

ب - المرحلة الثانية:

تمتد المرحلة الثانية، المرحلة المتأخرة من الطفولة، من سن السابعة من العمر حتى الرابعة عشرة. وهذه المرحلة هي مرحلة نمو وتفتح واكتساب مهارات مختلفة علمية ولغوية. ويكون فيها لمعلم المدرسة الابتدائية ومعلمي بعض صفوف الإعدادية تأثير كبير على الطفل.

إنّ الطفل في هذه المرحلة يكون ميالاً للاتصال بالأشياء المادية لاكتشاف ماهيتها وتأثيرها فيه، ويبدأ بتصنيف الأشياء إلى فئات متجانسة أو متباعدة، وتصنيف الألفاظ اللغوية إلى أفعال وأسماء، وتتسع قدرته على استيعاب الأمور وعلى الإدراك والتذكر. وباختصار فإن الطفل في هذه المرحلة ينمو جسدياً وعقلياً وشعورياً.

رابعاً: تأثيرات وسائل الإعلام:

كان الطفل قبل ظهور وسائل الإعلام الحديثة، يتلقى التأثيرات التي تنمي قدراته وميوله وتكوِّن بذور ثقافته اللغوية

والاجتماعية وتعمل على صوغ شخصيته من مصادر مختلفة أهمها المصدر الأسري المتمثل بالوالدين والأقارب، إذ كان المنزل البوتقة التي يتشكل فيها الطفل تفكيراً وتعبيراً وسلوكاً، والمصدر المدرسي المتمثل بالمعلمين والمعلمات، والمصدر الاجتماعي المتمثل بالجيران ورفاق الحي والمدرسة.

وجاءت الوسائل الحديثة مصدراً جديداً للتنشئة والتربية والتثقيف يزاحم المصادر السابقة ويبذّها أحياناً. وكثيرة هي الدراسات التي وضعت عن هذه الوسائل وعما تحدث من آثار في الطفل، إيجابية وسلبية.

أ- **الإيجابيات:**

إنَّ الجوانب الإيجابية لهذه الوسائل عديدة. إنها تقدم الثقافة بكل موضوعاتها السياسية والاقتصادية والعلمية والأدبية، ويمكن أن تكون وسائل تعليمية تستخدم بداية من التعليم الابتدائي وانتهاء بالتعليم الجامعي، وهاهي الجامعة الافتراضية التي افتتحت في سورية مؤخراً شاهدة على ذلك.

أما بالنسبة للأطفال فإن وسائل الإعلام تقدم لهم البرامج المفيدة والتمثيليات المسلية التي تشتمل على الرقص والغناء وتحفل بالألعاب ويتخللها حوارات جذابة في برامج معدة بإتقان.

وكلنا يذكر البرنامج الشهير «افتح يا سمسم» الذي قُدم للأطفال العرب في حلقات عديدة، وبلغة عربية سليمة ومضمون تربوي ممتاز.

وهناك قنوات إذاعية وتلفزيونية عديدة في البلدان العربية تقدم برامج للأطفال بصورة منظمة يعدها اختصاصيون يختارون مادتها ولغتها بعناية إلى جانب برامج مستوردة من الخارج.

وقد أشاد بعض الدارسين والمفكرين بما تقدم الوسائل الإعلامية من فوائد ومُتع للمستمعين والمشاهدين أطفالاً وشباباً وكباراً، فكتب أحدهم: «تضطلع وسائل الإعلام بدور واسع في إيصال معطيات الفكر والحياة والمعرفة إلى الناس بلغة أكثر نفاذاً وفاعلية في تشكيل وجدان المجتمع. ولذا فقد أصبح الإعلام علماً يدرَّسُ في الجامعات».

هذا هو الوجه المضيء من الإعلام، ولكن ثمة وجهاً آخر للإعلام ليس مضيئاً البتة.

ب - السلبيات:

إنَّ التأثيرات السلبية لوسائل الإعلام كثيرة. إنها تستهلك الوقت فيما ينفع وفيما لا ينفع، وبذلك تستأثر بوقت كان ممكناً ملؤه بمطالعة كتاب أو أداء عمل نافع.

ومن سيئاتها أنها تنقل آراء مجانبةً للحقيقة وأخباراً ملفقة أو تنشر أخبار الفضائح والجرائم حتى ليتراءى للمشاهدين أن الفضيحة أو الجريمة حدث عادي وطبيعي وليست حالة شاذة أو مستنكرة. وبالنسبة للطفل فالمساوئ حاصلة في أحيان كثيرة، وما يسيء إلى الكبار تكون إساءته إلى الصغار أكبر وأشد وأبقى أثراً، ذلك أن هذه الوسائل تستخدم من قبل بعض الجهات لتعرض قيماً سيئة مضللة مثل تمجيد العنف وإظهار من يمارسه على الضعيف والبريء بطلاً شجاعاً، وتقديم برامج فيها كثير من المبالغة والتهويل، وبرامج عنصرية تجعل من الرجل الأبيض مثال الشجاعة والشهامة ومن الرجل الملون أنموذجاً للجبن والأنانية، وحسبها سوءاً أن تسمي المناضلين ضد الاحتلال والاستيطان والظلم والقهر في فلسطين العربية انتحاريين وإرهابيين. هذا وثمة برامج لا تعنى إلا بالربح فلا تقدم العلاقة بين الرجل والمرأة على أنها علاقة محبة واحترام وتعاون وتعاطف، بل تجعل من هذه العلاقة سوقاً للنخاسة والإثارة والغريزية.

أضف إلى ذلك أنَّ انجذاب الطفل إلى الجهاز ساعات طويلة تؤثر في صحته وحواسه ونموه نمواً سليماً. إن هذا كله مسيء للطفل أولاً ولكل مشاهد ثانياً. ولئن كانت أكثر هذه البرامج

مصممة ومخرجة في البلدان الأخرى ووصلتنا عن طريق الاستيراد، فإن إنتاجنا العربي لا يخلو من الخلل والسوء أحياناً. وقد علق أحد المفكرين على الأضرار المحتملة من التلفاز فقال: «إن المداومة على مشاهدة التلفاز من شأنها أن تؤثر تأثيراً سلبياً على ثقافة المشاهدين وسلوكهم، وأن تسلبهم القدرة على التفكير الصحيح. إنَّ إدراكهم للعالم يتم من خلال الشاشة الصغيرة، فهي التي تفكر لهم وتختار لهم الموضوعات التي تحظى باهتمامهم. وهذا الذي يعرضه التلفاز في أقطار الدنيا ليس منزهاً عن الغرض لأن البرامج تُصاغ وفقاً لرؤية أصحاب السلطة وأصحاب المال».

إنَّ الخطأ والصواب، والسلب والإيجاب، والضرر والنفع ليس في الوسيلة الإعلامية، بل في استخدامها لأغراض أنانية ومصالح مادية، أو في استخدامها لأغراض نبيلة ومصالح إنسانية.

أرقام وإحصائيات:

لقد تحصلت على بعض الإحصاءات الدقيقة عن تأثيرات وسائل الإعلام على الأطفال في بلد متقدم علمياً وتقنياً، مشفوعة بإرشادات بشأن تخفيف تأثيرها الضار.

وها هي بعض الأرقام:

١ - في عام ٢٠٠٣، وهو قريب جداً، ستغطى الكرة الأرضية بالشبكة العالمية للاتصال «الأنترنت» وبالهاتف المحمول، وذلك بإطلاق ثلاثة آلاف قمر صناعي جديد وفي العام ذاته سيزيد عدد مستعملي الأنترنت على خمسة ملايين شخص.

٢ - يذكر ٨٢% من الأولاد أنهم يلعبون بواسطة الفيديو والحاسوب في المنزل و ٤٢% منهم يفعلون ذلك كل يوم، و ٩٦% يستمعون إلى الراديو كل أسبوع.

٣ - يذكر العدد الأكبر من الأولاد أنهم يستخدمون الأنترنت للمراسلة واللعب والموسيقا، وتحضير الوظائف المدرسية، بيد أن ٣١% منهم يشاهدون مناظر الجنس.

٤ - تبين أن ٤٤% من الأولاد والمراهقين يشاهدون مختلف البرامج عندما يغيب الأهل عن المنزل وأن ٢٠% ممن تتراوح أعمارهم بين ٢ – ٧ سنوات و٤٦% ممن تتراوح أعمارهم بين ٨ – ١٢ سنة و٢٥% ممن تتراوح أعمارهم بين ١٣ – ١٧ سنة لديهم تلفاز في غرف نومهم.

وتبين كذلك أن الأولاد يصرفون قدراً من وقتهم يومياً لمشاهدة التلفاز يفوق ما يصرفونه في أي نشاط آخر، ما عدا النوم، إذا كان النوم نشاطاً، ويقدر هذا الوقت بأربع ساعات ونصف ساعة يومياً! وهكذا فإن من بلغ الثامنة عشرة من عمره

يكون قد شاهد أمام التلفاز /٢٠٠/ ألف حادث عنف منها (٤٠) ألف حادثة قتل.

وعلة ذلك أن ٦١% من برامج التلفاز تشتمل على مشاهد عنف.

ومن الإرشادات التي تلي هذه الإحصاءات: منع بعض البرامج أو تنقيتها من الشوائب قبل أن يشاهدها الأطفال، ووضع قواعد لاتصال الطفل بأقرانه ولاستخدامه الأنترنت، وأن توضع أجهزة التلفاز خارج غرف النوم، وأن يكون الوقت الذي يقضيه الطفل أمام التلفاز في حدود ساعة أو ساعتين فقط في اليوم.

إن الكلام عن تأثيرات الإعلام كثير والإحصاءات أكثر.

وإذا لم تصل النسب والأرقام في بلدنا إلى مثل ما ذكرت، فإنها صائرة إلى ذلك. ومجمل القول أن الوسيلة الإعلامية ليست خيراً أو شراً بحد ذاتها، بل هي قدرة على الإيصال والتبليغ. وقد استطاعت الشركات الكبرى في العالم بما تملك من قوة مالية وتقنية متقدمة من أن تسخر القسم الأكبر من فعاليات وسائل الإعلام لتحقيق مصالحها الاستثمارية بالإعلان عن منتجاتها وإنتاج الأفلام والأشرطة والبرامج والمسجلات التي تجتذب الأطفال والناشئين وتخاطب عقولهم وعواطفهم وذلك ليتقبلوا المفاهيم التي تخدم أغراضها كالعنف والعدوان

والعنصرية والاستعلاء والجنس والإغراء. إن تنميط الفرد وتسطيح تفكيره واقتلاع جذوره والتلاعب بمشاعره ومخاطبة أدنى مكوناته لمما يخدم أغراض الرأسمال الذي يمتد ويتكور ليجعل كوكبنا الجميل مجموعة مناجم وحقول وآبار ومصارف تدر الأرباح ولا شيء سوى المال.

خامساً: موقفنا من وسائل الإعلام:

وبعد «أولادنا أكبادنا تمشي على الأرض» فماذا نفعل من أجلهم، وماذا ينبغي أن يكون موقفنا من وسائل الإعلام وتأثيرها علينا جميعاً، ولا سيما على الأطفال ، في هذا العصر الحافل بالمتغيرات والمفاجآت والآتي كل صباح بجديد؟

وبعبارة أخرى: كيف نستطيع أن نجني ما تحمل من خير ونتفادى ما تحمل من شر؟ ونتساءل بحق: هل نحن أبناء هذا الجيل، آباء وأمهات، مسؤولون عن هؤلاء الأبناء والبنات "الأطفال": عن سلامتهم الجسدية وصحتهم النفسية ونموهم العقلي والعاطفي، بحكم أبوتنا وأمومتنا، فنتدخل لتوجيه التربية وإسداء النصح والإرشاد ونفيد الناشئين من حسنات وسائل الإعلام ونبعدهم عن سيئاتها، أم أننا غير مسؤولين فندع هؤلاء الأطفال تعصف بهم الرياح العاتية وتشد وسائل الإعلام، ولا سيما شديدة التأثير منها كالسينما والتلفاز والأنترنت، عيونهم

وتقرع آذانهم ليل نهار من مئات القنوات الفضائية، تقذفهم بالأخبار والأفكار والنقاشات والحوارات والصور الباهرة والمشاهد المثيرة، حتى يصبحوا إزاءها دمى أو كالدمى.

أسئلة تؤرق الآباء والأمهات وتشغل المفكرين والباحثين والمربين.

إنَّ القول الذي لا مراء فيه، أن أولادنا هم امتداد لنا في الزمان كما أننا نحن امتداد لمن سبقنا من الآباء والأجداد وليس ثمة انقطاع في حركة الحياة، بل اتصال مستمر، لااتصال بيولوجي فحسب بل اتصال نفسي وثقافي ولغوي.

أ - **المتغيرات:** إن ثمة متغيرات في شؤون التفكير والتعبير والتصرف لأن العقل البشري يجدُّ ويبحث ولا يكف عن الجد والبحث عن الأنفع والأفضل والأجمل. إننا اليوم لا نسلك في تفكيرنا وتعبيرنا وتصرفنا مثلما سلك السابقون فنحن نعتمد في تفكيرنا على معطيات علمّية لم تكن في الماضي، ونعبر عن أفكارنا ومشاعرنا بصور لم تكن معتادة، ونتصرف في طعامنا ولباسنا وعلاجنا وانتقالنا وسفرنا ومفردات حياتنا اليومية وفق ما جدّ من أساليب وما ابتدع من أجهزة ووسائل، وأمر ينسحب على أبنائنا في المستقبل، وهذا حقهم، بل هو أمر ملزم لا مفر منه ولا حيلة لرده.

ب - **الثوابت:** ولكن ثمة ثوابت، عناصر ثابتة في كينونتنا البشرية، جديرة بالاستمرار والانتقال من جيل إلى جيل. الثوابت عندنا هي الثقافة ومكوناتها التي تشكل جوهر ذاتنا العربية وركن هويتنا وسمتنا المميزة بين الأمم، دون انغلاق أو استعلاء. وإذا ما حفظنا هذه الثوابت وقدرناها كانت لمحة نسيجنا البشري، وإذا ما فقدت أو ضعفت تعرضت الأمة العربية إلى الزوال أو الذوبان في الخضم البشري، وبذلك تفقد نفسها وتفقد البشرية تعدد مجتمعاتها وتنوع حضاراتها بذلك غناها وخصوبة عطائها إن هذه الثوابت تكمن فيما ندعوه الثقافة العربية.

فما الثقافة العربية؟

لقد تعددت تعريفاتها بيد أن الخطة القومية للثقافة العربية الصادرة عن المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم (الألكسو) عام ١٩٨٥ قد عرفتها بقولها «تشتمل الثقافة مجموع النشاط الفكري والفني بمعناه الواسع، وما يتصل به من المهارات وما يعين عليه من الوسائل، وهي تنظم جميع السمات المميزة للأمة: الروحية والفكرية والفنية والوجدانية...».

ولئن كانت الثقافة العربية تشتمل على مكونات عدة فإنني في هذا المقام سأتعرض إلى مكونين اثنين هما اللغة والقيم الأخلاقية والسلوكية.

١ - اللغة العربية:

إن اللغة العربية هي أهم مقومات هويتنا والعنصر الأساسي في تكوين ثقافتنا، ومستودع الفكر العربي على تعاقب الأجيال ونسيج اللسان الذي يطبع الإنسان العربي بطباعه.

ومنذ فجر النهضة العربية الجديدة قبل قرنين من الزمن، أخذت لغتنا تتخلص مما لحقها من جمود في عصور التخلف، فزاحمتها عاميات سقيمة وغزتها لغات أجنبية عمل المستعمرون على إحلالها محلها في التعليم وسائر ميادين النشاط الفكري والعملي. ومنذ مئة عام أو أكثر تجهد لغتنا لتتبوأ مكانتها في موطنها، ولم تدرك الهدف بعد.

إنه لمن أولى الواجبات التربوية والقومية أن نوظف الإعلام بوسائله الفاعلة لغرس اللغة العربية السليمة في أذهان الناشئة منذ الطفولة: نقربُ العامية من الفصحى في المنزل ونعني بتلقين التلاميذ في المدارس الابتدائية والإعدادية أصول اللغة العربية وقواعدها وكتابتها ونعرفهم سلامة النطق والتعبير لتصبح اللغة الصحيحة لديهم سليمة وتخالط تفكيرهم ومشاعرهم. ومن أجل بلوغ هذا الغرض نبتدع البرامج المحببة الإذاعية والتلفزية ونؤلف ونعرض المسرحيات المدرسية ونقيم الحفلات الخطابية والمسابقات الأدبية.

٢ - المنظومة الأخلاقية والسلوكية:

وخلال قرون متطاولة، كافح الإنسان في هذه الرقعة الواسعة من الأرض، الوطن العربي، لصنع منظومة أخلاقية توجه سلوكه وتحقق له السلامة والأمن والطمأنينة، فكانت منظومة مصوغة من المثل والقيم والوصايا والتعاليم، دعا إليها الرسل والأنبياء وأيدها الحكماء والعقلاء لتكون نهج سلوك وقواعد تصرف تحرر الإنسان من همجيته وتعزز فيه إنسانيته، وتصلح أن تكون شرعة لكل زمان، يلقنها الآباء للأبناء في كل جيل من الأجيال.

إنَّ هذه المنظومة الخلقية قد تجذّرت في تكويننا النفسي وتأصلت في ثقافتنا القومية وتجلت في سلوك الأخيار منا، قد فصل شؤونها الأدباء وتغنى بها الشعراء، ومن أسس هذه المنظومة: محبة الإنسان أخاه الإنسان، والتعاون والتسامح والغفران، والعدل والإنصاف، والرحمة والإحسان، والأمانة والوفاء، والحرية والمساواة والشورى، وحب المعرفة وطلب العلم والاهتداء بالعقل والتعلق بالوطن والحق، والتمسك بالأرض والتراث، وقبل كل شيء تكريم الإنسان، سيد المخلوقات وخليفة الخالق على هذا الكوكب، أكان طفلاً صغيراً أم شيخاً مسناً، رجلاً أم امرأة، أبيض أم أسود أم أصفر، وعلى أية عقيدة روحية أو إنسانية كان.

بيد أن هذه المنظومة الأخلاقية العربية تتعرض منذ زمن للهجوم من قبل الغرب أو لنقل من ساسته وحكامه لإضعافها أو تشويهها أو إلغائها تعبيداً لطريق الاستعمار والاستغلال. وقد زاد الهجوم ضراوة في السنوات الثلاثين الأخيرة، وسخرت له الأدوات والوسائل الثقافية والإعلامية، حتى اضطررنا، أمام سيل الغزو الثقافي والتطبيع والعولمة، أن نقف موقع الدفاع عن الذات وشغلنا عن الفعل بردّ الفعل.

إننا مدعوون لرفض محاولات التنميط والتطويع والهيمنة، ونحن وحدنا من يحق له أن يرسم مستقبلنا ومستقبل أجيالنا القادمة. ولقد كانت ثقافتنا العربية بما اشتملت عليه من عقائد وعلوم وآداب وفنون في وقت مضى ومنظومتنا القيمية الرفيعة نبعاً ثراً استقى منه الآخرون، وأما التقدم العلمي والتقاني الذي يفاخر به الغرب اليوم فهو ثمرة الجهد الخلاق الذي بذلته جميع أمم العالم على مدى الزمن، وفي طليعتها أمتنا العربية.

الخاتمة

إننا لسنا ضد الحضارة المعاصرة بل ضد سلبياتها ومع إيجابياتها، إننا منذ فجر نهضتنا الحديثة نتفاعل معها ونقبس ما ينفعنا من علومها وتقنياتها ومنجزاتها في كل ميدان وسنظل نقيس حتى نصل موقع المشاركة والعطاء.

ومن هذا المنطلق نقبل على الوسائل الإعلامية الجديدة وندعو الجميعَ لاستخدامها لخير البشرية وسلامتها وازدهارها، لا لاختزال الآخرين واختراق ثوابتهم وتهميش وجودهم الإنساني. ومن هنا نرى لزاماً علينا أن نوظف هذه الوسائل في تربية أطفالنا، أجيالنا الطالعة وفقاً للثوابت دون المتغيرات، وإذا ما قيل: والبرامج؟ قلنا، إذا ما استوردنا فلنحسن الاختيار وفق معايير نضعها، وإذا صنعناها فلنحسن صنعها. وعلى أية حال، أن نخبز خبزنا بأيدينا خير من أن نأكل على موائد الآخرين.

إنَّ كل جهد نبذله لنقدم التربية الرشيدة والتوجيه القويم لأطفالنا هو جهد مطلوب ومحمود، فلعل الجيل العربي القادم سيحقق ما لم نستطع نحن تحقيقه حتى الآن.

المراجع

١ - الخطة الشاملة للثقافة العربية إصدار المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، الطبعة الثانية - تونس ١٩٩٠.

٢ - وسائل الإعلام وأثرها في المجتمع العربي المعاصر: إصدار المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم – تونس ١٩٩٢.

٣ - الثقافة في تفاعلها مع القطاعات الأخرى: إصدار المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم – تونس ١٩٩٥.

٤ - الدكتور فخر الدين القلا، الأستاذ في كلية التربية في جامعة دمشق: تقنيات التعليم والوسائل التعليمية، منشورات جامعة دمشق – الطبعة السادسة ١٩٩٨.

٥ - الدكتور نبيل علي: الثقافة العربية وعصر المعلومات (رؤية لمستقبل الخطاب الثقافي العربي) – إصدار المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب في الكويت – الطبعة الثانية ٢٠٠١.

٦ - شحادة الخوري: أوراق ثقافية. إصدار دار الطليعة الجديدة بدمشق عام ٢٠٠٢.

٧ - دراسات عديدة عن الإعلام والطفولة وبرامجها في مراجع ومجلات عديدة.

أبو نصر الفارابي
المعلِّم الثاني(*)

المقدمة:

قبل أن نتحدث عن فكر الفارابي «أكبر فلاسفة المسلمين على الإطلاق» يحسن أن نلقي نظرة على حياة هذا النابغ الكبير، وعلى ما حصَّل من ثقافة واسعة وامتلك من مقدرة فكرية مكَّنته من النبوغ في الرياضيات والموسيقا وتصور فلسفة مترابطة الحلقات ناظمة للوجود والمجتمع البشري.

لقد شهد الطبيب الفيلسوف ابن سينا للفارابي بأنه أخذ منه، وعدَّه أستاذاً له. وقال المستشرق ماسينيون: «إن الفارابي أول مفكر مسلم كان فيلسوفاً بكل ما للكلمة من معنى». وقد لقب بحق «المعلِّم الثاني» إذ لم يأتِ قبله أحدٌ يوازيه سوى المعلم الأول أريستوطاليس أعظم فلاسفة الإغريق وعلمائهم، إضافة إلى أنه شرح مؤلفات المعلم الأول في المنطق.

(*) ألقيت بالمركز الثقافي العربي بدمشق أبو رمانة . نشرت في مجلة مجمع اللغة العربية المجلد ٨٤ج ١ /٢٠٠٨.

إذن من يكون هذا الرجل الذي كان له أثر بالغ في الفكر العربي الإسلامي، أثناء حياته وبعدها حتى اليوم وإلى الغد؟

١ - شخصية الفارابي:

إنه أبو نصر محمد بن محمد بن طَرْخان بن ازلغ المعروف بالفارابي نسبة إلى مدينة فاراب التي تتبع لها بلده وسيج التي ولد فيها نحو عام ٢٥٩هـ - ٨٧٠م. وقد نشأ في أسرة شريفة ميسورة وانصرف عن بهرج الحياة إلى الفلسفة والعلم وعاش زاهدًا يكتفي بالقليل إذ سأله مرّةً سيف الدولة أمير حلب: ما حاجتك في الشهر؟ فأجاب أربعة دراهم. فتعجب منه أمير حلب الذي كان يجيز العلماء والشعراء بآلاف الدراهم. ولو أراد الفارابي المال أو الجاه لنال منه الكثير.

كان أبوه قائدًا من قواد الجيش، فارسي الأصل تزوج بامرأة تركية كما جاء في كتاب «عيون الأنباء في طبقات الأطباء» لابن أبي أصيبعة. وتبدل الزمن فتغيرت تسمية فاراب فصارت تدعى أطرار وهي مدينة فوق الشاش قريبة من مدينة ساغون، في إقليم تركستان. وعندما عرفه الغرب واطلع على بعض مؤلفاته دعاه Alpharabius.

درس في مسقط رأسه مجموعة من المواد المختلفة كالعلوم والرياضيات والآداب والفلسفة. وأما اللغات فقد درس التركية

والفارسية واليونانية، وفيما بعد العربية. وفي سن الأربعين قصد بغداد عاصمة الخلافة والثقافة والعلم آنذاك، واتصل بأبي بشر بن متّى يونس الحكيم المشهور. وأبو بشر كان شيخًا كبير السن وكان الناس يدرسون عليه المنطق، وله إذّاك صيت عظيم وشهرة وافية، ويجتمع في حلقته كل يوم المئون من المشتغلين بالمنطق، وهو يقرأ عليهم كتاب أرسطو في المنطق ويملي على التلاميذ شرحه. ولم يكن في ذلك الوقت مثله في فنه، وكان حسن العبارة في تآليفه وحسن الإشارة في تعاليمه حتى قال أحد علماء هذا الفن: «ما أرى أن أبا نصر الفارابي أخذ طريقة تفهيم المعاني الجزلة وبالألفاظ السهلة إلا من أبي بشر بن متّى».

أقام في بغداد ثلاثين سنة متصلة قضاها في التأليف والتعليم، وتعلّم العربية فأتقنها غاية الإتقان ثم اشتغل بعلوم الحكمة كما ذكر ابن خلكان.

وبعد أن أقام أبو نصر كذلك برهة يأخذ عن أبي بشر، ارتحل إلى مدينة حرّان، وفيها يوحنا بن حِيْلان الحكيم النصراني، فأخذ منه طرفًا من المنطق أيضًا ثم قفل راجعًا إلى بغداد وقرأ فيها علوم الفلسفة، وتناول جميع كتب أرسطو ووقف على معانيها وأغراضها، وألمَّ بالمنطق والفلسفة والموسيقا والرياضيات وأتقن أربع لغات هي العربية والفارسية والتركية والكردية ونُكِر أكثر بكثير.

وقيل: إنه وُجد كتاب النفس لأرسطو، وعليه مكتوب بخط أبي النصر الفارابي: «إني قرأت هذا الكتاب مئة مرة» ونقل عنه أنه كان يقول: «قرأت السماع الطبيعي لأرسطو الحكيم أربعين مرة وإني محتاج إلى معاودة قراءته» ونقل عن أبي نصر أيضًا أنه سُئل: «من أعلم الناس بهذا الشأن، أنت أم أرسطو» فقال: «لو أدركته لكنت أكبر تلاميذه».

وذَكَرَهُ أبو القاسم صاعد بن أحمد بن عبد الرحمن بن صاعد الأندلسي في كتابه «طبقات الحكماء» فقال: «الفارابي فيلسوف الإسلام بالحقيقة. أخذ صناعة المنطق من يوحنا بن حيلان المتولي بغداد، والمتوفى بمدينة السلام (بغداد) في أيام الخليفة المقتدر، فَبَذَّ الفارابي جميع أهل الإسلام وأربى عليهم في التحقيق لها، وشَرَح غامضها وكَشَف سِرَّها، وقرَّب تناولها وجميع ما يحتاج إليه منها في كتب صحيحة العبارة، لطيفة الإشارة، منها ما أغفله الكندي وغيره من صناعة التحليل وأنحاء التعاليم، وأوضح القول فيها عن مواد المنطق الخمس، وأفاد وجوه الانتفاع بها وعرف طرق استعمالها، وكيف تتصرف صورة القياس في كل مادة منها، فجاءت كتبه في ذلك الغاية الكافية والنهاية الفاضلة».

وفي عام ٣٣٠هـ - ٩٤١م **انتقل إلى دمشق** واتصل بسيف الدولة الحمداني صاحب حلب وعاش في بلاطه مكرمًا. وتعرَّف هناك بالشاعر الكبير المتنبي. ثم قام برحلة قصيرة إلى مصر

عاد بعدها إلى حلب، فاصطحبه أميرها في حملته على دمشق فتابع تآليفه فيها، متنقلاً في رياضها وبساتينها، وقيل إنه اشتغل حارسًا لأحد البساتين فيها ويستتير بمصباح لمتابعة المطالعة والتأليف. هذا وقد توفي سنة ٣٣٩هـ ٩٥٠م وله من العمر ثمانون سنة، ولم يتزوج طوال حياته. وقد صلَّى عليه سيف الدولة في أربعة من خواصه وقيل في خمسة عشر ودُفن خارج مقبرة الباب الصغير بدمشق.

وفي عام ١٩٧٥ احتُفل بألفية الفارابي أي بمرور ألف عام على ولادته ضمن «أسبوع العلم» الذي يُقيمه كل سنة.«المجلس الأعلى للعلوم» التابع لوزارة التعليم العالي فأُلقيتْ البحوث والدراسات عن الفارابي، وأُقيم له تمثال نصفي في إحدى حدائق «دمشق الجديدة» - المزة - وسُمِّي الشارع الذي تقع الحديقة قربه شارع الفارابي، وذلك تكريمًا له وتخليدًا لذكراه.

٢ - آثاره:

يُعدّ الفارابي من أغزر فلاسفة الإسلام إنتاجًا وأكثرهم تنوعًا، فقد كتب في الفلسفة والرياضيات والتنجيم والكيمياء والعرافة والموسيقا وغيرها من العلوم والفنون، إضافة إلى شروحه المتعددة على مُصنَّفات المعلم الأول أرسطو وغيره من فلاسفة اليونان، ولا سيما ما تعلق منها بالمنطق بأوسع معانيه، مما جعل

المستشرق ماترويغ Materweg يقول: «إن تسمية الفارابي بالمعلِّم الثاني، بعد أرسطو المعلِّم الأول، قد جعل الفيلسوفين على قدم واحدة من المساواة».

أما مؤلفاته التي ذكرتها كتب الأصول فقد اختلفت فيها الآراء اختلافات واسعة سواءٌ من حيث عدد المؤلفات أو العناوين وموضوعاتها: ففي حين أن ابن صاعد الأندلسي لم يورد من مؤلفات الفارابي إلا أربعة كتب، فإن ابن أبي أصيبعة قد ذكر له (١١٣) كتابًا أو رسالة.

وفيما يلي عناوين أشهرها:

١ - كتاب إحصاء العلوم: قسَّم الفارابي في هذا الكتاب العلوم إلى ثماني مجموعات، ثم ذكر فروع كل مجموعة وموضوع كل فرع منها وأغراضه وفوائده. وقد ترجمه جيرار الكريموني إلى اللغة اللاتينية.

٢ - كتاب صناعة علم الموسيقا: شرح فيه الفارابي مبادئ النغم والإيقاع.

٣ - كتاب «آراء أهل المدينة الفاضلة» وهو أشهر كتبه.

٤ - كتاب الجمع بين رأي الحكيمين أفلاطون الإلهي وأرسطو: حاول فيه التوفيق بين آراء أفلاطون وأرسطو.

٥ - كتاب «الموسيقا الكبير» هو مؤلَّف عظيم الأهمية، وتذكر

المستشرقة الألمانية سيغريد هونكه: أن اهتمام الفارابي بالموسيقا ومبادئ النغم قد جعله قاب قوسين أو أدنى من علم اللوغاريتم الذي يكمن بصورة مصغرة في كتابه هذا.

٦ - رسالة في قوانين صناعة الشعر والخطابة.

٧ - كتاب في المدخل إلى الهندسة الوهمية.

٨ - كلام في حركة الفلك

٩ - مقالة في صناعة الكيمياء.

١٠ - رسالة في قوانين صناعة الشعر والخطابة.

١١ - شرح كتاب «المجسطي» في علم الهيئة لبطليموس.

١٢ - شرح المقالتين الأولى والخامسة من كتاب إقليدس في الهندسة.

وأكثر الكتب التي ألَّفها الفارابي، إما أنها فُقدت أو أنها لا تزال في الخزائن والمكتبات، والمعروف منها إلى الآن قليل إذا قيس بمجموع ما كتبه في شتى العلوم والفنون.

ولما كان متعذرًا أن يُستوفى الحديث عن أبي نصر الفارابي في بحث واحد لوفرة إنتاجه وتعدد موضوعاته، فإنني سأكتفي بأهم ما عُرف به وهما أمران: تعريف بفلسفته، وآراء أهل المدينة الفاضلة.

٣ - فلسفة الفارابي:

أ - منابع فلسفته: كان للفارابي منبعان أساسيان يستمد منها فلسفته:

أولهما: الإسلام وثانيهما: الفلسفة اليونانية المتمثلة بأفلاطون وأرسطو إضافة إلى مدرسة الإسكندرية المتمثلة بأفلوطين وأتباعه.

ومن الطبيعي أن يكون الإسلام منبعه الأول، فهو معتقده الديني، وكان عارفًا بالعلوم الإسلامية. أما تأثره بالفلسفة اليونانية فقد تأثر بثلاثة من كبار أهلها: أفلاطون في الإلهيات والأخلاق والسياسات، وأرسطو في المنطق والطبيعة وما بعدها، والأفلاطونية الحديثة في نظرية الخلق والصدور.

ومن الحق القول إن الفارابي لم يكن ناقلاً لما ذكرناه من فلسفات، بل كانت له آراؤه واجتهاداته الخاصة وفلسفته المتميزة، مما يدل على أنه استقى فلسفته من منبع ثالث هو عقله الذي مكنه من إيجاد منظومة فلسفية واحدة مترابطة صارت مرجعًا لكل مفكر بعده.

ب - منطلقاته الفكرية: اتسمت أعمال الفارابي بسمتين:

أولاها العقلانية: وتقوم على استيعاب المعرفة التي انتهت إليها الأفكار الفلسفية والعلمية التي وُجدت قبله، واتجه إلى إبراز الأولية للعالم المادي بعيدًا عن الغيبيات.

وثانيهما الموسوعية: لم يقصر نشاطه على الفلسفة، بل تناول في مؤلفاته وشروحه جميع أنواع المعارف الفكرية والتطبيقية والرياضيات والفيزياء والفلك والفن والأخلاق. ولئن كان الفارابي مثاليًّا في تفكيره أو بالأحرى مترددًا بين المثالية والواقعية، لقد كان يَعُدُّ المعرفة الحسية ضرورية ومقدمة على المعرفة العقلية.

٤ - نظرية الفيض والصدور:

كان الفارابي يعتقد أن الحقيقة الطبيعية الفلسفية واحدة، وليس هناك حقيقتان في موضوع واحد بل حقيقة واحدة، هي التي كشف عنها أفلاطون وأرسطو، ويرى أنَّ كل منظومة فكرية يجب أن تحذو حذوهما.

ولكن الفارابي وقع في خطأ غير مقصود إذ اعتقد أن أفلاطون وأرسطو متماثلان في الرأي، ولذا ألَّف كتابه: الجمع بين رأيي الحكيمين أفلاطون وأرسطو. والواقع أنَّ بين أفلاطون وأرسطو اختلافًا في الرأي وفي المنطلقات. ولكنه أخطأ في اعتقاده بتماثلهما لأنه استعمل في المقارنة كتاب «أثولوجيا» لأفلوطين الفيلسوف الإسكندري وهو بعض تُساعيات أفلوطين المدافع الأكبر عن الفلسفة الفيضية، معتقِدًا أنه لأفلاطون.

وقد حاول الفارابي أن يثبت أن الفلسفة اليونانية تتميز

بوحدتها وتماسك أجزائها لا فجوة فيها ولا تناقض، وأنها جديرة بأن تكون مصدرًا لكل فلسفة بعدها، ولكن فاته أنه لم يوفق بين أفلاطون وأرسطو بل بين أفلاطون وأفلوطين وهما في المثالية شريكان.

وبعد كتابه المذكور آنفًا: «التوفيق بين رأيي الحكيمين أفلاطون وأرسطو» يكتب كتابًا آخر هو: «آراء أهل المدينة الفاضلة» التي تعد مجموعة آرائه الفلسفية والسياسية والاجتماعية والأخلاقية.

وحجر الأساس في هذا الكتاب هو بديهة عقلية مؤداها أننا حين ننظر إلى الكائنات الحادثة، الممكنة، نستنتج وجود كائن واجب الوجود، موجود بذاته، ووجوده علة وجود جميع الكائنات، ولا يصح التسلسل في مجموعة الكائنات المتسلسلة الحادثة أي لا بد من وجود كائن واجب الوجود أي موجود بالضرورة، وتكون سائر الموجودات تابعة له إذ لا يكون الشيء من لا شيء. إن هذا الكائن الأول واحد، كامل، إنه الله.

وهكذا يمضي في تعليل وجود العالم.

ويحاول الفارابي أن يفسر بالفيض نظام الكون بما فيه من أفلاك.

يقول: من الكائن الأول ويقصد به الله يفيض كائن ثانٍ، هو أيضًا جوهر غير متجسِّم، إنه عقل خالص يعقل الأول ويعقل

نفسه، ومن تعقله الأول يفيض عقل ثالث ومن تعقله ذاته يلزم عنه وجود **السماء الأولى**، والثالث بدوره يعقل الأول فيلزم عنه عقل رابع، وهذا الرابع يعقل الأول فيلزم عنه **الخامس** الذي يعقل نفسه فيلزم عنه **كرة زحل**، وهكذا حتى العقل الحادي عشر مع التدرج بكرة المشتري فالمريخ فالشمس فالزهرة فعطارد فالقمر حيث تنتهي العقول المفارقة، التي في جوهرها عقول ومعقولات وهي **أجسام سماوية** وآخرها العنصر الخامس والأخير من الأفلاك التي لا يشوبها فساد **ولا ضد لها**. والفلك **الحادي عشر هو فلك القمر ويدعوه العقل الفعّال**.

وحسب نظرية الفيض هذه تعلَّل حركات الأفلاك السبعة المتحركة وذلك بواسطة العقول التي لا تنفك عن تأمل الكائن الأول. وهي في حركة دائرية، أكمل الحركات والحركة التي تحاكي أزلية الكائن الأول.

أما الأخرى فهي فيض من العقل الفعّال «القمر»، وهذه الموجودات تبتدئ من أكملها وجودًا ثم يتلوه ما هو أنقص منه قليلاً، ثم لا يزال بعد ذلك يتلو الأنقص إلى أن ينتهي إلى الموجود، الذي مَن تَخَطَّاه إلى ما دونه وصل إلى ما لم يمكن أن يوجد أصلاً فتنقطع الموجودات عن الوجود.

إن العقل الفعّال يفيض عالم العناصر: التراب والماء والنار

والهواء، ويتجلى هذا الفيض في صور عديدة متسلسلة من الأكمل إلى الأدنى، ولذا دُعي هذا العقل «واهب الصور» وهو رب هذا العالم ومنه تصدر الأنفس البشرية التي صورتُها الأجسام. هذه الصورة بدورها تكتسب من الخلود بقدر ما تدرك من الحقائق الموجودة في العقل الفعّال، كما أن سعادتها تكون في تأمل هذا العقل الذي هو مصدرها. وأما الأنفس التي لا تدرك الحقائق الأزلية التي يحملها العقل الفعّال فلا خلود لها ويكون مصيرها كمصير الحيوانات والنباتات. أما النفس البشرية فتكتسب الخلود بواسطة إدراك النفس للحقيقة، وحينئذٍ لا تعود النفس بحاجة إلى جسمها في خلودها، فلا بعث للأجساد.

إن فلسفة الفيض هذه تفسر الوحي أيضًا. يقول الفارابي إن العقل الفعّال يشرق باستمرار الحقائق على العالم، ولكن الأنفس ذات المخيلة الصافية تتلقى هذه الحقائق وتعبِّر عنها بلغة بشرية تجعلها في متناول حواس الآخرين ومخيلتهم. ويستطيع الفيلسوف وحده، بفضل المنطق والتأمل العقلي، أن يرتقي حتى مصدر هذه الحقائق، أي العقل الفعّال ويدركها جلية واضحة. أما النبي أو الرسول فتأتيه المعارف منزلة من الله بتوسط الملك جبريل ويتلقى الوحي بالمخيلة ثم تتحول الصور متخيلة إلى صور معانٍ تُنقل إلى الناس.

وهكذا جعل الفارابيُّ الفيلسوفَ في مرتبة عقلية أسمى من مرتبة النبي. ثم إن الفيلسوف لا يأخذ بظاهر الوحي بل يكشف عن الحقيقة خلف الألفاظ والصور. وبهذا القول فتح الفارابي باب تأويل الوحي في ضوء العقل.

إن هذه الفلسفة الفيضية حاولت أن تحل المسائل الكونية والروحية والأخلاقية والاجتماعية والسياسية، فانتهت إلى نتائج لا تتفق مع الشرع الإسلامي، ولا سيما في نقاط ثلاث: أنها تعتبر الفيض قديمًا، ولا تقول بخلق العالم في الزمان ومن العدم، وثانيهما: أنها تقول بعقل يسوس عالم العناصر وهو العقل الفعّال، لا الكائن الأول، وأن العقل الفعال هو المنظم الحقيقي لعالم البشر، وثالثها: أنها تقول بعدم بعث الأجساد، ولا تقول بلذة البشرية في العالم الآخر بل تقول بسعادة روحانية محضة من خلال تأمل الحقائق الموجودة في العقل الفعال.

إن هذه النقاط الثلاث: قدم العالم، وعدم عناية الكائن الأول بالعالم، وعدم بعث الأجساد هي نتيجة طبيعية لنظرية الفيض، **ولم يقبلها المدافعون عن العقيدة الدينية والشرع.**

٥ - المدينة الفاضلة:

إن هذا المفكر الكبير لم يكتفِ بأن وضع نظامًا فلسفيًا متكاملاً، بل ربط بين عالم الفكر وعالم الإنسان، واهتم بالسياسة

المدنية اهتمامًا كبيرًا، بل جعلها غاية فلسفته وعَنى بها «تحصيل السعادة باقتناء الفضائل».

يقرر الفارابي بادئ ذي بدء في مؤلَّفه «آراء أهل المدينة الفاضلة» أن الاجتماع ضرورة للإنسان الذي لا يستطيع أن يعيش منفردًا. وذلك بدافع الفطرة والضرورة المعيشية والحرص على بلوغ الكمال.

يقول في كتابه «المدينة الفاضلة» «إن كل واحد من الناس مفطور على أنه محتاج في قوامه وفي أن يبلغ أفضل كمالاته إلى أشياء كثيرة لا يمكنه أن يقوم بها كلها هو وحده، بل يحتاج إلى قوم يقوم له كل واحد منهم بشيء مما يحتاج إليه. فلذلك لا يمكن للإنسان أن ينال الكمال الذي لأجله جُعلت له الفطرة الطبيعية إلا باجتماع جماعة كثيرة متعاونين، يقوم كل واحد لكل واحد ببعض ما يحتاج إليه في قوامه وفي أن يبلغ الكمال، ولهذا كثرت أشخاص الإنسان فحصلوا في المعمورة من الأرض، فحدثت منها الاجتماعات الإنسانية: منها الكاملة ومنها غير الكاملة.

والكاملة ثلاث: عظمى ووسطى وصغرى، فالعظمى، اجتماع الجماعة كلها في المعمورة، والوسطى: اجتماع أهل أمة في جزء من المعمورة، والصغرى: اجتماع أهل المدينة في جزء من مسكن أمة. وغير الكاملة: أهل القرية واجتماع أهل المحلة ثم اجتماع في سكة ثم اجتماع في منزل...

ويرى الفارابي أنه لا يمكن بلوغ الكمال الأقصى والخير الأفضل في المجتمعات الإنسانية غير الكاملة: القرى والمحال والسكك والبيوت لأنها ليست مستقلة بحاجاتها: فالمحال والسكك والمنازل أجزاء من المدينة والقرى خادمة لها، إنما يمكن ذلك في المجتمعات الكاملة: المدينة والدولة والعالم.

وبعد أن يقرر الفارابي ضرورة الاجتماع الإنساني ويعدد أنواع المجتمعات يطرح السؤال التالي: ما هي المدينة الفاضلة وما هي الأمة الفاضلة والمعمورة الفاضلة؟. يجيب: «المدينة التي يقصد بالاجتماع فيها التعاون على الأشياء التي تُنال بها السعادة في الحقيقة، هي المدينة الفاضلة، والأمة التي تتعاون مدنها كلها على ما تنال به السعادة هي الأمة الفاضلة، وكذلك المعمورة الفاضلة إنما تكون إذا كانت الأمم التي فيها يتعاونون على بلوغ السعادة». وينتقل الفارابي إلى الحديث عن النظام الفاضل في المدينة الفاضلة فينطلق من تشبيه المدينة بجسم الإنسان في توزع مهام أعضائه وتدرجها وتعاون هذه الأعضاء. فمثلما لكل عضو في الجسم وظيفة خاصة به، ينبغي أن يكون لكل فرد في المجتمع وظيفة خاصة به، وكما تتعاون أعضاء الجسم كذلك يجب أن يتعاون أفراد الجماعة على ما فيه الخير لهم جميعًا، وإذا كانت أعضاء الجسم تخضع كلها للقلب، فإنه ينبغي أن ينقاد أفراد المجتمع جميعهم لتوجيه الرئيس.

يقول: «والمدينة الفاضلة تشبه البدن التام الصحيح الذي تتعاون أعضاؤه كلها على تتميم حياة الحيوان وعلى حفظها عليه. وكما أن البدن أعضاؤه مختلفة متفاضلة الفطرة والقوى، وفيها عضو واحد رئيس هو القلب وأعضاؤه تقرب مراتبها من ذلك الرئيس، وكل واحد منها جُعلت فيه بالطبع قوة يفعل بها فعله ابتغاء لما هو بالطبع غرض ذلك العضو الرئيس. وأعضاء أخرى فيها قوى تفعل أفعالها على حسب أغراض هذه التي ليس بينها وبين الرئيس واسطة... ثم هكذا إلى أن تنتهي إلى أعضاء تَخدم ولا تَرْأَس أصلاً. فكذلك المدينة أجزاؤها مختلفة الفطر، متفاضلة الهيئات وفيها إنسان هو رئيس وآخر يَقْرُب مرتبة الرئيس، وفي كل واحد منها هيئة وملكة يفعل بها فعلاً يقتضي منه ما هو مقصود ذلك الرئيس. ودون هؤلاء قوم يفعلوم الأفعال على حسب أغراض هؤلاء. ثم هكذا تترتب أجزاء المدينة إلى أن تنتهي إلى آخرين يفعلون أفعالهم على حسب أغراضهم فيكون هؤلاء هم الذين يَخدمون ولا يُخدمون، ويكونون في أدنى المراتب». ولكنه يميِّز فارقًا بين نظام البدن ونظام المجتمع فيقول: «غير أن أعضاء البدن طبيعية، والهيئات التي لها قوى طبيعية وأجزاء المدينة، وإن كانوا طبيعيين، فإن الهيئات والملكات التي يفعلون بها أفعالهم للمدينة ليست طبيعية بل إرادية. على أن أجزاء المدينة مفطورون بالطبع وبفِطَرٍ متفاضلة يصلح بها إنسان دون إنسان، لشيء دون شيء».

فالمدينة الفاضلة في نظر الفارابي وحدة متماسكة الأجزاء قائمة على ترتيب وتسلسل ونظام مركزي دقيق. ويرى للمدينة نظائر لا في البدن فحسب، بل في الكون أيضًا يقول: «السبب الأول نسبته إلى سائر الموجودات كنسبة ملك المدينة الفاضلة إلى سائر أجزائها».

وبعد فمن هو الرئيس وما مؤهلاته في رأي الفارابي؟

يقول في كتابه: «آراء أهل المدينة الفاضلة»: ورئيس المدينة الفاضلة ليس يمكن أن يكون أي إنسان اتفق، لأن الرئاسة إنما تكون بشيئين: أحدهما أن يكون بالفطرة والطبع معدًّا لها، والثاني بالهيئة والملكة والإرادة».

ويذكر الفارابي أنَّ الرئيس يتلقى المعرفة من الله بواسطة العقل الفعّال في اليقظة، أي استقراءً وتأملاً وفي المنام على سبيل الأنبياء. يقول: «إنه الإنسان الذي يُوحى إليه بتوسط العقل الفعّال، فيكون ما يفيض من الله إلى العقل الفعّال يفيضه العقل الفعّال إلى عقله المنفعل بتوسط العقل المستفاد، ثم إلى قوته المتخيلة فيكون بما يفيض منه إلى قوته المتخيلة نبيًا منذرًا بما سيكون، وبما يفيض إلى عقله المنفعل حكيمًا فيلسوفًا. وهذا الإنسان هو في أكمل مراتب الإنسانية وفي أعلى درجات السعادة، وتكون نفسه كاملة متحدة بالعقل الفعّال». ويشترط الفارابي في الرئيس خصالاً وصفات تقربه من الكمال. يقول:

«فهذا هو الرئيس الذي لا يرأسُهُ إنسان آخر أصلاً وهو الإمام وهو الرئيس الأول للمدينة الفاضلة، وهو رئيس الأمة الفاضلة ورئيس المعمورة من الأرض كلها. ولا يمكن أن تصير هذه الحال إلا لمن اجتمعت إليه بالطبع اثنتا عشرة خصلة فُطر عليها:

١ - أن يكون تام الأعضاء.

٢ - أن يكون بالطبع جيد الفهم والتصور لكل ما يُقال له.

٣ - أن يكون جيد الحفظ لما يحفظه ولما يراه ولما يسمعه.

٤ - أن يكون جيد الفطنة ذكيًا.

٥ - أن يكون حسن العبارة يؤاتيه لسانه على إبانة كل ما يضمره إبانة تامة.

٦ - أن يكون محبًا للتعليم والاستفادة منقادًا لهما.

٧ - أن يكون غير شره مأكلاً ومشربًا متجنبًا اللعب.

٨ - أن يكون محبًا للصدق وأهله ومبغضًا للكذب وأهله.

٩ - أن يكون كبير النفس محبًا للكرامة.

١٠ - أن يكون الدرهم والدينار وسائر أعراض الدنيا هينة عنده.

١١ - أن يكون محبًا للعدل وأهله مبغضًا للجور والظلم وأهلهما.

١٢ - أن يكون قوي العزيمة على الشيء الذي يرى أنه ينبغي أن يفعل.

وإذا اجتمعت للرئيس هذه الصفات الفطرية فلا بد أن تتوافر له أيضًا صفات مكتسبة وخلاصتها: أن يكون حكيمًا وعالمًا وحافظًا للشرائع والسنن ذا رؤية وقدرة على الاستنباط ويجيد الإرشاد إلى شرائع الأولين وذا مقدرة على مباشرة أعمال الحرب. فالرئيس في المدينة الفاضلة هو عمادها: المعلم والمرشد والمدبر والمشرع وقد لاحظ الفارابي صعوبة اجتماع كل هذه الصفات والمؤهلات والخصال في شخص واحد فقال: واجتماع هذه كلها في إنسان واحد عَسِرٌ، إذ لا يوجد أحد على هذه الفطرة إلا الواحد بعد الواحد والأقل من الناس فإن وُجد مثل هذا كان هو الرئيس.

وإن اتفق ألاَّ يوجد مثله في وقت من الأوقات، أخذت الشرائع والسنن التي شرعها هذا الرئيس وأمثاله فأثبتت. ويكون الرئيس الثاني الذي يخلف الأول من اجتمعت فيه تلك الشروط. فإذا لم يوجد إنسان واحد اجتمعت فيه هذه الشروط ولكن اثنان، أحدهما حكيم والثاني فيه الشروط الباقية كانا هما رئيسين في المدينة. فإذا تفرقت هذه في جماعة وكانت الحكمة في واحد وكانوا متلائمين، كانوا هم الرؤساء الأفاضل. فإن لم يتفق أن يوجد حكيم تضاف الحكمة إليه لم تلبث المدينة أن تهلك.

أما خصال أهل المدينة الفاضلة فهي أن يكونوا عالمين منظمين بحسب استعداداتهم الطبيعية وحاجات الأمة، ولذا يجب

أن يطلعوا على أمور كثيرة منها: «معرفة السبب الأول وصفاته والجواهر السماوية وخواصها، والأجسام الطبيعية وحكمة نواميسها، ومعرفة النفس وصلتها بالعقل الفعّال والإرادة والاختيار، والرئيس الأول وخلفائه والمدينة الفاضلة والسعادة التي تصير إليها نفوسهم». وهذه الحقائق تعرف بوجهين، يقول الفارابي: «فإما أن ترتسم في نفوسهم كما هي موجودة، وإما أن ترتسم فيها بالمناسبة والتمثيل» الفلاسفة والحكماء هم الذين يعرفون هذه الأمور مباشرة وأما العامة فتحتاج في تمثلها إلى الأحاجي والألغاز والأمثال والتشابيه، أو تحتاج أن تُكشف لها الحقيقة وتلقَّن الحكمة. وأما من كانت عقولهم معوجة أو كانوا مطبوعين على الفساد والغش فقد وجب طردهم من «المدينة الفاضلة».

وأما مآل أهل المدينة الفاضلة الذين ينعمون بالسعادة بفضل ملكتي العلم والفضيلة، فهو أنهم ينتهون إلى المدينة السماوية التي تشرق عليها أشعة الله الساطعة وأنوار العقول. إن النفوس الصالحة تجتاز إلى دار النعيم، وتنسق هناك طوائف وجماعات جماعات بحسب كمالها واستحقاقها. ويتحدث الفارابي عن مضادات المدينة الفاضلة التي تُناقض طبيعة الاجتماع الكامل، وإذا ما عرضنا أنواعها تَبدت لنا معالم المدينة الفاضلة بجلاء أكثر. إن المدينة الفاضلة هي التي ينشد أهلها السعادة الحقيقية

ويكونون متضامنين متآزرين خاضعين لرئيس حكيم، فإذا ما فقدت الحكمة وعمَّ الجهل أو أعرض الناس عن السعادة الحقيقية، نشأت مدن كثيرة مضادة للمدينة المثلى. وهذه المضادات هي المدينة الجاهلة والمدينة المتبدلة والمدينة الضالة والمدينة الفاسقة.

أ - أما المدينة الجاهلة فهي التي لم يعرف أهلها السعادة الحقيقية لأنهم حرصوا غاية حياتهم على الحصول على سلامة الأبدان والغنى واللذات والكرامة دون قيد ولا شريعة. وتتقسم هذه المدينة إلى أقسام:

١ - المدينة الضرورية وهي التي يقتصر أهلها على الضروري: ما به قوام الأبدان من مأكول ومشروب وملبوس وسكن، والتعاون على استفادتها.

٢ - المدينة البدالة: وهي التي يتعاون أهلها على نيل اليسار والثروة ويجعلون الغبطة في الأموال وحدها.

٣ - مدينة الخسة والشقوة: وهي التي قَصْد أهلها الاستمتاع باللذات والتخيلات والعبث والمجون.

٤ - مدينة الكرامة: وهي التي يطمح أهلها إلى نيل المجد والعظمة والشهرة.

٥ - مدينة التغلب: وهي التي يرغب أهلها في البطش والسيطرة والتغلب.

٦ - المدينة الجماعية: وهي التي يتفق سكانها على أن يكونوا أحرارًا يفعلون ما يشاؤون دون رادع أو مانع.

ب - والمدينة الفاسقة هي التي عرف أهلها ما عرف أهل المدينة الفاضلة من أمر السعادة، ولكن أعمالهم خالفت أفكارهم وانغمسوا في الشهوات، وانصرفوا إلى البحث عن المجد الزائف والإباحة.

جـ - المدينة المتبدلة: هي التي كانت آراء أهلها حسنة ثم فسدت وتسرَّب إليها الضلال.

د - وأما المدينة الضالة فاعتقاد أهلها بالله والعقل الفعّال فاسد ويكون رئيسها مغرورًا مخادعًا. هذا وليست هذه المدن في تضاد مع المدينة الفاضلة فحسب، بل في المدينة الفاضلة نفسها وفي غيرها من المدن نوابت. والنوابت شأنها شأن الشوك النابت بين الزروع أو الحشائش الضارة النابتة بين الأغراس، بل هو يرى أن ثمة أناسًا بهيمين بالطبع بعضهم يشبه البهائم الإنسية وهؤلاء يصح أن يُستعبدوا كالبهائم، وبعضهم يشبه البهائم الوحشية التي يصح أن يُعمل بها ما يعمل بالحيوان الضار.

ويعرض الفارابي آراء أهل المدينة الجاهلة وما دونها ويشرحها ويحللها كالتالي:

١ - قال جماعة إن الأرض ميدان لتنازع البقاء وأن كل اجتماع منافٍ لطبيعة البشرية. وعلل ذلك بأن كل حيوان قد أُعطي ما يحافظ به على وجوده وما يمكِّنه من الوثوب على غيره والظفر به لإذلاله أو إفنائه، حتى يخيل أن الطبيعة تستهدف بقاء كل واحد دون غيره... ومن أجل هذا نجد الوحوش والسباع تتعارك وما كان منها أشد فتكًا ظفر بغيره. ولأن هذه الحال طبيعية في الحيوان وجب أن تكون طبيعية في الإنسان أيضًا، فتكون المدينة إذّاك ميدانًا يتصارع فيه الناس، والوجود لمن غلب والسعادة لمن ظفر، وأما الضعيف فإلى العبودية أو الاضمحلال... ويُسمّي الفارابي هذا الرأي بالداء السبعي.

٢ - ورأى قوم أن الاجتماع يقوم على العمل من أجل التسلط والقهر: شخص قوي يُخضع الناس لسلطانه ويستعبدهم، ثم يقهر بهم آخرين إلى أن يملك وحده، وتتوافر له جميع أسباب السعادة أو يقوم على قصد الاستمتاع باللذات.

٣ - وزعم بعضهم أن الاجتماع يصدر عن التحابّ والائتلاف ومرد ذلك التفرع عن أب واحد أو المصاهرة.

٤ - ومنهم من ادعى أن الاجتماع يرجع إلى الانضواء إلى رئيس واحد يضمن لجماعته الغلبة والانتصار، أو يرجع إلى التحالف والتعاهد بين الأفراد على أن يكونوا يدًا واحدة وقلبًا واحدًا في

الدفاع والغلبة، أو يرجع إلى التشابه في الخلق والسجايا والاشتراك في اللغة أو المنـــزل والمحلة والمدينة والصقع.

أمّا العدل في نظر هؤلاء فهو ما يدعو إليه الطبع من التغلب والقهر، وهو استعباد القاهر للمقهور وأن يفعل المقهور ما هو الأنفع للقاهر.

أمّا نفوس أهل المدن الجاهلة بعد الموت فإنها تصير إلى العدم لأنها لم تنزع إلا إلى المادة والشهوات.

أمّا أهل سائر المدن فمن عرف منهم الحق والله والعقول المفارقة، ولم توافق أعماله اعتقادَه بل انقاد إلى الميول الحيوانية، فلا تفنى نفسه بعد الموت لأن اعتقاده الصحيح يضمن له الخلود. بيد أن المعاصي التي ارتكبها هؤلاء فتخلق في نفوسهم هيئات شنيعة تسبب لهم ألمًا عظيمًا... إن أهل الشرِّ يتصل بعضهم ببعض في هذه الدنيا وفي الآخرة وكلهم للشقاء مُعَدُّون.

هذا عرض موجز لتصور المدينة الفاضلة التي أتى به الفارابي وهو تصور كما يلاحظ شامل ومحكم الصلة بآرائه الفلسفية، كما أنه لم يغفل عن التفصيل في مضادات هذه المدينة الفاضلة من أنواع المدن الأخرى.

٦ - جمهورية أفلاطون:

ولئن كانت المدينة الفاضلة نسيجًا خاصًا، وكان الفارابي في بنائه الفلسفي الاجتماعي الشامخ هذا، نافذ الفكر خصب المخيلة دقيق النظر كريم القصد، فإنه لم يكن أول من تصور مدينة تغاير الواقع الذي يعيش فيه الناس، وتمثل ما يضطرب في نفوسهم من تطلعات وآمال، وما يفعم عقولهم وقلوبهم من تصورات وأحلام، إذ إن السبق في ذلك يعود بالدرجة الأولى إلى حكيم الإغريق أفلاطون في كتابه الشهير «جمهورية أفلاطون».

والحقُّ أنّه عسير غاية العسر أن يتحدث متحدث عن المدينة الفاضلة للفارابي دون أن يتحدث عن جمهورية أفلاطون، ولذا لا أرى بُدًّا من إلقاء نظرة عَجْلى على كتاب فيلسوف الإغريق.

انطلق أفلاطون في كتابه «الجمهورية» من فكرة الدولة فقال: إنَّ الدولة تنشأ لعدم استقلال الفرد بِسَدِّ حاجاته بنفسه وافتقاره إلى معونة الآخرين. فحاجات الإنسان عديدة: قوت وكساء ومسكن، ولذا تعددت الأعمال والمهن التي يمارسها الناس لتوفير حاجة كل منهم. وعندما يتقدم البشر يزدادون تأنقًا في العيش والرفاهية، فينتقلون من الضروريات إلى الكماليات وتنشأ حِرَف جديدة لتوفير هذه الكماليات. ومتى بلغت المدينة درجة

الرفاهية والبحبوحة في العيش طمع بها سكان المدن الأخرى وفكروا بغزوها وسلبها، وهذا ما يدفعها إلى تجهيز جيش للدفاع عن نفسها. غير أن الجنود قوة ينبغي أن تنظم أمورها كيلا يتعدَّوا مهمتهم. ومن أجل هذا يجب تسليم زمام السلطة إلى حكام يَسُنُّون الشرائع ويطبقونها ويُحافظون على العدل. وتتألف الدولة في نظر أفلاطون، من ثلاث طبقات: طبقة الحكام وطبقة الجنود وطبقة الصناع والعمال، وهو قد استوحى فكرة الطبقات الثلاث من نظرته الفلسفية إلى الإنسان ورؤيته فيه ثلاث قوى: قوة رفيعة هي العقل، والنفس الغضبية ومركزها القلب والنفس الشهوانية ومركزها البطن، وصحة النفس إنما تكون بتوازن هذه القوى وخضوع أدناها لأعلاها.

وقد سمى أفلاطون طبقة الحكام الطبقة الذهبية وفضيلتها العقل، وطبقة الجند الطبقة الفضية وفضيلتها الشجاعة، وطبقة الصناع الطبقة النحاسية وفضيلتها العفة. وأما الحكم فهو للفلاسفة لأنهم أجدر الناس به وجدارتهم قائمة على المعرفة، والمعرفة والفضيلة في اعتباره شيءٌ واحد.

ولكن من يكون الحاكم؟ ومن يكون الجندي؟ ومن يكون العامل؟ إن أفلاطون يعتمد التربية وسيلة لتنظيم ذلك كله، والتربية إنما تنهض بها الدولة. تحدد سن الزواج بين الثلاثين والخمسة والخمسين للرجل، وبين العشرين والأربعين للمرأة،

ولا يصح الزواج ما لم يبرز العروسان بيانًا طبيًا يثبت خلوهما من الأمراض. المولود ذو العاهة أو البَيِّن الضعف يُطرح خارج المدينة ويُترك عريانًا حتى يموت، وأما الأولاد الأصحاء فينـــزعون من أحضان أمهاتهم ويُنقلون إلى مراضع عامة خاضعة لإشراف الحكومة. وعندما يترعرع الأولاد يُعطَون تربية بدنية وثقافية وموسيقية، وذلك حتى يُتمّوا السادسة عشرة، وفي هذه السن ينصرف الفتى إلى تحصيل مبادئ العلوم مدة أربع سنوات. وعند بلوغ الشاب العشرين من العمر يتقدم لاجتياز أول امتحان فمن رسب من الشبان تعيّنُهُ الحكومة في الأعمال المختلفة، وأما الناجحون فيتابعون ثقافتهم البدنية والعقلية عشر سنوات أخرى، ثم يدخلون امتحانًا ثانيًا أدق من الأول، فمن سقط عمل ضابطًا أو جنديًا ومن نجح خُصِّص لدراسة الفلسفة: الإلهيات والمعقولات والمُثُل وعلم السياسة أو فن الإدارة والحكم وذلك مدة خمس سنوات. ولكن هل يكفي هذا التأهيل لإعداد الحكَّام؟ لا لأن من ترشح لقيادة الأمة يجب أن يتصل بأفرادها ويخوض غمار الحياة، ولذا يطلب أفلاطون أن يدخل المرشحون طور ثقافة جديدًا على مسرح الحياة، حيث يحصِّلون رزقهم بجدهم وعنائهم مدة خمس عشرة سنة، ومن فاز في معركة الحياة، ويكون قد بلغ الخمسين كان من أهل الجدارة والاستحقاق، ويُمنح هؤلاء السلطة كلها، ولكنهم لا تكون لهم

أملاك. ولن تكون للمدينة قوانين بل تعرض كلّ القضايا والمنازعات على الملوك – الفلاسفة ليفصلوا فيها بحكمتهم التي لم تفسدها السوابق. ولكن لا يكون لهؤلاء الملوك – الفلاسفة مُلك ولا مال، ولا أُسر، ولا زوجات يختصون بهن على الدوام، وذلك لكي لا يُسيئوا استعمال سلطتهم. ويتولى الشعب التصرف في أموال المدينة كما يتولى الجند السلطة العسكرية. وليست الشيوعية عند أفلاطون نوعًا من الديمقراطية، بل هي أرستقراطية، يعجز عن بلوغها عامة الشعب، ولا يتحملها إلا الجنود والفلاسفة.

أما الزواج فيجب أن ينظمه الحكام لجميع الطبقات تنظيمًا دقيقًا يهدف إلى غرض مقدس هو تحسين النسل: «فيجب أن يجتمع أفضل الجنسين بعضهما ببعض أكثر ما يستطيعون، وأن يجتمع المنحطون من الرجال بالمنحطات من النساء، ثم يُربى أبناء الأولين ولا يُربى أبناء الآخرين، لأن هذه هي السبيل الوحيدة للاحتفاظ بالشعب في حالة صالحة». وعلى الدولة أن تتولى تربية الأطفال جميعهم وتقدم لهم فرصًا للتعليم متكافئة. ويجب ألا تكون الطبقات وراثية، وأن يكون للبنات من الفرص مثل ما للأولاد، وألا تُمنع النساء من تَوَلِّي مناصب الدولة لأنهنَّ نساء. ويعتقد أفلاطون أنه بهذا المزيج من الفردية والشيوعية، وبالعمل على تحسين النسل، ومساواة المرأة بالرجل في الحقوق، يمكن أن يوجد مجتمع يَسُرُّ الفيلسوف أن يعيش فيه. ويختم بحثه بالعبارة الآتية:

«وإلى أن يكون الفلاسفة ملوكًا، أو أن يتشبع ملوك هذا العالم وأمراؤه بروح الفلسفة وقوتها... لن تنجو المدن ولن ينجو الجنس البشري من الشر».

ليس للوراثة دور بل الحكم لمن فاق سواه صفاءَ ذهن وقوةَ جسم ونبلَ خلق. يقول أفلاطون: «لا يمكن زوال تعاسة الدول وشقاء النوع الإنساني ما لم يملك الفلاسفة، أو يتفلسف الحكام فلسفة صحيحة تامة».

وأما صفات الفيلسوف الحاكم في ضوء ذلك فهي أن يكون محبًّا للمعرفة صادقًا قنوعًا مترفعًا عن الصغائر، زاهدًا سريع الخاطر قوي الذاكرة متذوقًا للجمال. ولكن ألا تتعرض هذه الجمهورية التي رفع أفلاطون بنيانها للسقوط؟. يُجيب: بلى، إذا فُقد التوازن بين طبقاتها الثلاث وأخلَّت كل منها بواجباتها. فقد يتفق الحكام والجند على اغتصاب أموال الشعب واستعباده، إذّاك تكون الحكومة تيموقراطية[١] timocratic. وقد ينصرف الحكام إلى الملذات فيستولي على الحكم التجار والصيارفة فتصير الدولة أوليغاركية[٢]. وفي أحضان الدولة الأوليغاركية تتمايز طبقة

---

(١) وهي الحكومة القائمة على حُب المجد العسكري.

(٢) وهي حكومة تهيمن عليها جماعة صغيرة، همّها الاستغلال وتحقيق المنافع الذاتية.

الأغنياء عن طبقة الفقراء، ويندلع الصراع الطبقي وتنفجر الثورة وتتولد من ذلك كله الدولة الديمقراطية. ويتوقع أفلاطون أن تدب الرذيلة في الدولة الديمقراطية وتنتشر الفوضى، فيقتل القوي الضعيف وينهب الفقير الغني ويتمرد العبيد على الأحرار... عندئذ يبحث الشعب عن منقذ يسلم له القيادة فيطغى هذا الحاكم ويستأثر بالسلطة، ويكثر من جباية الضرائب وخوض الحروب فتكون دولة الاستبداد. إن قوام المدينة الفُضْلى التضامن والحكمة والإخاء، فإذا ما فُقدت هذه المثل كان مآلها السقوط.

وإذا عقدنا مقارنة موجزة بين كتاب الجمهورية لأفلاطون وكتاب آراء أهل المدينة الفاضلة للفارابي وجدنا بينهما نقاطًا مشتركة ونقاط اختلاف.

٧ - المشترك والمتباين:

أ - نقاط الاشتراك:

١ - إنّ الاجتماع البشري أمر طبيعي تقتضيه حاجة الناس إلى سدِّ احتياجاتهم.

٢ - إنّ الاجتماع يقوم على توزيع الأعمال والمهام على أساس المقدرة والكفاءة.

٣ - إنّ الاجتماع يصلح إذا تولى الحكم فيلسوف يعلم ويُعلِّم ويُشرِّع ويُرشد وله صفات معلومة.

٤ - إنّ الاجتماع يجب أن يقوم على العدل أساسًا والسعادة هدفًا، فإن حاد عن ذلك تداعى البنيان وساد الظلم والاستبداد.

ب - نقاط الاختلاف:

إنّ جمهورية أفلاطون الذي عاش في القرن الرابع قبل الميلاد تُبْرز صورة المجتمع العبودي - صورة المدينة التي هي في الحقيقة قرية كبيرة وتكوِّن مع توابعها دويلة مستقلة يكون فيها الأحرار قلّة يحكمون ولهم كل الحقوق، والأرقاء كثرة يعملون ولا حقوق لهم: النظر منفصل عن العمل. أضف إلى ذلك أن أفلاطون الذي رفض ديمقراطية بريكلس وحُكْمَ عمه كريتياس الطاغية قد أغراه النموذج الإسبارطي spartan فدعا إلى دولة أريستوقراطية[1] تقوم على تمايز طبقي قاس.

أما الفارابي فقد عاش في القرن التاسع الهجري (الخامس عشر بعد الميلاد) في مجتمع متقدم على مجتمع أفلاطون. ولئن كان المجتمع إقطاعيًا فقد كان يتخلله قطاع واسع تجاري - حِرْفي ولذا نلمس في مدينته الفاضلة أثر العلاقات الاجتماعية الصاعدة، كما نلحظ ربطًا بين العلم والعمل عنده. ونتيجة ذلك لم يقصد الفارابي في بحثه قرية كبيرة أو دويلة المدينة بل

(١) وهي التي تديرها النخبة (طبقة الأشراف والنبلاء) ذات الامتيازات.

قصد المدينة الواسعة. إنّ المدينة في نظره هي البيئة التي تتحقق فيها مصالح الدولة وتظهر الفضائل الإنسانية. إنّ اتجاهه هذا ينسجم مع مطامح العاملين في التجارة والاقتصاد السلعي والحرفي، ويتنافى مع مصالح الطبقات الإقطاعية الطفيلية، وينسجم مع مركزية الحكم في دولة الخلافة المُضادَّة للبعثرة الإقطاعية التي كانت تقع في زمانه، بل هو يطمح إلى أبعد من ذلك عندما يفكر في المعمورة، أي دولة عالمية لبني الإنسان، يعمل أهلها بالتعاون على تحقيق السعادة للناس جميعًا. ومن الجدير بالملاحظة أن الفارابي يطرح فكرة القديم والجديد عندما يقول: «إنّ المدن الجاهلة إنما تحدث متى كانت الملة مبنية على بعض الآراء القديمة الفاسدة». إنه يمثل الأفق الذي بلغه التطور الاجتماعي والفكري في عصره، ويتجاوز الأفكار التي كانت سائدة في عصر الرق والعبودية والفوضى الإقطاعية. وتفرد أفلاطون بتعداد مضادات المدينة الفاضلة، وأتى من خلال ذلك بآراء مهمة عن تنازع البقاء وحكم الفرد وغير ذلك، وذهب في تصور الرئيس إلى ضرورة إعداده إعدادًا فكريًا وجسديًا وعمليًا، في حين أن الفارابي اعتمد على ما يتلقاه الرئيس من العقل الفعّال. لهذا نقول: إن الفارابي لم يكن مقلدًا ولكنه كان مفكرًا مبدعًا، ولئن كان في بنائه لَبِناتٌ من فلسفة الإغريق إلا أنه قد دعمه بما استمده من بيئته العربية

وعقيدته الإسلامية، ونظراته الشخصية فجاء بناؤه هذا فريدًا متميزًا شامخًا.

٨ - ملاحظات:

هنا يعرض سؤال: ما الذي حدا بأبي النصر الفارابي إلى تخيُّل المدينة الفاضلة؟ أكان ذلك مصادفة أم إنّ حياة الناس في زمنه وما كان يكتنفها من ظروف وأوضاع اقتصادية واجتماعية وفكرية وسياسية هي التي أوحت إليه بذلك. في اعتقادي أنه ليس من مذهب فكري أو نتاج ذهني أو إبداع فني لا يَمْتَحُ من الواقع ويرتبط بالزمان والمكان، فلكل أثر مؤثرات ولكل ظاهرة أسباب ولكل شجرة تزهر وتثمر جذور ضاربة في الأرض.

ولعل أهم ما يميز الإنسان ويصوغ سمته الفردية في سلم الكائنات إنما هو تلك النــزعة النبيلة التي تنطوي عليها نفسه نحو الأسمى، وتطلعه إلى حياة أفضل من الحياة التي يحياها. إنه لا يكتفي بالوجود بل يصبو إلى حسن الوجود، وليس همُّه أن يحفظ الحياة التي أُعطيها فحسب، بل همُّه أن يخصب هذه الحياة ويزيدها رفعة. وبفضل الجهد الذي بذله والعرق والدم اللذين ضحَّى بهما خلال القرون الطويلة من أجل إغناء الحياة الإنسانية وحياة الفرد وحياة الجماعة، صيغت الحضارة البشرية وتعالى صرحها الشاهق.

لقد كان في البدء عبدًا للطبيعة تخيفه عواديها وتنهكه شدائدها، فأعمل يده وعقله للتحرر من غوائلها، واستنبط الحيل لدفع كوارثها، وتحمل في هذا السبيل رَهَقًا كبيرًا لكنه أحرز تقدمًا وانتقل من نصر إلى نصر: اكتشف النار وأهّل الحيوان وبنى المساكن وابتكر الحرف واصطنع الأداة، وما يزال يسير في هذه الطريق حتى حطم الذرة وملك الفضاء في هذا العصر.

مسيرة شاقة ولكنها مسيرة ظافرة. ولكنّ ثمة مسيرة أخرى وصراعًا آخر هما مسيرة الإنسان نحو حياة لائقة به، وصراعه من أجل نيل حقوقه والتمتع بالحرية والمساواة والعدالة والكرامة. وخلال هذا الجهد المتصل المبلل بالدموع حينًا والمخضب بالدم حينًا آخر، طافت أحلام البشر تبحث عن مستقر آمن، عن فردوس في السماء أو فردوس في الأرض أو عنهما معًا، وتتطلع إلى السعادة فلعلها تبلغها في الحياة ولعلها تبلغها بعد الموت، هذه السعادة التي جعلها الفارابي وأفلاطون قبله غاية الإنسان القصوى.

إن الآمن السعيد لا يبحث عن الأمن والسعادة لأنه في رحابهما يعيش إنما يبحث عنهما الخائف والتعيس والمظلوم والمقهور.

الخاتمة

لقد عاصر الفارابي الأحداث الجسام التي مرَّت بها الخلافة العباسية خلال حياته التي امتدت ثمانين عامًا. ففي هذه المدة كان الاضطراب السياسي قد بلغ ذروته وتوزعت الدولة في عدد كبير من الدويلات والإمارات المتنافسة على السلطة والسيطرة، وآل النفوذ إلى عناصر من الفرس والترك أضعفت مركز الخلافة إضعافًا شديدًا. وتبع هذا الاضطراب السياسي الذي شهده الفارابي في بغداد وغيرها، اضطرابٌ اقتصادي واجتماعي واسع تمثَّل في نقص الموارد وتعطل أسباب الزراعة والتجارة، وانعدام الأمن ونشوب الخلافات الطائفية وظهور عصابات السُّرّاق وقطَّاع الطرق والمفسدين من أمثال الشطار والعيارين وما تبع ذلك من حروب وغارات وقحط وجوع.

وبعد فأين موقف الفارابي من ذلك كله؟ لقد كان موقفه موقف الرفض: رفض المجتمع الذي عاش فيه بتصوره مجتمعًا آخر، مدينة فاضلة يرأسها حكيم ويتعاون أهلها على نيل السعادة الحقيقية، منكرًا في ذلك مجتمع الإقطاع وبقايا الرق. وقد ضمَّن تصوره كل ما تمثله من ثقافات عصره مضيفًا إليه ما ابتدعته عبقريته الفذة، وكان سلوكه منسجمًا مع فكره، إذ عاش زاهدًا متصوفًا يكتفي بأيسر العيش.

وإذا كنا لا نلتقي مع الفارابي في جزئيات أفكاره، فإننا نتطلع مثله إلى مجتمع عربي فاضل موحَّد، ينتفي فيه الاستغلال وينعم أفراده بالسعادة الحقة، وإلى أن تجد البشرية جمعاء السبيل إلى حياة فضلى تنعم فيها بحياة إنسانية كريمة، وأمن وسلام وعدالة حقة.

المراجع

١ - «كتاب آراء أهل المدينة الفاضلة» لأبي نصر الفارابي. قَدَّم له وعلق عليه الدكتور البير نصري نادر أستاذ الفلسفة في الجامعة اللبنانية، الطبعة الثامنة، دار الشروق ببيروت عام ٢٠٠٠م.

٢ - كتاب «جمهورية أفلاطون» ترجمة الأستاذ حنا خباز وإصدار دار القلم ببيروت، الطبعة الثانية.

٣ - كتاب «الجمع بين رأيي الحكيمين» لأبي نصر الفارابي. قدَّم له وعلق عليه البير نصري نادر أستاذ الفلسفة في الجامعة اللبنانية، الطبعة الخامسة - دار الشروق ببيروت عام ٢٠٠١م.

٤ - كتاب «التعليقات» لأبي نصر الفارابي، حققه وقدَّم له وعلق عليه الدكتور جعفر آل ياسين الطبعة الأولى، دار المناهل ببيروت عام ١٩٨٨م.

٥ - كتاب «تاريخ فلاسفة الإسلام في المشرق والمغرب» تأليف محمد لطفي جمعة، مطبعة المعارف عام ١٩٢٧م.

٦ - كتاب «تاريخ حكماء الإسلام» تأليف ظهير الدين البيهقي. عُني بتحقيقه ونشره الأستاذ العلامة محمد كرد علي، مطبعة الترقي بدمشق عام ١٩٤٦م.

٧ - كتاب «قصة الحضارة» تأليف وِل ديورانت، الجزء الثاني من المجلد الثاني ترجمة محمد بدران، إصدار دار الجيل ببيروت/ لبنان عام ١٩٨٨م.

٨ - كتاب «مآثر العرب العلمية أساس حضارة الغرب» تأليف فؤاد جميعان، الطبعة الثانية، إصدار المؤسسة العربية للدراسات والنشر ببيروت عام ٢٠٠١م.

٩ - بحث موضوعه «المدينة الفاضلة عند الفارابي» شحادة الخوري، قُدِّم في أسبوع العلم الذي يُقيمه المجلس الأعلى للعلوم في سورية عام ١٩٧٥، ونُشر في مجلة «المعلم العربي» التي تصدرها وزارة التربية بسورية العدد (١) عام ١٩٧٦م.

بين

جبران والشابي(*)





(*) قاعة المحاضرات بالمركز الثقافي العربي بالعدوي بدمشق في ٢٧ كانون الثاني ٢٠٠٥ .

المقدمة:

• بين سواحل لبنان الفينيقية وشواطئ تونس الإفريقية، بين جبال لبنان الشماء التي تكسوها أشجار الأرز وتكللها الثلوج الناصعة البياض وبين سهول تونس الخضراء المنبسطة على مقربة من البحر والتي تلامس الصحراء في الجنوب، جسر ممتد فوق البحر الأبيض المتوسط نسجته الطبيعة وصنعه الإنسان منذ زمن بعيد، وما زال قائماً حتى اليوم ولم تزده الأيام إلا قوة وصلابة، جسر يربط المشرق العربي بالمغرب العربي برباط الأخوة والمودة والقربى.

لقد أرست الأميرة عِلِّيسة «أليسار أو ديدون» مراكبها في منطقة من خليج تونس في مطلع القرن التاسع قبل الميلاد، وأسست مدينة قرطاج (قرط حدشت) بمعنى المدينة الحديثة عام ٨١٤ ق.م. وما لبثت هذه المدينة أن غدت مركزاً للتجارة ينافس روما ويغالبها، وكان منها العالم في الفلاحة ماغون والقائد الشهير حنّبعل، وقد هدمها الرومان عام ١٤٦ ق.م، بعد معارك قاسية وحروب طويلة الأمد.

وفي القرن السابع للميلاد فتح القائد العربي عقبة بن نافع إفريقية وأسس القيروان عام ٦٧٠م ثم دخلتها جموع بني هلال

في القرن الحادي عشر الميلادي، فصارت من ديار العرب لساناً ومعتقداً وثقافة منذ ذلك الحين إلى اليوم.

لقد اختلط الناس بين مشرق المتوسط وجنوبه بالزواج والمعيشة وتوحدت اللغة والعادات والتقاليد واتصلت الآداب والفنون والمعارف وامتزجت ببعضها مما أوجد بين الجانبين تماثلاً في الأهداف والغايات وفي المنهج والأسلوب.

• نجم من لبنان شع في بوسطن وباريس ونيويورك في الثلث الأول من القرن العشرين فملأ الدنيا ضياءً وروى النفوس الظامئة إلى الكلمة الحلوة المجنحة الصادقة، هو جبران خليل جبران. وقابله نجم ثانٍ من الجنوب التونسي شع في الوطن العربي فأيقظ في الناس مشاعرهم وغذّى توقهم إلى الحرية والانعتاق وكسر القيود والأغلال هو أبو القاسم الشابي.

أُعجب أبو القاسم بجبران إعجاباً شديداً، وكان يصغره بستة وعشرين عاماً، فتأثر به فكراً وأسلوباً ووجد فيه المثال الذي إليه يتطلع والأنموذج الذي به يقتدي.

قال الأديب المعروف خليفة محمد التليسي في كتابه (الشابي وجبران): «الشابي تلميذ نابغ لجبران، والتلمذة تعني التشابه في فلسفة الحياة والخصائص الفنية». ويذكر أن جبران والشابي قد التقيا على الأفكار التالية: النقمة على التخلف، محاربة الجمود،

حب الطبيعة، تقديس الحرية، احترام الإنسان، الإيمان بالطموح، وعبادة الفن. وأما في الأسلوب فقد التقيا على الصدق في الشعور، والعبارة التصويرية، وبساطة الأداء في التعبير.

قال التليسي بحق: الشابي تلميذ نابغ لجبران، والنابغ ليس تابعاً أو مقلداً، بل هو نسيج وحده، صوت متفرد، وشاعر مغرد، عاش سنواتٍ قليلة واختطفته المنون قبل أن يكمل السادسة والعشرين من عمره، تاركاً وراءه أثراً لا يمحى في أدب العرب والإنسانية.

فمن يكون هذان الأديبان اللذان ملأا الدنيا وشغلا الناس وحملا مشعل الشعر باقتدار في أحلك الظروف والأيام نوراً هادياً لأبناء أمتهم ليسيروا في طريق النهوض والتقدم، طريق الحرية والكرامة.

أولاً - جبران خليل جبران:

• في بلدة بشري، شمال لبنان، أبصر جبران النور في السادس من كانون الأول عام ١٨٨٣. أبوه خليل جبران وأمه كاملة رحمة، وله أختان شقيقتان: مريانا وسلطانة. أصله من دمشق لكن أجداده نزحوا إلى بعلبك ثم إلى قرية بشعلا اللبنانية ثم إلى بشري القريبة من الأرز.

تعلم مبادئ القراءة والكتابة في مدرسة القرية بالعربية والسريانية. وحمل الفقرُ والدتَه على الهجرة إلى الولايات المتحدة، دون أبيه، مع ولدها جبران وشقيقتيه وأخ لجبران غير شقيق، وكان جبران آنذاك دون الحادية عشرة.

دخل في بوسطن مدرسة الغرباء فتعلم الإنكليزية ومارس الرسم الذي كان يحبه وشارك في أحد المعارض الفنية وهو فتى.

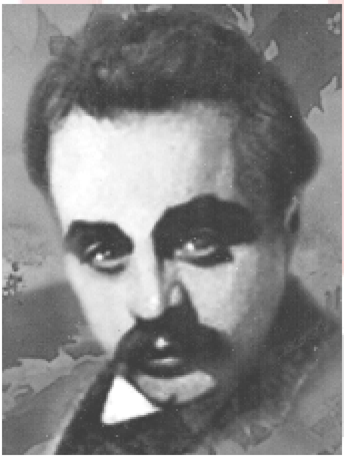
عاد إلى لبنان بعونٍ من أخته ليستأنف تعلم العربية فقضى سنتين ونصفاً ١٨٩٦ -١٨٩٩ في مدرسة الحكمة ببيروت، وتابع الرسم وبدأ الكتابة الأدبية، كذلك تعلم اللغة الفرنسية.

ثم عاد إلى بوسطن حيث لبث سبع سنوات، وهناك ماتت أمه وأخته سلطانة، وخط كتابه «دمعة وابتسامة» والتقى ماري هاسكل عام ١٩٠٤ وأعدَّ كتابه «عرائس المروج» وطبع أول كتبه: «الموسيقى» عام ١٩٠٥.

سافر إلى باريس عام ١٩٠٨ على نفقة ماري هاسكل، والتحق بأكاديمية فنية لدراسة الرسم والنحت. وهناك قرأ بليك ونيتشه وبعض الأدباء الفرنسيين والإنكليز، وأصدر كتابه: «الأرواح المتمردة» وشارك في معارض الرسم.

وأخيراً انتقل إلى نيويورك - بروكلن عام ١٩١١ وجعلها مقره الدائم. وهناك أسس الرابطة القلمية عام ١٩٢٠[١] وانتخب عميداً لها، ونشر كتابه «النبي» بالإنكليزية عام ١٩٢٣، هذا الكتاب الذي ترجم إلى أربعين لغة.

ومرض جبران في بلد المهجر وتوفي هناك في العاشر من نيسان ١٩٣١ ولما يتم الثامنة والأربعين من العمر.



جبران خليل جبران

---

(١) تألفت الرابطة القلمية عام ١٩٢٠ من عشرة أعضاء هم:
١- جبران خليل جبران: عميداً ٢- ميخائيل نعيمة: مستشاراً ٣- وليم كاتسفليس: خازناً ٤- نسيب عريضة ٥- إيليا أبو ماضي ٦- عبد المسيح حداد ٧- رشيد أيوب ٨- ندره حداد ٩- وديع باحوط ١٠- إلياس عطا الله: أعضاء.
واستمرت الرابطة عشر سنوات. وكانت مجلة «الفنون» لنسيب عريضة التي تأسست عام ١٩١٢ لسان حال الرابطة. ولما توقفت هذه المجلة عن الصدور قامت مقامها جريدة السائح لعبد المسيح حداد.

/ أكتوبر سنة ١٩٣٤.

ثانياً: أبو القاسم الشابي:

أما أبو القاسم الشابي، فقد ولد في بلدة «الشابيَّة» إحدى ضواحي مدينة توزر في جنوب تونس في شهر آذار ١٩٠٩.

تلقى تعليمه الأولي في المدارس القرآنية وأتم حفظ القرآن الكريم وهو في التاسعة من عمره.

انتقل إلى تونس العاصمة حيث تلقى ثقافة تقليدية في جامع الزيتونة، وحفزه حبه للأدب والثقافة إلى مطالعة الآداب الحديثة وخاصة إنتاج أدباء المهجر ومال إلى الأدب الرومانسي المترجم إلى جانب اطلاعه على الأدب العربي القديم.

نال من الجامعة الزيتونية شهادة التطويع سنة ١٩٢٧ والتحق بكلية الحقوق فتخرج منها بنجاح عام ١٩٣٠.

بدأ ينظم الشعر منذ حداثته، فكتب قصائد في الحب والوطنية والطبيعة. ونشرت هذه القصائد في الصحف والمجلات التونسية والعربية، أبرزها مجلة (أبولو) بمصر التي عَرَّفت بإنتاجه تعريفاً حسناً. وقد استقبل القراء العرب هذا النتاج الشعري الذي يكشف عن موهبة قوية وإبداع مشرق، بحرارة وتقدير.

ولكن، بداية من عام ١٩٢٩، دهمه مرض عضال فتحمَّل أوجاعه بصبر وشجاعة حتى وافته المنية بمدينة تونس في اليوم التاسع من شهر تشرين الأول الدار التونسية للنشر، كتب محمد الأمين الشابي عنه يقول: «كان أبو القاسم نحيف الجسم، مديد القامة، قوي البديهة، سريع الانفعال، حاد الذهن، تكفكف رقة طبعه من قوة عاطفته وحدَّة ذهنه. يراه أصدقاؤه بشوشاً، كريماً، وديعاً، متأنقاً، طروباً لمجالس الأدب، يحب الفكاهة الأدبية ويراه من لا يخالطه حبيباً محتشماً، مع صراحة حازمة قوية... وكان محباً لبلاده، صادق الوطنية يؤمن بأن لقادة الفكر رسالة إنسانية حاول جهده أن يحققها أثناء حياته القصيرة، قولاً وعملاً.

إنه يخاطب نفسه بقوله:

خلقتَ طليقاً كطيفِ النسيمِ وحراً كنورِ الضحى في سماه

ألا انهضْ وسرْ فيسبيلِ الحياةِ فمن نامَ لم تنتظرْه الحياة

أهم آثاره:

ديوان شعر «أغاني الحياة» و«مذكرات» و«مجموعة رسائل» والمحاضرة التي عالج فيها موضوع «الخيال الشعري عند العرب» والتي ألقاها في نادي قدماء الصادقية بتونس سنة ١٩٢٩ فأثارت ضجة كبيرة في الأوساط الأدبية.



آخر صورة لأبي القاسم الشابي

ثالثاً: المنطلق المشترك:

قلت إن جبران والشابي قد التقيا على أفكار كثيرة عددناها. ولكن ما الجامع بين هذه الأفكار؟ ولِمَ انطلق الشاعران الكبيران من منطلق واحد، وتوخيا تحقيق هدف واحد؟

إن منطلقَ هذه الأفكار والجامعَ بينها هو، بالإضافة إلى الظروف الشخصية القاسية والقاتمة التي عاش في ظلها كل من الشاعرين: جبران والشابي، هو رفضهما الأوضاع الاجتماعية والثقافية والسياسة التي عاشا في كنفها، والثورة على جميع

مظاهرها وأشكالها المادية والفكرية التي تكبل الإنسان العربي وتشل حركته وتقيد نشاطه.

في الداخل الإقطاع المستشري وما يجر معه من فقر وجهل واستكانة وتمسك بالقديم البالي والركون إلى عادات وتقاليد أكل عليها الدهر وشرب، ومن الخارج يتسلط الاستعمار فيسلبُ الشعبَ حريته ويشل قدرته على الإنتاج والإبداع. ولذا كان الهدف الذي ترسَّمَهُ كلٌّ من الشاعرين إطلاقَ النهضة بكل معانيها وتجلياتها، النهضة التي تخلص الإنسان من الحكم الفاسد والإقطاع الظالم والاستعمار البغيض. ومن أولى من الشاعر وأحقُّ منه بإيقاظ النيام وتنبيه الغافلين وبثِّ الوعي في العقول والحميَّة في القلوب والقوة في العزائم؟

يرد جبران على ناقديه الذين لاموه على نزعة التشاؤم التي تسري في كلماته بقوله: «**إن كان هناك من يريد أن يبدِّل نوحي بالضحك، ويحوِّل اشمئزازي إلى الانعطاف، وتطرفي إلى الاعتدال، فعليه أن يُرِيَني بين الشرقيين حاكماً عادلاً ومشترعاً مستقيماً ورئيس دين يعمل بما يعلم، وزوجاً ينظر إلى امرأته بالعين التي يرى بها نفسه**».

• إن البيئة الاجتماعية اللبنانية التي ولد جبران في كنفها لهي أقسى من أن تُحتَمل. فقد تضافر فيها الخاص والعام ليجعلاها ثقيلة الوطأة شديدة المرارة.

لقد أنجبت والدته كاملة رحمة من زوجها خليل صبياً هو جبران وبنتين هما مريانا وسلطانة. ولكن والده الذي كان يعمل جابياً لرسوم الماشية قد انغمس في لعب القمار ومعاقرة الخمرة وأهمل زوجته وأولاده، فما كان من الأم إلا أن هربت من الفقر والشقاء وهاجرت إلى الولايات المتحدة مع ولدها جبران وابنتيها وولد آخر لها يدعى بطرس من زوج سابق. ونزلت في مدينة بوسطن على الساحل الشرقي في ٢٥ حزيران ١٨٩٤ وسكنت الحي الصيني، وحملت الكشة تبيع الشراشف لتُعيل أولادها. فَكَمِ اختزن جبران، وكان آنئذٍ دون الحادية عشرة، في نفسه من صور قاسية وذكريات مريرة!

وأما الشأن العام في لبنان في تلك الأيام فيحدثنا عنه المفكر المعروف أحمد أمين: «جاء مدحت باشا إلى الوجود والدنيا مدبرة عن الدولة العثمانية، وحركة الجزر تلي حركة المدّ. حكامٌ في كل ولاية يحكمون البلاد بعقول ضيقة وشهوات واسعة. فخفخة في المظهر وسخف في المخبر، لا يقيدهم قانون، ولا يردعهم عدل ولا يرون للشعوب حقاً إلاَّ أن تُؤمَر فتطيع، وتُنهَب فتصبِر، بل لا يكفيهم الصبر على المصيبة، بل يتطلبون المدح والثناء عليهم في ظلمهم وطريقة حكمهم، فمن امتعض من ذلك فهو ثائر، ومن شكا فهو كافر. فأوردت هذه السياسة الهجرةَ عند من احتفظ بإبائه، والذلَّ والهوانَ عند من لصق بأرضه، لا عناية

بصحة ولا تعليم، فالأمراض ناشبة والجهل عميم، والمسلمون في ذلك أسوأ حالاً من المسيحيين».

الهجرة! أجل الهجرة، فغريزة البقاء هي الأقوى، والعيش في المذلة موت، والقبول بالظلم والجَوْر هوان. قال الشاعر أمين ناصر الدين في ديوانه «الإلهام» يخاطب لبنان:

أَمسى بنوكَ وما في الحيِّ مَرْتَزَقٌ
لهـــمْ ولا لأَبِـــيٍّ مـــنهمُ شُـــغُلُ
فأَزمعوا البُعْدَ عن أوطانِهم حَذَراً
من فاقةٍ أهلها بين الـــورى هَمَـــلُ
مَضَوا وقد حَمَلَـــتهم كـــلُّ جاريـــةٍ
تُغري العُبابَ وفيها النـــارُ تـــشتعلُ
لم يبرحوكَ اختيـــاراً غيـــرَ أَنَّهُـــمُ
ضاقت بهم جنباتُ العيشِ فـــانتقلوا

وقال إيليا أبو ماضي:

لبنـــانُ لا تَعْـــذُلْ بنيـــكَ إذا هُـــمُ
ركبُوا إلـــى العليـــاءِ كـــلَّ ســـفينِ
لـــم يهجـــروك ملالـــةً، لكـــنَّهُمْ
خُلِقـــوا لـــصيدِ اللؤلـــؤِ المكنـــونِ

لمـــا ولَـــدْتَهُمُ نُـــسوراً حَلَّقـــوا

لا يقنعـــونَ مـــن العـــلا بالـــدونِ

والنَّسرُ لا يرضى السجونَ وإن تكنْ

ذَهباً، فكيف محابسٌ مـــن طـــين؟

رجال، نساء، وأطفال، هجروا منازلهم في الساحل والجبل التي تستحم بنور الشمس وضوء القمر، وتستظل بأشجار الأرز واللوز والسنديان، ركبوا الخطر إلى ديار لا يعرفونها وأناس لا يألفهونهم هرباً من الجوع والظلم والمهانة، لا دولة تحميهم ولا علم يظللهم، فهم (تركُ) وليس أبناء عرب، يا للضياع والتيه! ولكن أَنَّى العودة وقد بَعُدَتِ الدار ونأى المزار.

ولكن الشهاب لا ينطفئ نوره ولو هبت عليه الرياح، والوردة تظل وردة ولا تنقلب عوسجة وإن عطشت، والحديد يزداد صلابة كلما لذعته النار وأوجعته المطارق.. لقد ذلل المغتربون كل صعب، وارتادوا المناهل بجرأة وعزم، فلانت لهم الدنيا، وتجلى نبوغ من كان نابغاً عبقرياً في العلم والعمل والأدب والفن.

• وماذا عن البيئة العامة التي ولد فيها أبو القاسم الشابي وعاش؟ يذكر الأديب الليبي الكبير خليفة محمد التليسي في كتابه الشائق «الشابي وجبران» عن تلك البيئة ما يلي: «لم يعرف

الشباب العربي، في جميع عصوره التاريخية أزمة صراع خانقة، تبلغ من العمق ما تبلغه الأزمة التي يمر بها في الوقت الحاضر. وقد بدأت مظاهر هذه الأزمة منذ أن أطل الاستعمار بوجهه الكالح على البلدان العربية، ومنذ أن تغلغل فيها ناشراً الفوضى والجهل والعماية، مستغلاً كل مالها من إمكانات، استغلالاً ألقى بالشباب الوطني العامل إلى الفراغ الذي نبهه إلى الخطر الزاحف. وجد مقاليد أمره تُدار من قبل الأجانب الواغلين، ولا حيلةَ له في توجيهِ سياسة بلاده أو العملِ على إسعادها، فهو مضروبٌ على يده محجورٌ عليه العمل في هذا السبيل، إلا إذا كان ما يعمله متمشياً مع سياسة الواغل الدخيل، وإلا فإن أقل ما يمكن أن يتعرض إليه، محاربةٌ قد تنتهي به إلى الموت، أو العذاب المميت..» ولا غرابة في أن يعمل المستعمر الدخيل على قتل هذه الشخصية، فتلك طريقته في المحافظة على كيانه. وإنما الغريب حقاً أن تجد هذه المحاربة نصيراً من البيئة، بما كان يحيط بها من تقاليد زائفة وعادات مريضة تسربت إليها من عصور الانحطاط وأناخت على الوطن العربي، حتى جعلت حياة الشباب ظلمة حالكة... تلك هي الحقائق المرة. واستكمالاً لهذه الصورة لواقع مرير كانت تعيشه تونس في ظل الاحتلال منذ عام ١٨٨١، يذكر التليسي أنه في ذلك «الجو القاتم الذي أتلفت فيه قوى الاستعمار كل معاني الحرية، وأهدرتِ الكرامة

الشخصية بما كانت تسنُّه من قوانين جائرة ظالمة، أصدرت سنة ١٩٢٦ قوانين قضت بها على جميع الحريات العامة وبينها حرية الصحافة، وأصبح كل فرد في تونس لا يطمئن على نفسه من إرهاق السلطة الفرنسية ولو كان في عقر بيته، إذ أضحى عرضة لأقصى العقوبات على ما يفوه به من أحاديث في مجالسة الخاصة. ثم عززت السلطة هذه التشريعات الجائرة بأوامرَ أخرى صدرت في ٢٧ مايو/ أيار ١٩٣٣ أعطت بمقتضاها للمقيم العام الفرنسي حق اعتقال أي فرد بدون محاكمة ولو صورية».

استعمار جائر واحتلال بغيض، من ذيوله العيش الذليل في ظل الفقر والحرمان لأبناء الوطن وأشكال من التحكم والتعسف وكبت الحرية يمارسها الغريب الدخيل، وحجرٌ على الرأي تؤيده قوانين وأوامر تمليها السلطة الغاشمة. ليس هذا فحسب، بل يرافق ذلك مواقفُ في الداخل جامدة وعاداتٌ وتقاليدُ بالية ولكنها راسخة رسوخ الجبال، فمن نادى بالإصلاح اتهم، ومن دعا إلى الإصلاح أُدين، فليس للعقل مقام ولا للمنطق مكان. يقول أبو القاسم الشابي في قصيدة عنوانها «**تونس الجميلة**»:

لستُ أبكي لعسفِ ليلٍ طويلِ
أو لرَبْعٍ غدا العفاءُ مراحَــهْ

إنما عَبْرتـــي لخَطْــبٍ ثقيـــلٍ
قد عَرانا ولم نجدْ من أزاحَهْ
كلما قام في الــبلادِ خطيــبٌ
موقظٌ شعبَه يريــدُ صــلاحَهْ
أخمـــدوا صـــوته الإلهـــيَّ
أمـــاتوا صُـــداحَهُ ونواحَـــهْ
ألبـــسوا روحَـــهُ قمـــيصَ
فاتك شـــائكٍ يَـــرُدُّ جُماحَـــهْ
وتوخَّـــوا طرائـــقَ العَـــسْفِ
مَعْهُ، وما توَخَّـــوا الـــسَّماحَهْ
هكذا المخلصونَ في كل صـــوبٍ
رَشَقَات الرَّدى إليهم مُتاحَـــهْ

ومن هنا كان التمرد على الواقع السبيل الوحيد لشاب أدرك عمق المأساة، فعبَّر عنه ذلك التمرد بالشعر الرومانسي العذب الذي يخاطب الشعور ويلهب العاطفة ويستثير الخيال. من النقمة والتشاؤم والأسى بدأ، وإلى التغيير والطموح والحياة الحرة مع الثقة المطلقة بالشعب. انتهى.

رابعاً - أوجه التشابه:

وبعد فإنني لأسائل نفسي: هل أستطيع أن أدخل عالم جبران وأجول في أنحائه، وهو عالم رحب لا حدود له، وهل في مقدوري أن أدخل حديقة الشابي لأستنشق عبيرها وأتفيأ ظلالها وأستمتع بأزهارها وألحان طيورها؟

ذلك مطلب غالٍ ولكنه عسير المنال وأمنية جميلة هيهات أن تتحقق. ولكن لئن لم أظفر بالكثير فحسبي القليلُ إن حظيت به.

ولذا سأكون قنوعاً بما يسمح به الوقت ويحصِّله الجهد، فأقارب بعض الأفكار التي تلاقى عليها الأديبان المبدعان جبران والشابي.

١ - المرأة والمجتمع:

• الأم أولاً وقبل كل إنسان آخر، في نظر جبران. وكيف لا تكون كذلك وأمه (كاملة رحمة) قد ولدته مرتين: مرة عندما ولدته بجسده، بلحمه ودمه، ومرة عندما اختطفته من يدي أبٍ مستهتر لا خير فيه وبراثنِ مجتمع متخلف قاسٍ لا يرحم، وذهبت به بعيداً بعيداً، مع ثلاثة أولاد لها آخرين، في هجرة أشبه بالمغامرة أو المقامرة.

هناك في الغربة عملت وكافحت، نقمت وغضبت، حزنت وبكت وربما ابتسمت وضحكت أحياناً وهي تخوض معركة

ضارية من أجل البقاء والحياة الأفضل. قَهَرَتِ المصاعب والمتاعب حتى وجدت طريقها إلى الأمل الكبير الذي داعب مخيلتها وسكن فؤادها واستثار عواطفها، وهو أن تمنح أولادها، وخاصة جبران الذي عرفت بالفطرة أنه موهوب وأنه كنز لها وللبشرية، القدرةَ على تحقيق ذواتهم بعيداً عن الفقر والجهل وقسوة الكبار ومذلة الصغار.

إنني لأتصورها ذكية فَطِنة، شجاعة جريئة، بعيدة النظر، صلبة الإرادة، لا تلين لها قناة ولا يوهنها عناء.

وصفها جبران في رسالة وجهها إلى (مي زيادة) بقوله: «**لقد كانت (أمي) محبوبة في محيطها، ما عهدتها في أدنى درجاتها أقل من شقيقة، ولا في أعلى درجاتها أقل من سيدة. لقد أفهمتني وأنا بعد في الثالثة، أن الرابطة بيننا هي كما بين صديقين، رابطةُ حب متبادل، وأننا كائنان مستقلان جمعتهما الحياة الشريفة، كانت أعجبَ كائن عرفته في حياتي**».

إنه من خلال أمه أحب كل الأمهات، وراح يتغنى بالأم بأعذب الألفاظ، قال يناجيها: «**إن أعذب ما تلفظه الشفاه البشرية هو لفظة الأم ، وأجمل مناداة هي: أمي: كلمة صغيرة كبيرة مملوءة بالأمل والحب والانعطاف، وكل ما في القلب البشري من الرقة والحلاوة والعذوبة. الأم هي كل شيء في هذه الحياة، هي التعزية في الحزن، والرجاء في اليأس، والقوة**

في الضعف. هي ينبوع الحنو والرأفة والشفقة والغفران، فالذي يفقد أمه يفقد صدراً يسند إليه رأسه ويداً تباركه وعيناً تحرسه. كل شيء في الطبيعة يرمز إلى الأمومة، فالشمس هي أمُّ الأرض، تُرضعها حرارتها وتَحتضنها بنورها... والأرض هي أمُّ الأشجار والأزهار... والأشجار والأزهار تصير بدورها أمهاتٍ حنوناتٍ للأثمار الشهيَّة والبذور الحية... وأم كل شيء في الكيان هي الروح الكلية الأزلية الأبدية المملوءة بالجمال والمحبة...».

لقد أحب أمه حتى العبادة، يقول في رسالة له: «أما أنا فقد ورثت عن أُمي تسعين بالمئة من أخلاقي وميولي، ولا أعني بذلك أنني أشبهها بالحلاوة والوداعة والقلب الكبير».

يقول الأديب الكبير خليفة التليسي: «لقد نسج جبران من كلمات هذه الأم الحنون «أجنحته المتكسرة» وسكب من عواطفها وصورتها البديعة حبه لأمه ومناجاته لها. وإلى هذه الأم الحنون يجب أن نرد كل أسباب السمو بالمرأة في أدب جبران».

وقسا الدهر على جبران فتوفيت أخته بالسل عام ١٩٠١ ولحق بها أخوه بطرس بعد عامين. ونكب بوفاة والدته بالسرطان في الثامن والعشرين من حزيران عام ١٩٠٣، وكان في العشرين من عمره فكتب يقول: «**ما بكيت عليها لأنها أمي فحسب، بل لأنها صديقتي، لقد كانت حكيمة فوق كل حكمة.**

إنها أعذب ما تحدثت به الشفاه البشرية: يا أمي، تلك الكلمة الصغيرة الكبيرة والمملوءة بالأمل والحب» ولم يبق معه سوى أخته مريانا الخياطة التي كانت تسعفه بما تجنيه إبرتها.

إنّ جبران قد عرف نساء عديدات كان لهن في حياته، أثر طيب يعترف به. يقول: «**أنا مدين بكل ما هو (أنا) إلى المرأة، منذ كنت طفلاً حتى الساعة، والمرأة تفتح النوافذ في بصري والأبواب في روحي. ولولا المرأة الأم، والمرأة الشقيقة، والمرأة الصديقة، لبقيت هاجعاً مع هؤلاء النائمين الذي يفسدون سكينة العالم بغطيطهم**».

وجبران، بعد هذا رائد من رواد النهضة، إنه مفكر طليعي، يعي جيداً دور المرأة في المجتمع وأن لا تقدم إلا بمشاركة المرأة وتحررها من قيود العادات والتقاليد التي تشل قدرتها. ويقدم هذه الفكرة بصورة أدبية لا أحلى ولا أجمل، يقول: «**إن المرأة من الأمة بمنزلة الشعاع من السراج. وهل يكون الشعاع ضئيلاً إلا إذا كان زيته شحيحاً؟**». ثم ألا يذكرنا هذا القول بما قاله خليل مطران، رائد التجديد:

إنْ لم تكنْ أمٌ، فلا أمةٌ وإنما بالأمهاتِ الأممُ

لقد دعا جبران من خلال منظومته الفكرية إلى احترام الحب وتقديسه. قدَّس المرأة والأمومة وأحب الجمال في المرأة، بل في

الطبيعة والكون بأسره، ولكنه تحدث عن المرأة بوصفها إنساناً يستحق أن يحب، أن يملك مصيره، أن يتصرف باستقلال، ويتغزل بالمرأة بعيداً عن شؤون الجسد. لقد أنكر ما يمارس عليها من قهر، الأب يحرمها من حق اختيار شريك حياتها، والزوج يدرجها بين ممتلكاته: عاطفة وجسداً، والمجتمع يكبلها بتقاليده وعاداته.. ولذا أراد أن تكون المرأة مالكة نفسها، إنسانة تقف مع الرجل أمام الشمس وفي غمرة الحياة، وبث آراءه هذه في كل ما كتب.

وبعد، ما موقف أبي القاسم الشابي من المرأة، وماذا قال في ذلك؟

لقد كانت المرأة التونسية، في مطلع القرن العشرين، مثل شقيقاتها في البلدان العربية الأخرى، رهينة إرثٍ امتد قروناً، مثقلٍ بالجهل والتخلف، متسمٍ بالجمود والركود، يقوم على تسلط الحاكم على المحكوم، والغني على الفقير، ومالك الأرض على العاملين فيها، وتسلط الغريب المحتل على أبناء الوطن. وفي هذه الحال لم يكن الرجل حراً ولا المرأة، فكلاهما مظلوم. ولكن المرأة كانت مظلومة المظلومين، ولم يكن للرجل المكدود اليائس إلا أن ينفِّس عن غضبه ونقمته بظلم المرأة، بنتاً كانت أم زوجة لأنها أضعف منه.

كانت المرأة بعيدةً عن التعلم والعلم، بعيدة عن الحياة الاجتماعية والثقافية. إرادتها منقوصة قبل الزواج، وبعد الزواج،

فتنتقل من الخضوع لسلطة الأب أو الأخ، إلى الخضوع لسلطة الزوج. الأمية سائدة، والعمل المنزلي مرهق ممل...

ومع إشراقة الفكر النهضوي، هبَّ دعاة الإصلاح والتنوير يدعون إلى تعليم المرأة وتحريرها من العادات والتقاليد البالية، ورفع شأنها ابنة وأختاً وزوجة وأماً، وارتفعت أصواتهم هنا وهناك في الوطن العربي، وفي مقدمتهم الرائد الكبير قاسم أمين بمصر في كتابه «تحرير المرأة» والطاهر الحداد بتونس في كتابه «امرأتنا في الشريعة والمجتمع».

في هذه الأجواء الاجتماعية والفكرية عاش الشابي وكتب. بَيْد أنه لم يدوِّن لنا أية تفصيلات عن موقفه من امرأة معينة، وإن كان قد تزوج وأنجب أولاداً. وربما كان ذلك أثراً من آثار التحفظ في الحديث عن المشاعر الذاتية والعلاقات الشخصية.

ولكن لما كان الشعر مرآة نفس الشاعر، فلنعد إلى شعر الشابي لنستشف موقفه من المرآة ونظرته إليها. إنه لا ينظر إلى المرأة جسداً يشتهى أو مُتعة من المُتَع، بل ينظر إليها نظرة يمتزج فيها الحب والاحترام إلى حد الإجلال والعبادة. إنه رومانسي نزَّاع إلى المثالية في كل شيء، مؤمن بالعاطفة، ولذا كان حبه للمرأة تختلط فيه العفة بالتصوف، كما يقول الأديب خليفة محمد التليسي.

إن قصيدة «صلوات في هيكل الحب» هي صلاة حقيقية تتجاوز المادة والجسد وتلامس الروح والنفس: في المرأة تكمن الإنسانة التي تحمل كل معاني المحبة والعطف والرقة والنبل والإلهام.

إن هذه القصيدة هي رَدٌّ فنِّيٌ عذب مجنح وشفاف على النظرة السيادية المتعالية للرجل إلى المرأة التي لا يرى فيها سوى كائن متخلف دونه منزلة لا يتقن إلا الخدمة والإنجاب والطاعة!

لقد غَذَّت خياله «سلمى» في الأجنحة المتكسرة، و«شارلوت» غوته في آلام فرتر، و«جوليا» لامارتين بطلة رافائيل، ولكن تأثير جبران يبقى الأقوى. ولنسمع إلى الشابي يقول في قصيدته «صلوات في هيكل الحب» هذه، القصيدة التي تستحق أن تسمى: ترنيمة أو أنشودة أو صلاة في معبد:

عذبةٌ أنتِ كالطفولةِ، كالأحلامِ، كاللحنِ، كالصباحِ الجديـــدِ
كالسماءِ الضحوكِ، كالليلةِ القمراءِ، كالوردِ، كابتسامِ الوليدِ
يا لها من طهارةٍ، تبعثُ التقديسَ في مهجةِ الشقيِّ العنيـــدِ
يا لها رقةً، يكادُ يرِفُّ الوردُ منها في الصخرةِ الجلمودِ...
أنتِ ما أنتِ؟ أنتِ رسم جميلٌ عبقريٌ من فنِ هذا الوجــودِ
فيكِ ما فيه من غموضٍ وعمقٍ وجمالٍ مقدَّسٍ معبـــودِ...
أنتِ روحُ الربيع تختالُ في الدنيا، فتهتزُّ رائعاتُ الـــورودِ

وتهُبُّ الحياةُ سكرى من العطرِ، ويدوي الوجودُ بالتغريد...

ويمضي في هذا النشيد ليحل المرأة البهيَّة الجميلة النقيَّة مكانها من الكون، كائنةً حافلةً بكل تجليات الجمال:

أنتِ أنتِ الحياةُ في قدسِها السامي وفي سحرِها الشجيِّ الفريـــدِ
أنتِ أنتِ الحياةُ في رقةِ الفجرِ وفـــي رونـــقِ الربيـــعِ الوليـــدِ
أنتِ أنتِ الحيـــاةُ كـــلَّ أوانٍ، فـــي رواءٍ مـــن الـــشباب جديـــدِ
أنتِ دنيا من الأناشـــيدِ والأحـــلامِ والـــسحرِ والخيـــال المريـــدِ
أنتِ فوق الخيالِ والـــشعرِ والفـــنِ والنُّهـــى وفـــوقَ الحـــدودِ
أنتِ قدسي ومعبدي وصـــباحي وربيعـــي ونـــشوتي وخلـــودي

هكذا تكلم الشابي على المرأة، كلاماً فيه المحبة والتقدير اللذان لا يحدهما حد. إنه قد نهل من أصفى ينابيع الرومانسية، فصار من أعذب ينابيعها، وكان لجبران أثره، فطالما كان الشابي يعجب بهذه القطعة الجبرانية التي تشيد بالمرأة:«**إن قلب المرأة لا يتغير مع الزمن ولا يتحول مع الفصول. قلب المرأة ينازع كثيراً ولكنه لا يموت. قلب المرأة يشبه البرية التي يتخذها الإنسان ساحة لحروبه ومذابحه، وهو يقتلع أشجارها ويحرق أعشابها ويلطخ صخورها بالدماء ويفرش تربتها بالعظام والجماجم، ولكنها تبقى هادئة ساكنة مطمئنة، ويظل الربيع فيها ربيعاً والخريف خريفاً إلى نهاية الدهور**».

٢ - الحرية والوطنية:

• الشرق غافٍ أو واقف بلا حراك، والعالم كله يتقدم. الغرب غالب والشرق مغلوب على أمره، يمضغ الهزيمة ويسترجع ماضيه... يثور برهة ثم تسكن ثورته إلى موعد آخر.

هزيمة العرب، وخاصة بلاد الشام، هزيمة حضارية إزاء الغرب الذي سار قدماً في تطوير حياته الفكرية والعلمية والاجتماعية، وظل هو قانعاً بما أورثه إياه الآباء والأجداد.

وتستيقظ طليعة هنا وهناك، تتمرد، تثور، تصرخ، تنبِّه، ولكنها لا تلقى لأصواتها إلا أصداء خافتة. تتشاءم، تيأسُ، تشتم، تبكي ولا أحد يصيخ بسمعه إليها، صرخات في واد.

يضج النائمون من صراخ هؤلاء فيرمونهم بالتهم الباطلة والأراجيف الشنيعة لعلهم يصمتون فلا يعكرون على النائمين نومهم.

ولكن هذه الطليعة، من جبران المقاتل الجبار، إلى أبي القاسم الشابي المتمرد الهدار وأمثالهما لا تستسلمُ ولا تلقي سلاحها، بل تستأنف صراخها لتنسجَ بالحبر والورق آمالاً جديدة وأحلاماً أجد.

إِني أنا النايُ الذي لا تنتهــي أنغامُهُ، ما دامَ في الأَحيــاءِ

وأنا الخِضَمُّ الرَّحبُ ليسَ تزيــدُه إلا حيــاةً ســطوةُ الأنــواءِ

أَمشي بروحٍ حـــالمٍ متـــوهجٍ   فـــي ظلمـــةِ الآلامِ والأدواءِ
النورُ في قلبي وبينَ جوانحي   فعلامَ أخشى السيرَ في الظلماء

هذا ما قاله الشابي في قصيدته «نشيد الجبار» ولعله ينطق كذلك بأفكار صِنْوِهِ جبران خليل جبران ومشاعره.

●لقد عاش جبران في المغترب بجسده، وظل حتى آخر نسمة من حياته يعيش في لبنان وسورية والشرق بعقله وقلبه وخياله.

تجاربه في موطنه الأصل كانت مادة تفكيره وأدبه، وهموم لبنان وأوجاعه في غيابه كانت همومه وأوجاعه.

إنّ حب الوطن كان جذوة متقدة في صدره، والحرية كانت نشيده ومطلبه ومبتغاه: حرية الإنسان والمجتمع، وحرية الوطن والشعب.

ولّما اجتاحت المجاعة لبنان عام ١٩١٦ إبان الحرب العالمية الأولى، سلبتِ الدولة العثمانية التي كانت تقاتل الشعوب التي تحكمها أكثر مما تقاتل أعداءها، لقمةَ العيش من اللبنانيين والسوريين وأرسلتهم إلى الموت في حربٍ فاشلة. لقد ثارت في جبران مشاعره الوطنية، وهالته المأساة ببشاعتها، فكتب يصور الفاجعة في مقالة عنوانها: مات أهلي:

«مات أهلي وأنا قيد الحياة أندبُ أهلي في وحدتي وانفرادي

مات أحبائي وقد أصبحت حياتي بعدهم بعضَ مصابي بهم

مات أهلي وأحبائي وغمرتِ الدموعُ والدماءُ هضباتِ بلادي...

مات أهلي أذلَ مِيتةٍ، وأنا ههنا أعيشُ في رغدٍ وسلام...

لو كنت سنبلةً من القمح نابتةً في تربةِ بلادي لكان الطفلُ الجائعُ يلتقطنُي ويزيلُ بحياتي يدَ الموتِ عن نفسهِ.

لو كنت ثمرةً يانعة في بساتين بلادي لكانت المرأة الجائعةُ تناولتني لتقضمني طعاماً...

لو كنت طائراً في فضاءِ بلادي لكان الرجلُ الجائعُ يصطادني ويزيل بجسدي ظلَّ القبرِ عن جسدِه...

ولكنْ واحرَّ قلباه، لستُ بسنبلةٍ من القمح في سهولِ سورية، ولا بثمرةٍ يانعةٍ في أوديةِ لبنان، وهذه هي نكبتي التي تجعلُني حقيراً أمامَ نفسي وأمامَ أشباحِ الليل...

ماتَ أهلي لأنهم لم يكونوا مجرمين.

ماتوا لأنهم لم يظلموا الظالمين.

ماتوا لأنهم كانوا مسالمين..

ماتوا لأن الأفاعي أبناءَ الأفاعي قد نفثوا السمومَ في الفضاءِ الذي كانت تملؤُه أنفاس الأرْز وعطورُ الورود والياسمين».

وفي مقالة أخرى كتبها إبان المجاعة التي قضت على الألوف من أبناء بلده، يقول:

«في ظلام الليل يسير الموت ونحن نتبعه، وكلما التفتَ الموت إلى الوراء يسقط منا ألف إلى جانب الطريق ومن يسقط يرقد ولا يستيقظ، ومن لا يسقط يسير قسر إرادته عالماً بأنه سيسقطُ ويرقدُ مع الذين رقدوا، وأما الموت فيظل سائراً محدقاً إلى الشفق البعيد...».

ويتخطى جبران بنظرته الثاقبة وبصيرته النافذة واقع أمتنا العربية إلى حركة التاريخ وتعاقب الحضارات، فيرى أن لكل شعب أو أمة ذاتاً عامة تشابه في جوهرها وطبيعتها الذات الفردية. ويرى أن للذات العامة حياة خاصة وتنتقل مثل الذات الفردية من الطفولة إلى الشباب فإلى الكهولة فالشيخوخة.

وبعد عرضه للذوات العامة في حركتها يقول عن الذات العربية ما يلي:

«إن الذاتَ العربية قد تجوهرت وشعرت بكيانها الشخصي في القرن الثالث قبل الإسلام. ولم تتمخض بالنبي محمد حتى انتصبت كالجبار وثارت كالعاصفة متغلبة على كل ما يقف في سبيلها. ولما بلغتِ العباسيين تربعت على عرش منتصب فوق قواعدَ لا عداد لها أولها في الهند وآخرها في الأندلس. ولما بلغت عصارى نهارها وكانت الذاتُ المغولية قد أخذت تنمو وتمتد من الشرق إلى الغرب كرهت الذات العربية يقظتها فنامت

ولكن نوماً خفيفاً متقطعاً. وقد تعود وتُفِيق ثانية لتبيِّن ما كان خفياً في نفسها كما عادت الذاتُ الرومانية في زمن النهضة الإيطالية...».

رائع أن يعيَ الأديب الفنان حركة الزمن وتتالي الحضارات خلال الزمن، ورائع أكثر أن يدرك جبران أن الذات العربية ستعود إلى مسرح التاريخ لتشارك في صنع الحضارة البشرية كما فعلت في السابق.

إنها نفحة تفاؤل وأمل جبرانية، وثقة بقدرة الأمة العربية على إنجاز نهضة معاصرة. وإنه لحقٌّ أن يقال: إن أمة أنجبت جبراناً لا بُدَّ لها من العودة إلى حلبة الزمان بأبهى مما كان.

• ونعود إلى تونس الخضراء وشاعرها أبي القاسم الشابي، لنجد أنه فتح عينيه للنور في رحابها وعرف صحراءها وحواضرها، وتلقن علمه في مدارسها ومعاهدها، وخَبِر بفطنته وذكائه جهرَها وسرَّها وذاق حُلْوَها ومُرَّها في طفولته ويفاعته وشبابه، فهاله حال وطنه الاجتماعي والثقافي والسياسي بالقياس إلى الأوطان الأخرى المتقدمة، وراعته المفارقة الشديدة بين الطبيعة الخلابة في تونس، ووضعِ إنسانِها وما يعاني من الأمية والجهل والفقر.

وسرعان ما أدرك أن وراء هذه المفارقة حملين ثقيلين يقعان على كاهل الشعب التونسي:

أولهما: التخلف الفكري. وثانيهما: الاستعمار البغيض. أما الرزء الأول فيتمثل بقعود الناس عن طلب العلم، ولاسيما العلوم الحديثة والآداب والفنون، وعدم إقامتهم الصناعات والمرافق العامة وقناعتهم بأبسط العيش وتغنيهم بالماضي والوقوف عنده وعجزهم عن صنع حاضر زاهٍ متقدم. وأما الرزء الثاني فهو السلطة الأجنبية المتحكمة بالبلاد والعباد، تستغل الموارد وتُحصي على الناس أنفاسهم، علماً بأن تونس هي ثاني قطر عربي احتلته فرنسا عام ١٨٨١ بعد احتلالها الجزائر قبل ذلك.

قال في مقطوعة شعرية عنوانها «للتاريخ» يصور فيها حال بلده:

البؤس لابنِ الشعبِ يأكلُ قلبَه	**والمجـــدُ والإراءُ للأغـــرابِ**
والشعبُ معصوبُ الجفونِ مقـــسَّمٌ	**كالشاةِ بين الذئبِ والقــصَّابِ**
والحقُّ مقطوعُ اللسانِ مكبَّـلٌ	**والظلمُ يمرحُ مُذْهَبَ الجِلبـــابِ**
هذا قليـــلٌ مـــن حيـــاةٍ مُـــرَّة	**في دولةِ الأنـــصابِ والألقـــابِ**

الشاعر ليس لسان شعبه فحسب، بل قلبه ولسانه، فكره وإحساسه، وهكذا كان أبو القاسم الشابي. لقد شهد المأساة وخبرها. تشاءم تارةً وتفاءل مرةً أخرى، لام حيناً وشكا وتمرد حيناً آخر وحَرَّض ودعا إلى التمرد والثورة والطموح إلى الأفضل. رأى حياة شعبه صحراء قاحلة لا تنبت الزهر ولا يجودها السحاب، وهو يطمح أن يراها جنة خضراء وحديقة فيحاء، يعيش أهلها في رغد وهناء، وأمن ورجاء.

يقول في قصيدة له عنوانها «أيها الشعب»:

أين يا شعبُ قلبك الخافق الحساسُ؟ أين الطموحُ والأحلامُ

أين يا شعبُ روحُك الشاعرُ الفنانُ؟ أين الخيـالُ والإلهـامُ

أين يا شعبُ فَنُّك الساحرُ الخلاقُ؟ أين الرسـومُ والأنغـامُ

أين عزمُ الحياة، لاشيء... إلا الموتُ والصمتُ والأسىوالظلماء

عُمُـرٌ ميِّـتٌ وقلـبٌ خَـواءٌ، ودمٌ لا تثيـرهُ الآلامُ

أيَّ عيشٍ هذا وأي حياةٍ ؟ ربَّ عيشٍ أخفُّ منه الحِمامُ...

ثم يقول:

آهِ بل أنـتَ فـي الـشعوبِ فيلسوفٌ محطَمٌ فـي إِهابَـهْ

ماتَ شوقُ الشبابِ في قلبِه الذا وي وعزمُ الحياةِ في أعصابِهْ

فمضى يَنْشُدُ الـسلامَ بعيـداً «في قبورِ الزمانِ» خلفَ هضابِهْ

وهناكَ، اصطفى البقاءَ مع الأمـ ـواتِ «في قبر أمسِهِ» غيرَ آبهْ

إنه يقرِّعُ الشعبَ تقريعاً شديداً، فلا نبضٌ ولا إبداع، لا طموحٌ ولا أحلام، لا خيالٌ ولا فنٌ ولا نغم، لا عزمٌ ولا تمرد... أليست هذه الحياة أقسى من الموت.

يغيظه أن تستمر الحياة في شعبه على وتيرة واحدة، ولا يفهم كيف يرتضي شعبه الهوانَ، والحياةُ مغامرة، ويقبل الركودَ، والحياة حركة... إنه يهرب من حاضره إلى ماضيه كأنما ليس له غدٌ يسعى إليه.

إنه لا يجهل أن الشعب مكبلٌ بقيود قاسية، ومُورِسَ عليه الظلمُ من الخارج والداخل، من الغريبِ والقريب، حتى يئس من الكفاح وفقدَ الأملَ في التحرر وفقد الإحساس بأنه مظلوم وأنه في ظلمة.

ولكن من حق الشاعر أن يقرعَ الجرس ويبعثَ الأمل ويقوي العزائم.

وكأني به بعد أن ذاع شعره داخل تونس وخارجها، وسارت قصائده كل مسار، وبلغته أصداؤها، قد استراحت نفسه بعض الشيء. فخفَّت قسوة لهجته وأقل من اللؤم والتأنيب، فنظم قصيدته الرائعة «إرادة الحياة» قبل وداعه الحياة بسنة واحدة، ونشرها في ١٦ أيلول ١٩٣٣ يحضُّ فيها الشعب على الكفاح ويحرِّضه على التحلي بالطموح فهو لهيب الحياة وروح الظفر ويرغِّبُه في هجر الحَذر وركوب الخطر لتحقيق المنى والآمال:

إذا الشعبُ يوماً أرادَ الحيــا	**ةَ فلا بُدَّ أن يستجيب القــدَرْ**
ولا بُــدَّ لليــل أن ينجلــي	**ولا بُــدَّ للقيــد أن ينكــسِرْ**
ومن لم يعانِقْهُ شوقُ الحيــا	**ةِ تبخَّر في جوِّهــا وانــدثرْ**
أُباركُ في الناسِ أهلَ الطموحِ	**ومن يستلذُّ ركوبَ الخَطَــرْ**
وألعنُ من لا يماشي الزمانَ	**ويقنعُ بالعيشِ عيشَ الحَجَرْ**
هو الكون حيٌّ يحبُّ الحياة	**ويحتقرُ الميْتَ، مهما كبُــرْ**
إذا طمعــتْ للحيــاة النفــو	**سُ فلا بد أن يستجيبَ القدر**

وبعد فماذا جمع بين جبران والشابي؟ الحب، والتمرد، والثورة، والطموح، والحرية، والإنسان، موضوعات وغايات، وصدق الشعور، وقوة التصوير، وجمال العبارة، وسلاسة اللغة وسائلَ وملامح.

الخاتمة

والآن لا بدَّ لي من القول إنه بعد أن انقضى على رحيل هذين الشاعرين المبدعين سبعون عاماً أو يزيد، قد تحقق في لبنان وتونس، وفي الأقطار العربية الأخرى، كثيرٌ مما حلم به جبران وأبو القاسم. ولكن من الحق أن نقول كذلك: إن الدرب إلى ما كانا يطمحان إليه من تقدم ونهوض ويقظة وتحرر للوطن العربي بأسره ما زال طويلاً وعسيراً. وإنه ليخطر لي، وأنا أهمُّ باختتام هذا الحديث عنهما، أن أتساءل عما كان يمكن أن يقدمه هذان الشاعران النجمان لو أمهلهما القدر وعاشا عمراً أطول مما عاشاه!

كان الشعر عند جبران يلامس النبوة ولم يدركها،
والشعر عند الشابي ألقٌ روحي ورسالة إنسانية.

مؤلفات جبران خليل جبران

المؤلفات العربية	المؤلفات المعرّبة
١ - الموسيقى ١٩٠٥	١ - المجنون ١٩١٨
٢ - عرائس المروج ١٩٠٦	٢ - السابق ١٩٢٠
٣ - الأرواح المتمردة ١٩٠٨	٣ - النبي ١٩٢٣
٤ - الأجنحة المتكسرة ١٩١٢	٤ - رمل وزبد ١٩٢٦
٥ - دمعة وابتسامة ١٩٠٨	٥ - يسوع ابن الإنسان ١٩٢٨
٦ - المواكب ١٩١٩	٦ - آلهة الأرض ١٩٣١
٧ - العواصف ١٩٢٠	٧ - التائه ١٩٣٢
٨ - البدائع واللطائف ١٩٢٣	٨ - حديقة النبي ١٩٣٣

آثار الشاعر أبي القاسم الشابي

١ - ديوان شعر بعنوان «أغاني الحياة» يضم ثماني وتسعين قصيدة ومقطوعة شعرية. طبعت الديوان دار المعارف للطباعة والنشر بسوسة، تونس (الطبعة الثالثة آذار ١٩٩٢).

٢ - محاضرة بعنوان: «الخيال الشعري عند العرب» ألقاها في نادي قدماء الصادقية بتونس عام ١٩٢٩.

٣ - مذكرات.

٤ - رسائل.

المراجع

١ - مؤلفات جبران خليل جبران العربية، مجموعة كاملة، تقديم الأديب الكبير ميخائيل نعيمة عام ١٩٤٩، مكتبة صادر، بيروت/ لبنان.

٢ - مؤلفات جبران خليل جبران المعربة، مجموعة كاملة، مكتبة صادر، بيروت/ لبنان.

٣ - الموسوعة العربية، المجلد السابع ص ٤٦٥، جبران خليل جبران، بقلم الأستاذ حسن محمد نور الدين.

٤ - ديوان أبي القاسم الشابي «أغاني الحياة» إصدار دار المعارف، مدينة سوسة/ تونس، الطبعة الثالثة ١٩٩٢.

٥ - كتاب «الشابي وجبران» تأليف الأديب خليفة محمد التونسي، إصدار الدار العربية للكتاب (تونس - ليبيا) ١٩٨٤.

٦ - كتاب «هكذا تكلم جبران» تأليف الدكتور نزار بريك هنيدي، إصدار مؤسسة علاء الدين للطباعة والتوزيع، دمشق، سورية ٢٠٠٤.

٧ - كتاب «مأساة الحرف العربي في المهاجر الأميركية» تأليف الياس قنصل، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق/ سورية ٢٠٠٤.

٨ - كتاب «أضواء مهجرية» بقلم بشارة المشمِّل، عدد خاص من مجلة الضاد الحلبية عام ١٩٨٧.

٩ - دراسات عديدة عن أدب المهجر منشورة في المجلات والصحف السورية والعربية.

نزعة التشاؤم عند أبي العلاء

وآرثر شوبنهور(*)

أبو العلاء المعري في الذاكرة

مقدمة :

يُعدُّ أبو العلاء المعري من أعلام الفكر والشعر عند العرب، حتى إنه لقب «فيلسوف الشعراء وشاعر الفلاسفة».

ولئن اختلف مؤرخو الأدب ونقاده في نظرتهم إلى فلسفته وشعره، فإنهم جميعاً منشغلون به، مقبلون على دراسته معجبون بذكائه وألمعيته وإبداعه.

وقد أقامت وزارة التعليم العالي - المجلس الأعلى لرعاية الآداب والفنون والعلوم الاجتماعية - ندوة أدبية كبيرة في الفترة الواقعة من (٢٤) حتى (٢٧) تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٧٧ إحياءً لذكرى الشاعر الفيلسوف أبي العلاء المعري، وذلك في مسقط

(*) نشرت في مجلة "الحكيم" بواشنطن العددان ١٢ و١٣ لعام ١٩٩٨.

رأسه، بلدة معرة النعمان التي تقع بين مدينتي حماه وحلب شمالي سورية هذه المنطقة التي أنجبت واحتضنت كبار الشعراء أمثال البحتري وأبي فراس الحمداني وأبي الطيب المتنبي وغيرهم.

وقد شارك في هذه الندوة لفيف من الأدباء والباحثين من الجمهورية العربية السورية وأقطار المشرق العربي والمغرب العربي لتكريم أبي العلاء ببحوث أصيلة وجادَّة، أضاءت جوانب مختلفة من عبقريته وعرَّفت بنجاحه الخصب وبفكره الثاقب، وأدبه الخالد خلود الدهر.

نزعة التشاؤم عند أبي العلاء المعري وآرثر شوبنهور

طالما أشار الباحثون ومؤرخو الأدب وناقدوه إلى تشابه في النزعة والفكرة والعقيدة عند أبي العلاء فيلسوف المعرة وآرثر شوبنهور الفيلسوف الألماني، وعلى بعد ما بينهما من زمان، إذ عاش المعري بين القرنين العاشر والحادي عشر (٩٧٣ - ١٠٥٠م) وعاش شوبنهور في القرن التاسع عشر (١٧٨٨ - ١٨٦٠م) فيكون الفارق الزمني بينهما نحو ثمانية قرون.

ولكن أكثر الدارسين، بعد ذكرهم التشابه بين هذين المفكرين الكبيرين، يختلفون في تعليل ظاهرة التشاؤم عند كل منهما وبيان أسبابها، ذلك لأن لكل ظاهرة فكرية أو أدبية صلةً بحياة صاحبها

النفسية والاجتماعية والمادية والاقتصادية والسياسية التي يعيش في كنفها فهل كان لظاهرة التشاؤم عند هذين الأديبين الكبيرين أسبابٌ واحدةٌ أو متشابهة؟ إنه ليحسن، بادئ ذي بدء أن نتعرف إلى هذين المفكرين، ثم إلى نقاط التشابه في نظراتهما التشاؤمية، لننتقل بعد ذلك إلى التبصُّر في علةِ ذلك التشابه.

* أبو العلاء:

ولد أبو العلاء المعري واسمه أحمد بن عبد الله التنوخي من أسرة عريقة ينتهي نسبها إلى قبيلة قضاعة القحطانية، في بلدة معرة النعمان الكائنة بين مدينتي حماه وحلب، سنة ٩٧٣م الموافقة ٣٦٣هـ لأبٍ عرف بالعلم والقضاء والرئاسةِ والثراء.

وتتالت عليه المحن منذ صغره، فأصيب بمرض الجُدري في الرابعة من عمره فكُف بصره وغدا ضريراً مما أثر في نفسه تأثيراً بالغاً، وجعله يميل إلى العزلة والانزواء عن الناس، ويتجه إلى طلب العلم والمعرفة، يعينه على ذلك أنه كان حادَّ الذكاء صافي الذهن قوي الذاكرة شديد الانتباه.

تلقى العلم عن أبيه في بداية عمره، إذ حرص والده على تثقيفه تعويضاً له عن محنته القاسية. ولكن هذا الوالد العطوف توفي عام ٩٨٧م والفتى ما زال في الرابعة عشرة من عمره، فسافر بعد عام واحد يطلب العلم في المدن القريبة من بلدته:

حلب وأنطاكية واللاذقية وطرابلس. ولّما كانت بغداد آنذاك كعبة الأدب وموطن العلم والمعرفة فقد رحل إليها أبو العلاء عام ٩٩٨م حيث حضر فيها مجالس الشعراء والأدباء وحلقات العلماء والفقهاء، ولبث ينهل من معارفها ويشارك في نشاطها الفكري سنةً وسبعة أشهر إذ بلغه خبر مرض أمه فعاد أدراجه إلى المعرة ليراها قبل وفاتها فلم يُدركها، فكان موتها محنةً قاصمةً أصابته، فاعتزل الناس عام ١٠١٠م مدة سبعٍ وأربعين سنة أي حتى يوم وفاته عام ١٠٥٧م.

وعاش أبو العلاء هذه المدة رهين المحبسين: العمى والمنزل وحرم على نفسه أكل اللحم الأبيض واللبن واكتفى بأكل النبات، لا بل سمى نفسه رهين ثلاثة حبوس: العمى والمنزل وانحباس نفسه في جسده قال:

أراني في الثلاثة من سجوني فلا تسألْ عن الخبر النبيثِ
لفقدي ناظري ولزوم بيتي وكونِ النفس في الجسم الخبيثِ

قال عنه الأديب الكبير الدكتور طه حسين في كتابه المشهور «تجديد ذكرى أبي العلاء»: «إنه يلتزم ما لا يلزم في كل شيء، يعتزل الناس ومن حقه أن يلقاهم، ويلبس خشنَ الثياب ومن حقه أن يتخيَّر لَينَّها، ويأكلَ غليظَ الطعام ومن حقه أن يتذوَّق رقائقه، ويؤثرَ العزوبة والعقم ومن حقه أن يسكنَ إلى الزوج وأن يتمتع

بالنسل، ثم يلتزم في القافية حرفين وقد رخص الله له التزامَ حرفٍ واحد».

وانصرف أبو العلاء في عزلته إلى الدرس والتأليف، وكان له عشرة كتاب يساعدونه ويكتبون له ما يمليه عليهم. وقيل بلغ عدد كتبه مائة وخمسةً أشهرها: سقط الزند، واللزوميات، ورسالة الغفران، والأيك والغصون، والفصول والغايات.

* شوبنهور:

أما آرثر شوبنهور فقد ولد عام ١٧٨٨م في مدينة دانزيغ بألمانيا، وكان أبوه تاجراً فيها، ولّما احتل البولونيون هذه المدينة عام ١٧٩٣ غادرها أبوه مع أفراد أسرته وبقي يعمل في التجارة والمال ببرلين حتى مات منتحراً عام ١٨٠٥م مما أثر على نفسية الفتى تأثيراً سيئاً وأورثه أسىً عميقاً.

قال آرثر فيما بعد إنه ورث عن والده إرادته وخُلقه وعن أمه ذكاءها وألمعيتها، كانت الوالدة قاصّة وروائية، وما إن مات زوجها التي لم تكن على وفاق معه حتى ارتحلت إلى مدينة (فيمار) تبحث عن الحب المتحرر، فانتقدها ولدها ومقتها، ومن خلالها مقت النساء جملة، حتى ساءت العلاقة بينه وبينها وتطورت من الكلفة والمجاملة إلى الكراهية والمنازعة، ولبث

بعدئذٍ أربعاً وعشرين سنة لم تقع عليها عينه. وهكذا حرم آرثر من محبة الأم وحنانها، بل رأى فيها صورة مقيتة سوداء.

وعلى الرغم من هذه الظروف القاسية، تابع آرثر دراسته الجامعية وحصل على ثقافة واسعة ولكنه كان عَكر المزاج، كئيب النفس، كثير الارتياب، ينامُ ومسدَّسهُ محشوٌّ بالرصاص خشية أن يداهمه لصوص... كان يخشى من ظلم الإنسان للإنسان.

وحيداً عاش: بلا أمٍّ ولا زوجة ولا ولد ولا صديق!

كتب رسالته الجامعية عن (العقل) ثم ألف كتابه الشهير «العلم كإرادة وفكرة» ثم أصدر كتاباً عن «مشكلة الأخلاق الأساسية»... وفي عام ١٨٣١ انتشرت الكوليرا في برلين، فانتقل إلى مدينة فرانكفورت حيث قضى بقية حياته، وتوفي عام ١٨٦٠.

إنه لم يحرز نجاحاً كبيراً في الحقل الجامعي، ولكن الناس أقبلوا على قراءة كتبه بعد الأحداث الصعبة عام ١٨٤٨، وزاره أناسٌ من جميع أنحاء العالم وعند احتفاله ببلوغه سن السبعين انهالت عليه التهاني من كل مدينة وقرية.

تجليات التشاؤم:

يتجلى تشاؤم أبي العلاء المعري وآرثر شوبنهور في صورٍ أهمها نظرات كل منهما إلى: الإنسان والحياة والمرأة والقدر.

الإنسان:

يسيء أبو العلاء النظر بالإنسان، أي أنه يرى فيه نقائص ملازمة له،لا طارئةً ولا مكتسبة، بل هي في طبعه وتكوينه. الناس في رأيه شرُّهم كثيرٌ وخيرهم قليل، مفطورون على الأنانية والميل إلى الإساءة، تسيِّرهم أهواؤهم الجامحة، ولا يستثني منهم أحداً:

وكلُّنا قومُ سوءٍ لا أخصُّ بـــهِ بعضُ الأنامِ ولكنْ أجمعُ الفرقا

ويقول في مكان آخر:

لوغُرْبِلَ الناسُ كيما يعــدموا ســقطاً

لما تحــصَّلَ شـــيْءٌ فـــي الغرابيــلِ

والناس جميعهم موصومون بالشر، في غرب الأرض ومشرقها، في قلوبهم حقدٌ وفي لسانهم كذب، وفي تصرفهم شذوذ وسوء:

ومَنْ يفتقــدْ حــالَ الزمـــانِ وأهلَـــهُ

يَذُمَّ بهم غرباً مـــن الأرضِ أو شـــرقا

يجــدْ قـــولهم مَينـــاَ ووِدَّهُـــمُ قلَـــىً

وخيـــرَهُمُ شـــراً وضـــعَتهم خرقـــا

بل يذهب إلى تشبيه الناس بالوحوش المفترسة:

وجــدتُ النّــاس فـــي جبــلٍ وســـهلِ

كَـــــأَنَّهُمُ الـــــذئابُ أو الـــــسِّباعُ

ولكن كيف يكون الإنسان شريراً؟ هل يتأتى ذلك من النشأة والمجتمع وأحوال المعاش، وبالتالي يكون قابلاً للتعديل والتحويل والإصلاح، أم تلك فطرةٌ وطبيعة من كيان الإنسان، فلا انفصال عنها ولا سبيل إلى إصلاح عوجها ودرء مفاسدها؟

يجيب: إن الشر في الإنسان غريزةٌ من غرائزه، وبالتالي لا سبيل إلى تقويم هذا الطبع المتوارث:

والشرُّ فـــي الجــدِّ القــديم غريـــزةٌ

وفي كل نفسٍ منـــهُ عِــرقٌ ضـــاربُ

الإنسان فريسة الأهواء والمطامع والشهوات ما دام الأمر كذلك، فالبعد عن الناس غنيمة!

إنْ مَازَتِ الناسَ أخلاقٌ يعــاشُ بهـــا

فإنهم عنـــدَ ســـوءِ الطَّبــعِ أســـواءُ

أو كان كـــلُّ بنـــي حـــواءَ يـــشبهني

فبئسَ ما ولدتْ فـــي النـــاسِ حـــواءُ

بعُدي عن الناس بُرْءٌ مـــن ســـقامهِمُ

وقـــــربهُمْ للحجـــا والـــــدينِ أدواءُ

أما شوبنهور، شأنه شأن أبي العلاء، يرى أن الشر ملازم للإنسان، والقسوة طبع من طباعه، يقول: «معاملة الإنسان للإنسان تتميز على الدوام بالقسوة البالغة والغلظة الصماء، والإفراط في الجفوة، والإمعان في الإجحاف، ومجاوزة الحدِّ في التنطع، وما عدا ذلك فهو المستثنى» ويضيف إلى هذا القول ما يشبه قول أبي العلاء «وفي قلب كل إنسان يرقد حيوان مستوحش شديد الضراوة ينتظر فريسته ليزلزل زلزاله ويثير زوابعه» ويعلل نظريته التشاؤمية هذه التي هي وليدة الشقاء البشري، بالشكل التالي: «ما دام إدراكنا مغموراً بإرادتنا، وما دمنا مدفوعين لإرادة هذا الشيء أو ذاك فيستحيل أن نحيا في سعادة كاملة أو في سلام دائم» أما السعادة فهي الوجه السلبي للألم وهي انعدام الشقاء البشري فما أضألها وإن رآها يقول: «إن كل ما يقنعُ الناس أو ما يسمونه عادة السعادة سلبي في حقيقته وجوهره» أجل إن الألم، في رأيه هو قانون الحياة والحالة الطبيعية للمسّ والشعور، وهذا الألم مشترك لدى الحيوان والإنسان ولكنه يصل ذروته عند الذكي الموهوب... وإرادة الحياة، عنده، تفترس بعضها، والقوي يسحق الضعيف ويأتي في نهاية الأحياء والجنس البشري الذي يتحكم بسائر الأجناس الأخرى، ومع ذلك فثمة نزاع داخلي لدى هذا الجنس فنرى الإنسان ذئباً للإنسان.

الحياة :

ونظر أبو العلاء ببصريته إلى الحياة، فرآها شراً بل مصدر الشرور والآلام، والمِحَنُ والنكباتُ ملازمةٌ للحياة، وإذا حصلت مَسَرَّةٌ ما تعقبها أحزانٌ وأكثر منها فهي لا تستحق أن نحبها ونتعلق بها:

ومــا هـــي أهــلٌ أن يُؤَمَّــلَ مثلُهــا

لـــودِّ ولكـــنَّ ابـــنَ آدمَ أحمـــــقُ

وأية قيمة للحياة ما دامت عابرة مؤقتة نهايتها هلاك محتم.

خُلقنــا لـــشيءٍ غيـــرِ بـــادٍ وإنمــا

نعــيشُ قلــيلاً ثــم يــدركُنا الهُلْــك

فالرغبة في الحياة جهالة وذو الحظ من تولى وتخلى عنها:

رغبتنــا فـــي الحيـــاة لفـــرط جهــلٍ

وفُقْـــدُ حياتنـــا حـــظٌ رغيـــبُ

إنها تعب مرهق، فمن العجيب أن نرغب في عمر طويل مديد:

تعـــبٌ كلُّهــا الحيــاةُ فمــا أعجــبُ

إلا مـــن راغـــبٍ فـــي ازديـــادِ

وليس تمسك المرء بالحياة سوى غباوة وحماقة:

ومـــا هـــي أهــلٌ أنْ يُؤَمَــلُ مثلُهـــا

لـــودٍّ ولكـــن ابـــنَ أدم أحمـــقُ

إن هذه النظرة العلائية تدفع صاحبها إلى اليأس والخلاص من الحياة، وخلاصه كما يرى في العدم، في الموت:

وما لنفــسي خــلاصٌ مــن نوائبهـــا

ولا لغيـــري إلا الكـــونُ فـــي العَـــدَمِ

ويوصي أن يكتب على قبره:

هـــذا جنـــاهُ أبـــي علـــيَّ   ومـــا جنيـــتُ علـــى أحـــدْ

إذن الحياة جناية، وبؤرة أحزان، والخلاص في هجرها والتخلص منها.

وأما شوبنهور فهو يترجم مقاصد أبي العلاء بأسلوب آخر وعبارات مغايرة. يقول عن الحياة: «إنها جحيم يفوق جحيم دانتي» وفي موضع آخر: «وإذا لم يكن الشقاء هو غرض الحياة وغايتها فإنني أؤكد أن وجودنا في الحياة أنأى الأشياء عن الغرض والقصد لأنه من السخف أن نظن أن الحزن غير المحدود الذي يتغشَّى الدنيا ويفجر الحياة والذي ينشأ عن شجون ورزايا متصلة أشد اتصال بجوهر الحياة هو بلا غرض ومجرد حادث عرضي...» ويؤكد: «الدنيا لا تسر إنساناً، وكل منا ينفق جهوده ويقضي حياته في طلب السعادة التي لا ينالها، وإذا ظفر

بها وجدها من الأوهام. وإنما القاعدة أن الإنسان لا يصل لمرفأ إلا بعد أن يتحطم زورقه ويسقط شراعه».

المرأة :

لقد ذمَّ المعري الحياة ورأى فيها شراً وجناية، وذمّ الإنسان ووجد السوء في طبعه وخلقه، فكيف ينظر إلى المرأة بعد ذلك، وهي مصدر الحياة، ومبعث النسل والأمينة عليه، إلا بمنظار الاتهام والذم والسخط؟!

إنها الحيَّة الرقطاء التي تحمل السم القاتل:

وإنما الغيدُ في مَسَاربهِا كربَّةِ السمّ في تَسَرُّبها

بل يجد الموت خير مأوى للغانيات:

ودفنُ الغانيات لهن أوفى من الكِلل المنيعة والخدورِ

ويتهم المرأة بالسوء تهين الرجل بسلوكها وتضيِّع شرفه:

ألا إن النساءَ حبالُ غيٍ بهنّ يُضَيَّعُ الشرفُ التليدُ

إنّه يخشى من ذهاب المرأة إلى الحمَّام، ويخاف أن يفوحَ طيبها في الدروب إذ إنّها في هذه الحال تغوي الرجال وتصيدهم! بل يكره أن تأتمَّ في المساجد:

شرٌ على المرأةِ من حمَّامها إرسالكَ الفاضلَ من زمامِها
ومَشْيِها تضربُ في أكمامِها تفوحُ ريَّا الطِّيْبِ من أمامِها

زائرةُ المسجدِ في إلمامهـــا تأتمُّ والخيبةُ في ائتمامِهـــا

إنّه ضعيف الثقة بالمرأة، ولا ينصح لها بالتعلم إذ حَسْبُها أن تتعلم الغزل والنسيج والردْن، وحسبها إذا قرأت القرآن القليل المختصر:

علموهُنَّ الغَزْلَ والنسجَ والردّ نَ وخَلُّوا قــراءةً وكِتابَــهْ

وإذا ما خطر لها أن تتعلم القرآن وتتلقن آياته فليكن ذلك على أيدي نساء وعجائز أو شيوخ بلغوا من العمر عَتيًّا وغاضت قوتهم:

فحَمْلُ مَغَازلِ النسوانِ أَولى بِهنَّ من اليــراعِ مقلمــاتِ
ليأخذنَ التلاوةَ عن عجــوزٍ من اللائي فَغَرنَ مهتمــاتِ
ولا يَدْنِينَ من رجلٍ ضــريرٍ يلقـــنهنَّ آيـــاً محكمـــات
سوى من كان مرتعشاً يداهُ ولُمَّتُـــهُ مـــن المتثغمـــاتِ

وعندما يتحدث شوبنهور عن المرأة، يسابق المعري في ذمِّه وقدحهِ ورفضه وسخطه يقول: «إن المرأة قصيرة النظرة مبالغة التبذير والإسراف نزَّاعة إلى المكر والخديعة والرياء... أما جمالها فوحي الغريزة، وليس أكثر غباءً ممن يطلق على النساء لقب الجنس اللطيف... إنهن طويلات الشعور قصيرات العقول... والمرأة بعُد لا تفهم الفلسفة ولا تتقن العلم ولا تبرع في الفن...».

القدر :

ومن مظاهر التشاؤم عند أبي العلاء اعتقاده بالقدر وأخذه بالجبرية، حتى إنَّه ذكر في مقدمة كتابه «اللزوميات» إنه لم يؤلف هذا الكتاب باختياره بل ألفه بقضاء لا يعرف كهنه. ويجعل للقدر سلطة مطلقة على الإنسان، فالإنسان مُكْرهٌ لا طليق، مسيَّر لا مُخيَّر:

المرءُ يقدمُ دنياهُ على خطرٍ بالكرهِ منه وينآها على سَـــخَطِ

يخيطُ إثماً إلى إثمٍ فيلبـــسهُ كأنَّ مَفرَقَه بالشيبِ لم يُخَطِ

وهذا القدر هو مصدر الشرور الذي يهين الإنسان من ثقلها، إنه يتحمل وزرها دون أن يكون متخيَّراً لها أو تكون من فعل إرادته:

حوتنا شرورٌ لا صلاحَ لملثهــا فإن شَذَّ عنا صالحٌ فهو نادرُ

وما فَسَدَتْ أخلاقُنا باختيارِنا ولكنْ بأمرٍ سبَّبته المقــادِرُ

إن هذا الاعتقاد يجعل المحسن والمسيء سواء، فمن أحسن كمن أساء لأن المحسن والمسيء كلاهما مُسيَّرٌ ولا خيار له، فلا فضل لمحسن ولا تثريب لمسيء:

لا تمدَحنَّ ولا تــذمنَّ امــرأً فينا فغير مقــصرٍ كمقــصرِ

وهذا يناقض مبدأ المسؤولية الأخلاقية التي تنجم عن الفعل الإرادي الذي يقوم به الإنسان الذي يحتكم إلى عقله في التمييز

بين الخير والشر. فأين أقوال المعري مثلاً من قول الإمام علي بن أبي طالب في رسالة وجهها إلى واليه على مصر: «لا يكوننَّ المحسنُ والمسيء عندك على حدٍ سواء، لأن في ذلك تشجيعاً لأهل الإساءة على الإساءة وتثبيطاً لأهل الإحسان على الإحسان».

ويعطل المعري، بموقفه هذا الثوابَ والعقابَ، في الدارين، إذ لا يمكن أن يُثاب إنسانٌ أو يعاقب على فعلٍ أدَّاه بلا إرادة، كما تؤدي الآلةُ الصماء عملها:

إنْ كانَ من فَعَل الكبائرَ مجبراً — فعقابُه ظلمٌ على ما يفعلُ
والله إذ خَلَقَ المعادن عالمٌ — أن الحِدادَ البيضَ منها تُجْعَلُ

ولكن يبدو أن المعري قد شعر بأنه وقع في شطط إذ نفى عن الإنسان قدرته على التمييز والاختيار بين الصالح والطالح والضار والنافع والخير والشر، ونفى عنه القدرة على ممارسة الحرية، بل نسب إليه الانقياد إلى القدر والاستسلام إلى أحكامه، فحاول أن يتراجع عن رأيه فأحل العقل محل القدر ونصح بالعودة إليه:

عليكَ العقل وافعلْ ما رآه — جميلاً فهو مشتارُ الشوارِ

ودعا إلى التفكير الذي يمكن أن يهدي الإنسان إلى الصواب:

فكروا في الأمورِ يُكْشَفْ لكم — بعضُ الذي تجهلونَ بالتفكيرِ

ثم حاول أن يوفق بين العقل والقدر:

الفعلُ زينٌ ولكنْ فوقَه قَــدَرٌ   فماله في ابتغاءِ الرزقِ مقدورُ

وكذلك شوبنهور فإنه يعتقد أن الإنسان ليس حراً بل هو خاضع لقوة قاهرة، يقول: «إن التجربة تعلم الإنسان أنه ليس حراً، وأنه خاضع للضرورة، وأنه لا يتسنى له أن يغيّر من سلوكه على الرغم من كل ما له من عزم وتأمل».

ويكتب ما يلي: «يدخلونك وأنت صبي في الخامسة مغزل قطن أو مصنعاً آخر، فتظل منذ تلك الساعة تذهب إلى مصنعك كل يوم، فتقضي فيه أول الأمر عشر ساعات ثم اثني عشرة ثم أربع عشرة تؤدي خلالها عملاً آلياً لا يتغيَّر وأنت مضطر إلى هذا لكي تشتري بأغلى الأثمان أنفاسك التي ترضي إرادة الحياة...».

علة التشابه:

وبعد أن عرضنا إلى بعض أوجه التشابه بين المفكرين الكبيرين، نتساءل عن علة هذا التشابه ونحاول أن نجد إجابة مقنعة.

يتبادر إلى الذهن، قبل كل شيء أن منشأ هذا التشابه عندهما أمور شخصية ذاتية تجمعت لدى كل منهما فجعلته يضيق ذرعاً بالحياة التي لم يجد فيها إلا الألم والشقاء، ويفكر بالإنسان الذي لم يلقَ عنده ما كان يؤمل من محبة ورحمة.

فَقدَ أبو العلاء بصره وهو في الرابعة من عمره، وهل ثمة أمرٌ أقسى على المرء من العمى، ثم أصيب بِفقد والده وهو ما زال فتىً في الرابعة عشرة، وهو الأب الذي رعاه برأفة ولقنه مبادئ المعرفة وخفف عنه وطأة محنته. وبقيت قربه أم حنون عطوف، ولكن ما لبث أن اختطفتها المنية، فكان موتها ضربة صاعقة له حملته على الاعتزال حتى نهاية عمره...

أما آرثر شوبنهور فقد داهمته الأحداث الجسام منذ صغره، إذ هاجم البولونيون المدينة التي أبصر فيها النور (دانزيغ) واحتلوها، فارتحل منها إلى برلين حيث تابع والده العمل في التجارة، بيد أن الوالد ما لبث أن انتحر، وكان آرثر في السابعة عشرة من عمره، فأفعم موت أبيه قلبه هماً وغماً.

ولكن محنته الكبيرة أن أمه كانت تمارس كتابة القصة والرواية، غادرت برلين بعد وفاة والده بكراهية وانتقلت وحدها إلى مدينة فيمار لتمارس الهوى وتسلك سلوكاً شائناً وتعامل ولدها بكراهية وحقد. ولّما سمعت مرة أنه سيكون له شأن دفعته من أعلى درج منزلها مما حمله أن يقول لها وصوته يكاد يختنق من المرارة والأسى: إن الأجيال القادمة لن تعرفك إلا عن طريقي... وظل بعد ذلك أربعة وعشرين عاماً لم تقع عليها عيناه!.

إن هذه الظروف الخاصة لكل منهما، على الرغم من شدتها وقسوتها، ليست كافية لتعليل تشاؤمهما ذلك التشاؤم المريع، وإن كان لها دور في ذلك لا يصح نكرانه، وذلك أن غيرهما من الفلاسفة والأدباء قد تعرضوا إلى ما تعرضا له من أحداث ذاتية أو عائلية أليمة، ولم يسكن التشاؤم نفوسهم ولا بلغتِ النقمةُ على الحياة والإنسان عندهم مثلما بلغت عند هذين المفكرين الكبيرين.

ولهذا السبب، فإننا مثلما عرضنا إلى أحوال كلٍ منها الخاصة، فإنه حرِيٌّ بنا أن نفتش في الأحوال العامة التي اكتنفت حياتهما: الأحوال الاقتصادية والاجتماعية والسياسية لأن الإنسان يتأثر بالبيئة التي يعيش فيها وبما حوله مثلما يتأثر بظروفه الخاصة وبما هو فيه بل أكثر.

يقول الدكتور طه حسين في كتابه المشار إليه سابقاً: «إن فلسفة أبي العلاء لم تكن نتيجة ما طاف به من أحوال عصره، ومن الواضح أن هذه الأحوال لم تزد على أن زهدته في الحياة وحملته على التفكير والدرس، وإن هذا الدرس وذلك التفكير هما اللذان أنتجا له كثيراً من آرائه الخاصة في الفلسفة على اختلاف فنونها».

نبدأ من بلدة (معرة النعمان) التي يصفها هو نفسه فيقول: «... وظاهر ترابها في الصيف يبسٌ، ليس لها ماءٌ جارٍ ولا

تغرسُ فيها غرائبُ الأشجار... وقد يجيئها وقتٌ يكون فيه جَدْيُ الماعز كجدي الفرقد، ومثل حمل الكواكب حَملُ النقد... وأما الثابتُ فإذا أنبذ عند غيرها بالصبر حُسِب هنا سبائك التبر...».

وأما الحالة الاجتماعية في زمانه، ومثلها الاقتصادية والسياسية فكانت أسوأ حال، يصف المسعودي تلك الفترة من الاضطراب فيقول: «ضعفُ الإسلام في هذه الوقت وذهابُهُ، وظهورُ الروم على المسلمين، وفساد الجميع وعدمُ الجهاد وانقطاعُ السبيل وفساد الطريق، وانفرادُ كل رئيس وتغلبُه على الصقع الذي هو فيه، كفعلِ ملوكِ الطوائف بعد الإسكندر... والله المستعانُ على ما نحن فيه».

ويتحدث فؤاد البستاني في (الروائع): «كانت بلاد الشام في عصر أبي العلاء عرضةً للاضطرابات السياسية، ومقاطعةُ حلب، والمعرة منها، أجلى مظهر لهذا الاضطراب إذ كانت تتداولها أيدي الحمدانيين والفاطميين والروم وأبناء مرداس، فتتوتر العلاقات الاجتماعية والاقتصادية بسبب ذلك ويتبع الاضطراب الخلقي الاضطراب السياسي فتكثر المفاسدُ والشرور...».

ولنسمع أبا العلاء نفسه يصف لنا تلك الحال المضطربة في زمنه:

أرى حلباً حازهــا صــالحٌ وجالَ ســنانٌ علــى جلَّقـا
وحَسَّانُ في سَــلَفي طــيِّءٍ يُصَرّفُ مــن عــزِّهِ أبلقـا
وطَــلَّ قتيــلٌ فلــم يُــدَّكر وغُــلَّ أســيرٌ فمـا أطلقـا
وكم تَركَتْ آهــلاً وحـــدَه وكم غَادرتْ مثربـاً محلقـا
يسائِلُ الحــيَّ عــن مالِــهِ وما القولُ في طــائرٍ حلَّقـا

وتفككت الحياة الاجتماعية بسبب الكوارث والحروب التي تؤججها المطامع، وشاء الكذب والرياء والاندفاع وراء المال والشهرة والحرص على النفوذ والسلطة، فاغتنى الأقلون وافتقر الأكثرون، قال:

ويا بلاداً مــشى عليهـــا أولــو افتقــار وأغنيـــاءُ
إذا قــضى الله بالمخـــازي فكــلٌّ مــن فيــكِ أشــقياءُ

وأما الأمراء والحكام فهم مستبدون ومستغلون، لا يتمتعون بعقول راجحة أو خلق كريم مما ضاعف الحالة سوءاً، ولنسمع ما يقول فيهم أبو العلاء ولا يستثني أحداً:

يسوسونَ الأمورَ بغيرِ عقلٍ فينفُذ أمرُهم ويقال سَاسَــهْ
فأُفٍّ من الحياةِ وأُفٍّ منهـا ومن زمن رئاستُه خَـساسهْ

أما شوبنهور فحالهُ مماثِلْةٌ لحال أبي العلاء. يقول وِل ديورانت في كتابه (قصة الفلسفة): «استمد شوبنهور فلسفته من مزاجه العصبي وفراغ حياته وعزلته... بالإضافة إلى الآلام

والأحزان التي كانت تسودُ عصره». ويذكر هذا المؤلف نفسه: «أن أصوات التشاؤم قد ارتفعت في النصف الأول من القرن التاسع عشر في أوروبا، وعملت أصوات الشعراء المتشائمين في كل مكان "بيرون». في انكلترا (دي موسيه) في فرنسا(هيني) في ألمانيا و (ليوباردي) في لإيطاليا، و (بوشكين وليرمنتوف) في روسيا، حتى الملحنين المشهورين شوبرت وشوبان وبيتهوفن كانوا أيضاً متشائمين، ولكن شوبنهور طغى على هؤلاء جميعاً بتشاؤمه.

كانت حروب نابليون قد انتهت بهزيمته، وخرجت أوروبا من تلك الحروب منهكة، ومات الملايين من الشبان والمحاربين، وعمَّ الخرابُ والدمار كل بقعة من بقاع القارّة، وبارت الزراعة، وعاش العمال في ظروف لا تحتمل، وانتشرت البطالة، وأصاب الأسى وخيبة الأمل المثقفين والشعراء خاصة حتى قال غوته شاعر الألمان الكبير: «أشكر الله أنني لست شاباً في مثل هذا العالم المضطرب الذي انتهى فيه كل شيءٍ بالخراب».

لقد ساد الشك، على نطاق الفكر، بكل شيء: بالدين، والإنسان، والعقل، والخلق. «إن الشيطان قد انتصر على الخير والصلاح، واستبد اليأس بالأمل والرجاء زرع فولتير أرضَ الثورة، وأما شوبنهور فقد حصد هذه الأرض».

إنّ اجتماع المحن الخاصة والمآسي العامة وانعكاسها على صفحة النفس والإنسانية، يولدان، في غالب الأحيان، نزعةَ تشاؤم وما يصحبها من شكٍ ويأس ونقمة وإحباطٍ وعدمية، كما حصل للمفكرين الكبيرين أبي العلاء المعري وآرثر شوبنهور، على الرغم من تباعدهما في الزمان والمكان ودون أن يطلع اللاحق منهما على أفكار السابق.

إن ذلك يحصل عندما تكون النفسُ عاكسةً متلقية، فترسمُ على صفحتها أحوال صاحبها وما يحيط يه كما ترتسمُ ألوان قوس قزح المتعددة على صفحة السماء في جو مكفهر قاتم، وأما إذا كانت النفس الإنسانية قادرةً فاعلة فإنها تصهرُ كل ما يصلها في بوتقتها وتجعلُ من ألوانِ قوس قزح المتعددة لوناً واحداً هو اللونُ الأبيض، لونُ الإيمان بالحياة والإنسان والعقل والإرادة، لونُ المقاومةِ للرياح السامة المدمرة، لون الأمل بالمستقبل، لونُ الثقة بتغلب الخير على الشر وانتصار الفرح على الألم والحزن والوجود على الموت والعدم.

وبعد يظل هذان الحكيمان الأديبان قبسين من نبوغ باهر وقلم ساحر، تركا للأجيال التي جاءت بعدهما تراثاً فكرياً خالداً على الدهر.

المراجع

١ - تاريخ الأدب العربي: حنا فاخوري ط٧ بيروت، لبنان.

٢ - أبو العلاء المعري (الروائع) فؤاد البستاني بيروت، لبنان ١٩٦٦.

٣ - قصة الفلسفة: ويل ديورانت ترجمة د. فتح الله محمد الشعشع.

أثر التراث العربي

في النهضة الأوربية(*)

تمهيد:

إنَّ الإنسان، بفطرته وطبعه، توّاق إلى ارتياد المجهول واكتناه أسرار نفسه وخفايا الكون وكشف ما استتر وراء حجاب وإدراك ما يقع تحت الحِسِّ وما يقع خارج الحِسّ، ويظل العقل يلحُّ في طلب المعرفة دون توقف.

والمعرفة بدورها، هي اللبنة الأولى والأقوى في بناء الحضارة الإنسانية بناءً مادياً وفكرياً وروحياً، ثقافةً ومدنية.

والحق أنَّ الحضارة لم تنشأ مصادفة، بل هي ثمرة جهد ودأب متواصلين وحصيلة كشوف واستنباطات وإبداعات متلاحقة، كما أنها ليست صنع فرد أو أفراد، وإن كان لبعض الأفراد من ذوي القدرات والمواهب فضل الريادة والأسبقية، بل هي صناعة البشر جميعاً على اختلاف أجناسهم ومواطنهم.

(*) المؤتمر الثامن لمجمع اللغة العربية بدمشق، المنعقد من ٩ -١٢ تشرين الثاني/نوفمبر ٢٠٠٩ - دمشق -.

إنّ الحضارة الإنسانية هي مجموعة الحضارات القومية، وتنوعها يعود إلى اختلاف الزمان والمكان. وهذا التنوع لم يَحُلْ دون اقتباس أمة عناصر تحضّرها من أمة أخرى أو أكثر، ولئن كان للسابق فضل الإنشاء والبناء فللاحق فضل الاقتداء والإغناء.

وفي اعتقادي أنه ليس من أمة أُتيح لها أن تنهض بدور يضاهي دور أمتنا العربية. لقد كان للصحراء والبادية، وللتنقل والترحال، أثر في إذكاء العقل وإلهاب العاطفة وإطلاق الخيال عند العرب، فكانت جاهليتهم متوهجة بالمشاعر الفياضة والحكم والأمثال والتصوير والتمثيل وقد تجلى ذلك في تراث خصب من شعر ونثر وحكايات عن شجاعة وكرم وشهامة.

ولما جاء الإسلام الحنيف حقق للعرب انتقالاً سريعاً من الفرقة إلى الوحدة، ومن الضعف إلى القوة، ومن الجهل إلى العلم. لقد أحدث كلمة «اقرأ» تأثيراً عميقاً فيهم، حولتهم من أمة مشافهة ورواية إلى أمة قراءة وكتابة، وعملت الآيات الكريمة على تغيير الاتجاه: «قلْ ربِّ زدني علماً» و«هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون» وأقوال النبي الكريم: «اطلبوا العلم من المهد إلى اللحد» و«اطلبوا العلم ولو في الصين».

صارت المعرفة مطلبهم والعلم غايتهم واللسان العربي المبين أداة الإفصاح والإيضاح فتركوا للأجيال اللاحقة من قومهم

والأقوام الأخرى تراثاً تنهلّ منه وتتابع المسيرة، والأيام دول بين الناس.

تذكر الخطة الشاملة للثقافة العربية التي وضعتها المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم عام ١٩٨٦ أن التراث الثقافي يشمل المخطوطات والوثائق والآثار والمتاحف والمكتبات والتراث الشعبي وطراز العمارة، ولكن الحديث عن ذلك كله يقتضي الوقت الطويل، ولذا سأكتفي بالحديث عن وجه واحد من وجوه الثقافة ألا وهو الوجه العلمي لما كان له من أثر في الغرب لاسيما والنهضة الأوربية .

نقل العلوم إلى العربية:

بعد البعثة النبوية، وقيام الدولة العربية الإسلامية وامتداد الفتوح غرباً وشرقاً أقبل العرب على نقل معارف الأمم التي سبقتهم إلى اللغة العربية. فبدأت ترجمة ما وصل إليه السابقون في العلوم، في أيام الأمويين ثم توبعت بنشاط أكبر أيام الدولة العباسية. أنشأ المنصور ديواناً للترجمة وأحدث الرشيد بيت الحكمة وجاء المأمون فبذل جهده لتنشيط الترجمة وقدم لها الرعاية والدعم.

ترجم العرب عن الهندية والفارسية والسريانية والنبطية، ولكن القسم الأكبر من الترجمات كانت عن لغة الإغريق

اليونانية، وقد بلغ ما تُرجم من هذه اللغة أربعمئة كتاب في الفلسفة والفلك والرياضيات والطب. وأهم من ترجمت كتبهم أرسطو المعلم الأول وأفلاطون وبطليموس وإقليدس وأبو قراط وجالينوس.. الخ وكان من ألمع مترجميهم حنين بن إسحق وابنه إسحق وصهره حبيش الدمشقي وآل بختيشوع وآل ماسويه والكندي وابن المقفع وثابت بن قرة...

وماذا كان حصاد ذلك؟ لقد حفظ العرب علوم من سبقهم وصححوا ما احتاج إلى تصحيح ثم أضافوا إلى معارف السابقين إضافات مهمة أحلتهم منزلة رفيعة في تاريخ العلم والحضارة.

قال جورج سارتون في كتابه «تاريخ العلم» «إنه لعمل عظيم أن ينقل العرب إلينا علوم اليونان وفلسفتهم وأن يزيدوا عليها حتى أوصلوها إلى درجة مرموقة من النمو والارتقاء». وقال أوسلر: «لئن أشعل العرب سراجهم من القناديل اليونانية، فإنهم ما لبثوا أن أصبحوا جميعاً شعلة وهاجة استضاء بنورها أهل الأرض». وشهد سيديو بتأثيرهم اللاحق في الغرب إذ قال: «إن العرب كانوا أساتذة أوربا كلها في كل فروع المعرفة».

أما ما قيل عن المعجزة اليونانية فهو هراء إذ سبق للإغريق أن اطَّلعوا، قبل أن ينهضوا فلسفة وعلماً، على ما وصل إليه سابقوهم من أهل مصر وبلاد الشام والرافدين، فأخذوا ثم أضافوا شأن سواهم وهذا لا يقلل البتة من فضلهم وعطائهم الكبير.

الإضافات العربية:

كان من تراث حركة النقل أن دفعت إلى الدراسة والبحث والكشف، وما أضافه العلماء العرب على اختلاف مللهم، في ظل الدولة العربية الإسلامية، وباللغة العربية التي أتقنوها كثير حتى ليضيق الوقت عن تعداده. بَيْدَ أن كتاباً عن العلوم الإسلامية صدر عن مؤسسة التقدم العلمي بالكويت ذكر للعرب اثني عشر كشفاً علمياً كان لكل منها شأن كبير في تقدم العلم وهي بإيجاز:

١ - علم الجبر - الخوارزمي (و ٧٨٠م).

٢ - خيوط الجراحة من إمعاء الحيوان – الرازي (و ٨٥٠م).

٣ - الكاميرا (آلة التصوير) – ابن الهيثم (و ٩٦٥م).

٤ - النظارة (العوينات) – ابن الهيثم (و ٩٦٥م).

٥ - التخدير – ابن سينا (و ٩٨٠م).

٦ - النوَّاس – ابن يونس المصري (و ١٠٠٩م).

٧ - المِخَضَّة الماصة – الجزري (و ١١٦٥م).

٨ - الدورة الدموية الصغيرة – ابن النفيس (و ١٢١٠م).

٩ و١٠ و ١١ - تطوير صناعة الورق والبارود والإبرة المغناطيسية.

١٢ - اكتشاف قوانين الحركة الثلاثة[١].

وحسبنا أن نشير إلى دور العرب في ضبط صور الأرقام الهندية في شكليها الهندي والغباري أو الأصح الشرقي والمغربي وإيضاح دور الصفر وإدخالها الغرب.

لقد رأى جورج سارتون في مؤلفه «تاريخ العلوم» أن يقسم قصته عن الإنجازات العلمية إلى عصور يمتد كل عصر نصف قرن وقرن بكل نصف قرن شخصية مركزية واحدة:

- يدعو المدة من ٤٠٠ -٤٥٠ عصر أفلاطون يليها عصر أرسطو وإقليدس وأرخميدس.
- يدعو المدة من ٦٠٠ -٧٠٠ ق.م القرن الصيني.
- يدعو المدة من ٧٥٠ ق.م -١١٠٠ أي مدة ٣٥٠ عاماً الفترة العربية وهي سلسلة متواصلة تضم جابر بن حيان، الخوارزمي، الرازي، المسعودي، أبا الوفاء، والبيروني، ابن سينا، ابن الهيثم، وعمر الخيام.

---

(١) قوانين الحركة الثلاثة هي:

١ - تسارع جسم ما أثناء حركته يتناسب مع القوة التي تؤثر عليه.

٢ - إن لكل فعل رد فعل مساوٍ له في المقدار ومضاد له في الاتجاه.

٣ - إن الجسم يبقى في حالة سكون أو في حالة حركة منتظمة في خط مستقيم ما لم تجبره قوى خارجية على تغيير هذه الحالة.

أما الأسماء الأوربية فتظهر بعد (١١٠٠م): جيرارد الكريموني، روجر بيكون. حتى أمجاد هذه الحقبة تتقاسمها مع الأسماء الغربية أسماء عربية مثل ابن رشد والطوسي وابن النفيس. أما بعد ١٣٥٠م فيختفي الألق العربي إلا ومضات قليلة في ليل طويل.

النهضة الغربية:

ومع بدء الانحسار العربي أخذ الأوربيون بالتقدم العلمي بعد اطلاعهم على التراث العربي الذي بهرهم بروعته وعظمته، وهذا ما جعل الشاعر الإيطالي بيترارك (١٣٤٠-١٣٧٤) يقول محنقاً: «ماذا! إذا استطاع شيشرون أن يكون خطيباً بعد ديموستينوس، واستطاع فيرجيل أن يكون شاعراً بعد هوميروس، ثم بعد هؤلاء العرب لا يسمح لأحد بالكتابة؟! لقد جارينا اليونان وتجاوزناهم أحياناً، ثم تقولون: لا نستطيع بلوغ شأو العرب، يا للخبال! يا لعبقرية إيطاليا الغافية!».

لقد تعرضت البلدان العربية بدءاً من مطلع القرن الثاني عشر «بدء الحروب الصليبية (١٠٩٦-١٢٩١م) حتى سقوط غرناطة عام ١٤٩٢م» إلى غزوات ضارية مدمرة من الغرب والشرق، فكيف لا يعتري النشاط الفكري الضمور فالجمود. لما دخل المغول بخارى الزاهرة الزاهية بأهلها وتعدادهم (٤٠٠) ألف

تركوها أنقاضاً ولما دخلوا بغداد قتلوا من أهلها /٨٠٠/ ألف وخربوها وألقوا كتب العلم في نهر دجلة. أما الفرنجة فقد دمروا ما دمروا وأحرقوا ما أحرقوا ولم تسلم المكتبات من شرهم.

لقد نفذ العلم العربي بل الثقافة العربية كلها إلى أوروبا من معابر مختلفة: إسبانيا وصقلية والحرب الصليبية، ونشير باقتضاب إلى كل منها.

المعبر الأول - إسبانيا:

كانت بداية النقل في إسبانيا في منتصف القرن العاشر، فجرت ترجمات في الطب والرياضيات والفلك وجمعت في دير سنتا ماريا في ريبول في كاتالونيا الإسبانية. وقد تعرف الراهب جربرت على بعض هذه الترجمات وعلى الأرقام الغبارية، وهو نفسه قد اعتلى السُّدَّة البابوية سنة (٩٩٩م) باسم سلفستروس الثاني.

المعبر الثاني - صقلية:

استولى العرب الأغالبة على صقلية عام (٨٣١م) وبقوا فيها حتى عام (٩٠١م) ثم تلاهم بنو الحسن الكلبي حتى عام (١٠٤٠م). ومن المترجمين الذين نقلوا علوم العرب فيها الراهب البندكتي قسطنطين الإفريقي وصارت سالرنو بؤرة

علمية. وفي عهد النورمان في عام (١٠٩١م) كتب الإدريسي كتابه الجغرافي «نزهة المشتاق» وفي زمن فردريك الثاني (١٢٩٦ -١٣٣٧) ترجم تيودور وميخائيل سكوت كتب الطب.

المعبر الثالث - إسبانيا (ثانيةً):

استمر النقل من العربية في القرن الحادي عشر (١٠٠٠ - ١١٠٠م) ثم أخذ في الازدياد. يقول شارل هسكنز عن الترجمة في ذلك العصر: «لم يكن عمل المترجمين منحصراً في مكان خاص، بل إن النقل قد تم في برشلونة وطرزونة وليون وبمبلونا ثم وراء جبال البيرينة أي في الأرض الفرنسية في تولوز ومارسيليا ولكن المركز الرئيسي كان في النهاية في مدينة طليطلة».

وفي طليطلة شجع كبير الأساقفة ريموند (١١٣٠ -١١٥٠م) عملية الترجمة وكلف يحيى الإشبيلي ودومنغو جنديسلفي نقل كتب الرياضيات والفلك والفلسفة والتنجيم إلى القشتالية فاللاتينية. ولكن رأس المترجمين كان جيرارد الكريموني الذي تلبس دور ابن إسحق في المشرق فترجم مع مساعديه أكثر من سبعين مؤلفاً عربياً وأجاد ومنها كتاب «التصريف» لأبي قاسم الزهراوي و«القانون» لابن سينا و«المنصوري» للرازي وغيرها.

وفي القرن الثالث عشر استمر النقل وظهر ميخائيل سكوت ومركوس وامتد إلى فرنسا في مقاطعتي لانقودوك وبروفنس.

وفي هذا النقل عَرَّب المترجمون كلمات عربية كثيرة فحرفوا لفظها لتأتلف مع لغتهم. وإننا لنستطيع القول إن هذا كله قد غرس شجرة العلم في الأرض الأوربية فأثمرت الكثير.

المعبر الشرقي - الحروب الصليبية:

اهتم الصليبيون بالعلوم التي كانت منتشرة في الشرق ولاسيما بلاد الشام وترجموه بعد سكناهم بعض المدن الشامية، فتعلموا وضع الخرائط الجغرافية وعلم الفلك. ونقل اسطفان الأنطاكي البيزي الأصل كتاب المجوسي في الطب إلى اللاتينية. ولكن تأثرهم الأكبر كان بتقليد العرب في بناء المساكن ومفروشاتها وفي مأكولات العرب وطراز حياتهم الاجتماعي وفي آدابهم وفنونهم المختلفة.

ونثبت فيما يلي نبذة عن أهم النقلة من العربية إلى اللغات الأوربية:

١ - قسطنطين الإفريقي (١٠١٥ -١٠٨٧):

ولد في قرطاج وارتحل إلى البلدان الإسلامية بلاد الرافدين والهند ومصر ثم صار راهباً في دير كاسينو بإيطاليا عام

١٠٥٦م. نقل إلى اللاتينية فصول بقراط عن النقل العربي لحنين ابن إسحق وغيره ويؤخذ عليه أنه ترجم كتباً ونسب تأليفها لنفسه ومنها كتاب «الحميَّات» وكتاب «البول» من تأليف إسحق بن سليمان وكتاب «زاد المسافر» لأحمد بن الجزار القيرواني.

٢ - أدلهر:

وهو راهب بندكتي من مدينة باث على نهر الأفون. درس في فرنسا في مدينتي تور وليون وبإسبانيا وإيطاليا ومصر وآسيا الصغرى. رجع إلى فرنسا في عهد هنري الأول وذاع صيته عام ١١١٥م ولقب بالفيلسوف الإنكليزي. وفي حدود ١١٣٠ نقل أصول إقليدس من العربية إلى اللاتينية فصار مرجعاً للرياضيات ونقل كتاب الخوارزمي في الحساب ونقل كتاب الأزياج الخوارزمية ورسالة لثابت بن قرة...

٣ - جيرارد الكريموني:

ولد عام ١١١٤م بمدينة كريمونا في لمبارديا الإيطالية، وفيها درس الفلسفة ثم رحل إلى طليطلة ودرس العربية، ونقل منها إلى اللاتينية نحو سبعين مصنفاً علمياً منها: كتاب السماع لأرسطو، ملخص لكتاب الخوارزمي، كتاب القانون لابن سينا، وترجمة أبي الوفاء للمجسطي، كتاب المنصوري للرازي،

المدخل إلى الطب للرازي، مقالة في الجدري والحصبة للرازي، زيج الزرقالي.

أوفده الإمبراطور فريدريك الأول من مدينة كريمونا إلى طليطلة للحصول على كتاب المجسطي.

٤ - جاك ديبارنس:

ولد بمدينة تورني حوالي سنة ١٣٨٠م وتوفي عام ١٤٥٨ م. درس في مونبيليه وباريس وكان الطبيب الأول لدى الملك شارل السابع. له كتاب عن الأدوية المركبة اقتبسه من كتب ماسويه ونشره عام ١٥٠٠م. وقضى إحدى وعشرين سنة في شرح ابن سينا، ولم ينشر هذا الشرح إلا سنة ١٤٩٨ في ليون ثم في البندقية وختم الترجمة بشعر لاتيني منه:

إني أخذت من القدماء

وحمدت العرب واليونان

وهم أطباء اعترف كل الناس بفضلهم..

وهناك عدد آخر من التراجمة الأكفياء الذين نقلوا أفضل ما بلغه اليونان ثم العرب من علوم ومعارف إلى لغات الغرب ومنهم أسطفن الأنطاكي البيزي الأصل ومركوس وميخائيل سكوتر وجيراردي صابيونتا وهرمن الألماني والفرد دي سويشال الإنكليزي وغيرهم.

بعد حركة النقل الناشطة للعلوم العربية إلى اللغات الأوربية، قام ملوك أوروبا (فريديريك الثاني إمبراطور ألمانيا (١١٩٤ - ١٢٥٠)م وألفونسو العاشر ملك قشتالة (١٢٥٦-١٢٨٤)م بتأسيس مراكز ثقافية عهدوا فيها بالتدريس إلى أساتذة عرب يدرسون الطب والفلسفة والمعارف الإنسانية وبإحداث مدارس للغات الشرقية وإنشاء جمعيات دراسات وإصدار مجلات لهذا الغرض.

ويتساءل المرء: كيف نظر الغرب إلى الحضارة العربية وإلى ما تم نقله منها إلى الغرب؟

أثر التراث العربي في نهضة أوروبا:

لقد كان لنقل العلوم والمعارف العربية إلى لغات الغرب أثر كبير. لقد ذكرت المجلة التي تصدرها المنظمة العالمية للتربية والعلم والثقافة بباريس «بريد اليونسكو» عام ١٩٨٠ أن كتاب القانون لابن سينا بقي يُدرس في جامعة بروكسل ببلجيكا حتى عام ١٩٠٩. وقال أوسلر: «لقد عاش كتاب القانون مدة أطول من أي كتاب آخر كمرجع أوحد للطب». لقد بلغ عدد طبعاته سبع عشرة طبعة. وقال: «إن ابن سينا مكَّن علماء الغرب من الشروع بالثورة العلمية التي بدأت فعلاً في القرن الثالث عشر وبلغت مرحلتها الأساسية في القرن السابع عشر».

أما ابن خلدون فتأثيره أوسع من أي يحاط به، وهو ما جعل المؤرخ أرنولد توينبي يقول في كتابه «دراسة التاريخ». لقد سبق تارد بمعالجته المحاكاة والتقليد. ودوركهايم بالقول بالقسر الاجتماعي، وتميز عن فيكو بموضوعيته وشابه ماكيافيلي في دراسة السلطة وأساليب الحكم، وشابه نيتشه في نظرية الحق للقوة.

ولقد كان للفارابي تأثيره الكبير في الفكر الأوروبي. تأثر به الراهب الفيلسوف فنسان دي بوفيه عام ١٢٦٤ واقتبس أجزاء من فلسفة الفارابي، ونقلت كتبه إلى اللاتينية وطبعت جملة واحدة في باريس عام ١٦٣٨ م.

لقد قال جورج سارتون في كتابه «تاريخ العلم»: إنَّ الجانب الأكبر من مهام الفكر الإنساني قد اضطلع به المسلمون، وأنَّ أبا نصر الفارابي أعظم الفلاسفة والمسعودي أعظم الجغرافيين والطبري أعظم المؤرخين.

أما في علم الفلك فقد كان تأثيرهم أعمق وأهم. لقد مَهَّدوا الطريق لكبلر وكوبر نيكوس بما أوجدوه من آلات ومكتشفات وما قاموا به من تجارب، وأثرهم في ذلك ساطع في الأسماء الفلكية المنقولة بألفاظها إلى اللغات الأوربية.

وكيف يُغْفل الخوارزمي وهو الذي أدخل استعمال الصفر إلى أوروبا ورتب علم الجبر ووضع جداول حساب المثلثات.

إن الحديث عما اقتبسته أوروبا من العرب يطول ويطول، ولكنّ ثمة أمراً لا يصح إغفاله وهو أن الغرب لم يتأثر بالمعلومات العلمية العربية فحسب بل تأثر بالمنهج العلمي الذي ابتكره العرب، ومن أهم أركانه التي يعددها العلامة محمد السويسي ما يلي:

١ - لا يكون الحق حقاً إلا ما أملت التجربة أنه حق.

٢ - لا علم إلا بالعدد.

٣ - لا علم بلا عمل والعلم جد ومثابرة.

٤ - الحكمة ضالة المؤمن أنّى وجدها أخذها.

٥ - العقل هو المرجع وعليه الاعتماد.

٦ - العلم يطلب لذاته لا لنيل جزاء أو شكر.

وكان القرن التاسع عشر قرن الاستشراق في كل أنحاء أوروبا، فقد كثر الدارسون وجهدوا في جمع المخطوطات ونشرها مطبوعة ودراستها ثم تأليف الكتب عن ذلك كله.

لقد أفاد الاستشراق وأضرَّ. ساعد على كشف الكثير من المخطوطات العربية والعلمية والتراثية ودراستها والتعليق عليها وإذاعة خبرها. ويتجلى شره في التمسك بالأفكار المسبقة والتحامل على العرب والمسلمين.

لقد اتخذ المستشرقون تجاه الحضارة العربية ثلاثة مواقف:

- **الموقف الأول:** وليد التعصب، ذهب إلى أن الحضارة العربية هي نقل للحضارتين الإغريقية والفارسية.
- **الموقف الثاني:** حاول أن يظهر أن الحضارة العربية ليست من صنع العرب بل من صنع الأقوام التي اعتنقت الإسلام.
- **الموقف الثالث:** موقف إيجابي منصف يعترف بدور العرب الكبير في الحضارة الغربية.

إلى الموقف الأول ينتمي المستشرق فونتيه الذي يصرح بالتفوق البيولوجي للجنس العظيم المستطيل الرأس، الأشقر أي لأهل أوروبا الآريين على الإنسان السامي البدائي وقد جرى دون شك في شرايينه شيء من الدم الزنجي.

يقول إن عقليتي الشرقي والغربي تختلفان أساساً كاختلاف روما عن قرطاج في بنيتهما العقلية ويقول: العرب ورثوا عن الكلدان انشغالهم بالتنجيم واستطلاع الغيب إنهم يتصفون بالأنانية والروح التجارية النفعية.

ويتجلى هذا الهوس فيما كتبه أندره سرفيي إذ قال: إن الحضارة العربية هي من صنع شعوب أخرى كانت لها مدنيات قائمة قبل أن يستعيدها الإسلام.

هذه هي أصداء النظرة الاستعمارية التي سادت أوروبا في القرن التاسع عشر ودفعتها إلى احتلال أقسام عديدة من آسيا وأفريقيا ومن ضمنها البلدان العربية.

وقد جاء الشاعر الإنكليزي العنصري رديارد كيبلنغ ليقول: الشرق شرق والغرب غرب ولن يلتقي التوأمان.

إنهم يعبرون عن عنصريتهم بإنكار دور العرب العلمي والحضاري. وفي هذا الموقف نجد أرنست رينان المتعصب دينياً فيزعم زوراً ودون حياء أن الدين الإسلامي يتصف بالتحجر والرجعية وفيه سذاجة الفكر السامي المفزعة المقلصة للمخ البشري.

لقد استشرى هذا التيار المناوئ للعرب والإسلام في بداية القرن العشرين ولاسيما بعد الحرب العالمية الأولى وقيام حركات التحرر في عدد من البلدان.

إن هذا الموقف الذي منبعه ومرده التعصب العرقي أو الديني كانت غايته تسويغ استعمار ظالم باغٍ احتل أراضي الآخرين وصادر حريتهم وحطم إرادتهم في العيش المستقل الكريم.

وحسبنا أن نرد على هذا الضلال بكلمات قليلة:

١ - لا وجود لعرق متفوق ولا لعرق وضيع بل لكل عرق مزاياه. وبينت الأحداث فداحة الخطأ الذي وقعت فيه النازية، ورأى العالم ما ينجم عن النظرة العرقية الخاطئة من قتل وتشريد وتدمير..

٢ - أما الإسلام فهو عقيدة منفتحة على ما سبقها، سمحاء لا تفرض نفسها «لا إكراه في الدين» والقرآن الكريم في

الوقت نفسه بدأ بكلمة اقرأ، والقراءة سبيل الفهم والمعرفة وتحكيم العقل. إنَّ التمسك بدين ما لا يقتضي بالضرورة الافتئات على الأديان الأخرى أو الحط من شأنها ويقول العلامة محمد السويسي: إن العلاقة القائمة بين العلم والإيمان هي علاقة تعاضد لا علاقة تضاد.

٣ - إنَّ ابن خلدون والبيروني والفارابي وسواهم من الأعلام الذين أدوا للإنسانية أجل الخدمات فهم عرب موطناً ولغة وثقافة أياً كان نسبهم، وليس من عاقل يفرزهم خارج الحضارة العربية التي كان ركنها الدين الإسلامي واللغة العربية والتعايش السلمي والوحدة من خلال التنوع. لقد دعا العرب الفيلسوف أرسطو المعلم الأول اعترافاً بفضله فأين ذلك مما ذهب إليه بعض المستشرقين الحاقدين!

٤ - ونتساءل: إذا لم يكن فيما خلَّفه العرب من جديد فيما أضافوه، فلِمَ لم يُقْبِل الغربيون على ترجمة المؤلفات اليونانية مباشرة واكتفوا بها؟

لماذا لم يتركوا مؤلفاً للرازي مثلاً إلا نقلوه إلى لغاتهم مرة أو أكثر؟ فقد ترجم الحاوي إلى اللاتينية جيرار الكريموني عام ١٤٨٦م ورسالته في الجدري والحصبة ترجمها فالا إلى اللاتينية عام ١٤٩٨م وبوله إلى الفرنسية ١٨٦٦م ثم لوكلير ولينوار إلى الفرنسية أيضاً في العام نفسه!

٥ - ونتساءل أخيراً: لماذا دخلت المئات من الكلمات العربية بألفاظها مطوعة للنطق الغربي، اللغات الأوربية: الإسبانية والفرنسية والإنكليزية والألمانية والروسية؟ إنها كلمات علمية وحضارية لم يجد لها الأوربيون عند الاطلاع عليها مقابلات في لغاتهم. أليس هذا شاهداً على أن الحضارة العربية أثرت في الغرب علمياً وحمل هذا التأثير مفردات العلم والحضارة إلى لغات الغرب المختلفة؟

ألا يكفي أن تسمى الأرقام التي غيَّرت مسيرة العلم «الأرقام العربية» وأن الصفر نقل إلى لغاتهم، وأن اللوغاريتم تعني أن صاحبها هو الخوارزمي؟

ولعل روجه غارودي المفكر الفرنسي الشهير خير شاهد على أهمية هذا الحدث ونعني انتقال العلوم من العرب إلى الغرب. يقول غارودي: «إن الحضارة العربية الإسلامية قد أغنت الإنسانية خلال ألف من الأعوام وهيأتها للمستقبل.. لقد نقلت الحضارة العربية عبر صقلية وإسبانيا إلى أوروبا ثقافة كان العرب يحملون همها وتبعاتها مدة عشرة قرون. لقد ولد «الغرب المعاصر» من إسبانيا الفونسو العاشر ومن صقلية فريدريك الثاني.. لقد كانت المرضع لحضارة الغرب».

ونلاحظ أنَّ هذا العداء والافتراء لم ينتهِ بعد، بل تواصل على أيدي مفكرين أميركيين ورثة الاستعمار القديم.

فقد أصدر المفكر العربي الفلسطيني البارز أدوار سعيد كتاباً من أهم كتبه هو «الاستشراق».

ويكشف ادوار سعيد في هذا الكتاب الصورة التي ابتدعها الغرب عن الشرق. ويبين أن الخطاب الاستشراقي ليس مجرد فرع علمي حيادي بل تخترقه علاقات القوة والسلطة. فالأوربيون وبعدهم الأميركيون الذين كتبوا عن الشرق فعلوا ذلك بطرائق كان لا مفرَّ من أن يؤطروها ويتحكم فيها اندفاع بلدانهم لإخضاع الشعوب الشرقية واستغلالها.

وبهذا القول أظهر هذا المفكر الكبير أن الاستشراق ليس عملاً علمياً موضوعياً وحيادياً، بل هو عمل قدِّم بغرض معين وهو تسويغ الاستعمار الذي مارسه الغرب على العرب وغيرهم من شعوب الشرق.

وإذا كان هذا المنطق قد رافق عصر الاستعمار والإمبريالية، فقد انتقل اليوم، في عصر العولمة، إلى تسويغ سياسة الهيمنة والتسلط والاحتواء التي مارستها حكومة الولايات المتحدة في الحقبة الأخيرة.

فقد تصدى الكاتب الأميركي هتنغتون لهذه المهمة. ففي صيف عام ١٩٩٣م نشر في المجلة الفصلية المسماة «القضايا الأجنبية» مقالاً أثار فيه جدلاً واسعاً زعم فيه أن البلاء الرئيسي والأخطر في السياسة الكونية الناشئة سوف يكون الصدام بين

جماعات من حضارات مختلفة. ثم حوَّل هذا المقال إلى كتاب مدخلاً عليه تفصيلات وتنقيحات وإضافات وهو كتاب «صدام الحضارات». يقول هتنغتون في كتابه: إن خطوط الانقسام بين الحضارات أخذت تحل محل الحدود السياسية والإيديولوجية للحرب الباردة باعتبارها نقاط تفجر الأزمات والمذابح. ويمضي إلى القول: إن النزاع وفق خط الانقسام بين الحضارتين العربية والإسلامية مستمر منذ (١٣٠٠) سنة وإنه ليس مرجحاً أن ينحسر بل قد يصبح أكثر خطراً!

إنَّ هذه الأفكار التي تنشر الأزمات والمذابح بين الغرب والإسلام ليست علماً ولا كشفاً ولا نبوءة، بل هي تسويغ ذرائعي شديد الخطر لأنه دعوة إلى النزاعات والحروب وتأييد للقوة والجشع والنزوع إلى إلغاء الآخر. فأين يقع الاعتراف بـــ«حوار الحضارات» من هذا المنطق وأين منه الإقرار بفضل العرب في الحضارة الإنسانية وحملهم مشعل العلم والفكر والفن ثمانية قرون متتابعة!

الخاتمة

لقد أعطينا العالم الكثير في مجالات العلم والفكر، ودار الفلك دورته فإذا بنا نقع في ركود أشبه بالجمود لأسباب خارجية وداخلية وتقدم الغرب بعد أن اقتبس منا ما اقتبس. ومنذ قرنين ونحن نحاول جاهدين لننهض ونسترد مكانتنا، والعقبات ما زالت أمامنا.

بيد أنه لا يأس، فالإنسان العربي يناضل بصبر وعناد للتخلص من رواسب الجهل والتخلف والتغريب والاستلاب بعد ما عانى ما عانى في عهود القهر والتسلط، ولا بد لنضاله أن يثمر ولسعيه أن ينتصر، فيلتقي بالمتقدمين ويكون له دور المشاركة كما كان له في الماضي دور في الأسبقية والريادة.

المراجع

١ - كتاب «اللغة العربية في مواكبة الفكر العلمي» بقلم الدكتور محمد السويسي - دار الغرب الإسلامي بتونس - الطبعة الأولى عام ٢٠٠١.
٢ - كتاب «شمس العرب تسطع على الغرب» للمستشرقة الألمانية زيغريد هونكه ترجمه عن الألمانية فاروق بيضون وكمال الدسوقي وراجعه مارون عيسى الخوري. من منشورات دار الآفاق الجديدة ببيروت الطبعة الخامسة ١٩٨١.
٣ - كتاب «العلوم الإسلامية» للدكتور أحمد شوقي الفنجري – إصدار مؤسسة الكويت للتقدم العلمي الطبعة الأولى ١٩٨٥.
٤ - كتاب «مآثر العرب العلمية أساس حضارة الغرب» تأليف فؤاد جميعان الطبعة الأولى في المؤسسة العربية للدراسات والنشر ٢٠٠١.
٥ - كتاب «كتب أنصفت حضارتنا» تأليف الأستاذ فريد جحا، من منشورات اتحاد الكتاب العرب ١٩٧٧.

٦ - كتاب «دور الحضارة العربية الإسلامية في النهضة الأوربية» تأليف أ. هاني المبارك ود. شوقي أبو خليل إصدار دار الفكر بدمشق عام ١٩٩٦.
٧ - كتاب «الترجمة قديماً وحديثاً» تأليف شحادة الخوري إصدار دار المعارف في مدينة سوسة - تونس الطبعة الأولى ١٩٨٨.
٨ - كتاب «تاريخ العلوم عند العرب (بحوث ودراسات)» تأليف مجموعة من الجامعيين – إصدار بيت الحكمة في قرطاج (تونس) عام ١٩٩٠.
٩ - كتاب «فضل العرب على الإنسانية في الميادين العلمية» - محاضرة للدكتور عزة مريدن إصدار المجلس الأعلى للعلوم عام ١٩٦١.
١٠ - دراسة «آراء بعض المستشرقين حول التراث العلمي العربي والرد عليها» إصدار مكتب التربية العربي لدول الخليج ١٩٨٥.

كلمات إنكليزية من أصل عربي،
ويكيبيديا: الموسوعة الحرة

A	
admiral	أمير البحار
adobe	الطوب
abaa	عباءة
albacore	الباكورة
albatross (algatross)	الغطاس
alchemy	الكيمياء[١]
alcohol	الغول – الكحول[٢] [٣]
alcove	قبة – طاقة – الكوة
alembic	الإنبيق
algebra	الجبر
alidade	عضادة، عِضَادة
alkali	القلي
almanac	المناخ
amalgam	الملغم[٤]
amarillo	[٥]
amber	عنبر[٦]

aniline	نيلة - صبغ النيل
apricot	برقوق
aresenal	دار الصناعة
artichoke	الخرشوف
assassin	حشاشين
attar	العطار
aubergine	الباذنجان
azimuth	السموت
azure	لازورد
B	
barrio	برية[٧]
benzoin	لبان جاوي
bezoar	بصر
burnous, burnoose	برنوس
borax	بورق
body	بدن
C	
cable	الكابل أي الحبل أو القيد. كأن تقول: أتاه مكبلاً بالأصفاد. انظر المنجد،

	وكانت الحبال التي تجر بها السفن تصنع في اليمن قديماً وتسمى كابل، وجمعها كابلات.
caliber	قالب[٨]
camera	قَمْرَة والقمرة هي الغرفة الصغيرة المعتمة. كأن نقول قمرة القبطان. ولكنها لم تأتِ مباشرة من اللغة العربية بل من الإيطالية والكلمة هي NEAR CAMERA أي القمرة السوداء
camphor	كافور[٩]
candy	قند
Carat	قيراط
caraway	كراوية
carmine	كرمية
carob	خرّوب
cave	كهف
cheque	صك

chemistry	انظر alchemy
cipher	صفر
civet	[١٠]
coffee	قهوة
cotton	قطن
curcuma	كركم[١١]
coffin	كفن
Camel	جمل
D	
divan	ديوان
dragoman	ترجمان[١٢]
E	
elixir	الإكسير
emir	أمير
fustic	الفسطيط أو الفستيق[١٢]
Fakir	فقير
G	
gazelle	غزال
ghoul	غول

giraffe	زرافة[١٣]
Ginger	زنجبيل
H	
harem	حريم
hashish	حشيش
hazard	الزهر
henna	حنة
I - J	
Jar	جرة
jasmine	ياسمين [١٤]
Jerboa	جربوع
jinn	جن
K	
kermes	قرمز
kohl	الكحل
khan	لقب خان مثل جنكيز خان
kismet	من القسمة والنصيب
L	
lemon	الليمون
liliac	ليلك [١٥]

lute	العود
lilac	ليلك [١٥]
lute	العود
lilac	الليلك
M	
magazinee	مخزن وأصلها الثلاثي خزن (المورد)
mattress	مطرح
mocha	مخا
mohair	مخير
monsoon	موسم
mummy	موميا
Mirror	مرآة
mean	معنى
N - O	
nadir	نظير
nucha	نخاع، منخع [١٦]
nunation	نون
octopus	أخطبوط

P - Q	
popinijay	ببفا
praririe	البراري
R	
racquet (racket)	راحة اليد
realgar	الغار [١٢]
ream	رزمة
S	
safari	سفاري من السفر[١٧]
saffron	زعفران
sash	شاش
satelite	ساتل وأصلها ستل أي تبع والساتل هو التابع كأن تقول القمر ساتل للأرض (المنجد)
syrup, shrub, sorbet, sherbet	شراب
soap	صابون وأصلها الثلاثي صبن (المنجد)
sugar	سكر[١٨]
sumac	سماق – الأصل آرامي

sultan	سلطان
T	
tabby	عتابي
tahini	طحين
talc	طلق
tamarind	تمر هندي
tare	طرحة [١٢]
tariff	تعرفة
tazza	طشت [١٩]
U - Z	
valet	ولد
water	مطر
wadi	وادي
zenith	سمت الرأس
zero	صفر

الفهرس

الصفحة

الصفحة

للمؤلف

١ - كتاب "حول المرأة "بالاشتراك، طبع في دمشق عام ١٩٤٧ (طبعة أولى) ثم أعيد طبعه في دمشق أيضاً عام ١٩٧٧ (طبعة ثانية) عدد صفحات (١٣٦) صفحة .

٢ - كتاب "الأدب في الميدان" طبع بدمشق عام ١٩٥٠، وعدد صفحاته (١٧٨) صفحة.

٣ - كتاب "فصول في الأدب والاجتماع والتربية والثقافة والحياة العامة". طبع في دمشق عام ١٩٥٦. وعدد صفحاته (١٧٦) صفحة.

٤ - كتاب "تاريخ الأمة العربية من الجاهلية حتى اليوم وتاريخ المخترعات "بالاشتراك". طبع في حلب عام ١٩٤٩ وعدد صفحاته (١٥٠) صفحة (كتاب مدرسي).

٥ - ترجمة كتاب "الحرس الفتي" تأليف الروائي الشهير ألكسندر فادييف، بالاشتراك. طبع في جزأين من قبل دار الفارابي

في بيروت عامي ١٩٥٤و١٩٥٥، وعدد صفحاته (٧٢٠) صفحة.

٦ - ترجمة فصول من كتاب "الاتجاهات الرئيسية للبحث في العلوم الاجتماعية والإنسانية "المجلد الأول (العلوم الاجتماعية) من منشورات اليونسكو، أصدرته وزارة التعليم العالي السورية عام ١٩٧٧.

٧ - ترجمة كتاب "التجديد في تدريس العلوم" من منشورات اليونسكو، بالاشتراك أصدرته وزارة التعليم العالي السورية عام ١٩٨٤.

٨ - كتاب "الترجمة قديماً وحديثاً" إصدار دار المعارف بسوسة في تونس ١٩٨٧، وعدد صفحاته (٢٠٠) صفحة.

٩ - كتاب "تعريب التعليم الطبي والصيدلي" أصدرته دار الرائد العربي في بيروت - لبنان ١٩٨٧،وعدد صفحاته (١١٠) صفحات.

١٠ - كتاب "دراسات في الترجمة والمصطلح والتعريب" إصدار دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر بدمشق عام ١٩٨٩، وعدد صفحاته (٢٤٠) صفحة (طبعة أولى) ثم طبع (طبعة ثانية) عام ١٩٩٢.

١١ - كتاب "القضية اللغوية في الجزائر وانتصار اللغة العربية"، عام١٩٩١. وعدد صفحاته (٨٨) صفحة

١٢ - الاشتراك في تأليف "معجم اللغة العربية - المحيطة" البالغ عدد صفحاته (١٦٠٠) صفحة والصادر عن دار المحيط بباريس عام ١٩٩٢.

١٣ - كتاب "دراسات في الترجمة والتعريب والمصطلح" جزء ٢ إصدار دار الطليعة الجديدة عام ٢٠٠١ وعدد صفحاته (٢٤٠) صفحة.

١٤ - كتاب "قصة الأيام والشهور والأرقام وتسمياتها". إصدار دار الطليعة الجديدة عام ٢٠٠١ وعدد صفحاته (١٦٠) صفحة.

١٥ - كتاب "القدس في مواجهة الخطر" إصدار دار الطليعة الجديدة ،عام ٢٠٠١وعدد صفحاته (١٤٠) صفحة.

١٦ - كتاب "أوراق ثقافية" إصدار دار الطليعة الجديدة، عام ٢٠٠١، وعدد صفحاته (١٨٨) صفحة.

الطبعة الأولى / ٢٠١٢م
عدد الطبع ١٥٠٠ نسخة

آفاق ثقافية

هذا الكتاب

الثقافة هي المعرفة بشمولها وبكل اتساعها. إنها معرفة شيءٍ عن كل شيْ . إن المعرفة المكتسبة تتجه أفقياً لتصلَ إلى كل ما هو تحتَ الحس وخارجه ولا تسير عمقاً فتتناول جانباً واحداً من جوانب المعرفة. يقال ليس كل متعلم مثقفاً بل ولا كل عالم لأن العلم والتعلم من شأن العقل وحده وينصبان على حيز معين دون سواه، أما الثقافة فهي تتجاوز العقل إلى الشعور والعاطفة والذوق والخيال، وتحيط بنفس الإنسان وبالطبيعة التي تكتنفه. لقد وردت كلمة مثقف في معلقة عنترة العبسي الشاعر الجاهلي صفة للرمح المقوّم المصقول، وما أصدق هذا الوصف إن أطلق على الإنسان الذي صفا ذهنه وصقلت موهبته وتوهجت أفكاره وعواطفه. إن الثقافة تصنع الإنسان وترشده إلى الكمال فدورها لا يصح نكرانه أو إغفاله.

إن هذه الصفحات التي أقدم لها كتبتها في أوقات مختلفة وألقيتها محاضرات في مراكز الثقافة، كما نشرت في المجلات هنا وهناك. إن موضوعات هذه الدراسات يتصل بعضها ببعضٍ برباط وثيق يكسبها تكاملاً ووضوحاً وأقدمت على جمعها ونشرها في كِتاب لعلها تجيب قارئها على بعض التساؤلات وتحبب إليه العودة إلى مصادر الثقافة العربية القديمة، وما أغناها، وإلى مراجع الثقافة العربية الحديثة المعاصرة وعلى المترجمات من أعمال الآخرين، فيكون له من بعد ذلك لذة التذوق وجمال التصور، ويحظى بزادٍ وافرٍ مفيد وممتع.

المؤلف

الهيئة العامة السورية للكتاب
وزارة الثقافة
www.syrbook.gov.sy
٢٠١٢م

السعر (٥٠) ل.س